

أضواء على
التراث الحضاري المعماري الإسلامي
في العراق

إعداد :

د. اعتماد يوسف القصيري

الهيئة العامة للآثار والتراث

بغداد - جمهورية العراق

رقم الإيداع القانوني: 2008/2171
ردمك 2-448-26-9981

التصفيف والتوضيب والسحب في الإيسيسكو
الرباط ـ المملكة المغربية


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

المراقد والمشاهد والأضرحة

الفصل الرابع

المؤسسات التعليمية في العراق

الفصل الخامس

العمائر الاجتماعية

الفصل السادس

الخصائص الفنية والمعمارية للمباني العراقية

تمهيد

مختصر تاريخ العراق منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر العثماني

لكي يكون الموجز الذي سنقدمه عن معالم الحضارة الإسلامية في العراق واضحاً من ناحية التطور التاريخي، نمهد له بخلفية تاريخية في خلاصة أدوار هذه الحضارة وتطورها، وربطها بالأدوار المعنية ؛ فالعراق مهد الحضارة القديمة، بزغت في ربوعه شمس المدنية البشرية الأولى.

سمي العراق عراقاً لأنه دنا من البحر، فالبلاد القريبة من البحر هي عراق وهي كذلك لأنها على شاطئي دجلة والفرات. ويقال إن أول استعمال لكلمة العراق ورد في العهد الكشي في وثيقة ترجع في تاريخها إلى حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إلا أن معظم المؤرخين العرب والأجانب أطلقوا عليه اسم بلاد ما بين النهرين. كما ذكر اسم العراق في الشعر الجاهلي واقترن بالرخاء.

والعراق بلد المياه الوافرة والأرض الخصبة ذات الخيرات الكثيرة، ومنذ القدم كان مطمعاً لكثير من الأقوام والأمم. ولما أشرق الإسلام على العالم اندفع العرب في فتوحاتهم شرقاً وغرباً، وكان النصر حليفهم أينما اتجهوا وساروا.

وبعد أن توطدت مبادئ الدين الإسلامي، حملت الجيوش الإسلامية راية الدين الجديد لتحرير العراق ومصر والشام من السيطرة الأجنبية، وتم تحقيق هذا الهدف على عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة (13-23هـ/634-643م). وكان الانتصار الذي حققه جيش القائد العربي سعد بن أبي وقاص في واقعة القادسية حاسماً، ولم تمض سنوات قليلة حتى استولى المسلمون على المدائن عاصمة الدولة الساسانية سنة (16هـ/637م)، فأصبح العراق بذلك مفتوحاً أمام تقدم الجيوش العربية الإسلامية. وواصل الجيش العربي مسيرته الظافرة، فحرر الجزيرة ؛ أي بلاد ما بين النهرين.

ولم تشغل حروب التحرير الواسعة الخليفة عمر بن الخطاب عن التفكير في أمور إدارة البلدان المحررة، وبناء معسكرات للجيوش العربية الإسلامية لتحتمي بها، فاتخذ قرارات مهمة بتمصير الأمصار، وأمر بإنشاء مدينة البصرة في العراق سنة (14هـ/635م) في جنوب العراق قرب شط العرب. وبعد ذلك فتحت المدائن ثم تكريت والموصل وأقام فيها الجنود إلا أن جو المدائن وطبيعتها لم تلائمهم فتركوها وأسسوا الكوفة على الفرات في أطراف البادية، وذلك في سنة (17هـ/638م). وهاجرت إليها قبائل عربية عدة امتزجت بالسكان الأصليين الذين دانوا بالإسلام، وسادت اللغة العربية وغيرها من اللغات الدخيلة التي كانت منتشرة فيها.

ولمكانة العراق المرموقة وتبوئه مكان الصدارة بين الأقاليم العربية الإسلامية الناهضة سعى الإمام علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، آخر الخلفاء الراشدين (35-41هـ/655-661م) إلى أن يجعل من مدينة الكوفة عاصمة لكل العالم العربي الإسلامي في خلافته، وقد ساعد مركزها السوقي على نشر الدين الإسلامي في أقطار عديدة، لأنها أصبحت نقطة انطلاق جنود الحق في بلدان شرقي العالم الإسلامي.

وبعد أن استقر المسلمون في البلاد التي سيطروا عليها أخذت منشآتهم تبدو، وأصبح لفنهم العماري صفاته الخاصة، وصارت تصاميمهم تشتمل على القيم الوظيفية والجمالية معاً، ولم يمض زمن طويل على نبوغ المهندس العربي حتى صار يضع الرسوم بتفصيلاتها الدقيقة اللازمة للتنفيذ.

وفي زمن الأمويين أصبح العراق إقليماً مهماً من أقاليم الدولة العربية الإسلامية. وبذل الولاة عناية خاصة في تعميره وتقدمه، فازدهرت مدينتا البصرة والكوفة أثناء ولاية زياد بن أبيه على العراق في عهد معاوية، واشتهرتا بمساجدهما الجامعة وقصورهما. كما بنيت مدينة واسط التي أشاد المؤرخون والجغرافيون بتخطيطها وعمائرها وهندستها. وركز الخلفاء الأمويون اهتمامهم على العراق، فكانوا يختارون له أكفأ الولاة وأكثرهم قدرة من الناحية الإدارية والسياسية. وبذل الولاة قصارى جهودهم في تعميره وتقدمه، وكان أبرزهم الحجاج بن يوسف الثقفي الذي بذل أموالاً كثيرة على الأعمال العمرانية، وقد دامت ولاية الحجاج للقطر من سنة (75هـ إلى 105هـ/694-723م). وكانت عمائر العراق خلال هذه المرحلة التاريخية عظيمة. كما قام الخلفاء الأمويون وولاتهم بتوسيع وتجديد الأبنية الإسلامية الأولى، ففي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان قام زياد واليه في البصرة بتوسيع المسجد الجامع في البصرة سنة (44هـ/665م)، وبناه

بالآجر والجص وسقفه بالساج، وعمل فيه مقصورة، وبنى منارة المسجد بالحجارة، ونقل دار الإمارة إلى قبلة المسجد وبناها باللبن والطين، فأصبح لا يفصل بينها وبين المسجد سوى جدار القبلة، وفي عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (96-99هـ/715-717م) أعيد بناؤها بالآجر والجص. وفي سنة (51هـ/670م) تم توسيع جامع الكوفة من قبل زياد وبناه بالآجر، وجعل له أساطين جلبت له من الأهواز، وتم أيضاً تجديد دار الإمارة إلا أنها هدمت من قبل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في سنة (71هـ/690م).

في سنة (84هـ/703م) أسس الحجاج بن يوسف الثقفي والي العرق مدينة واسط على نهر دجلة وبنى فيها المسجد الجامع وقصره ذا القبة الخضراء.

وحظيت مدينة الموصل بعناية الأمويين وولاتهم، حيث أقيمت فيها بعض الأبنية والمرافق العامة المهمة، منها بناء الجامع الأموي ودار الإمارة. وشيد الحر ابن يوسف الأموي والي الموصل في سنة (106-113هـ/724-731م) قصراً فخماً زين بالفسيفساء وسمي بالمنقوشي. ولم يقصر الخلفاء الأمويون اهتمامهم هذا على البناء والعمارة فحسب، بل تعدى ذلك إلى الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم الفقهية والعقلية التي نمت وازدهرت في كل ربوع الدولة العربية الإسلامية، حيث ازدهرت الاتصالات الثقافية على إثر اتساع الدولة العربية الإسلامية وشمولها أقاليم كثيرة، وظهرت بدايات النهضة العلمية ونقل العلوم والمعارف عن الحضارات القديمة منذ أواخر هذا العصر. غير أن انشغال المتأخرين من الخلفاء الأمويين عن أمور السلطة وإدارة دفة الدولة أدى إلى تحرك القوى المعادية لها والطامعة في الحكم لاسيما القبائل العربية، فازدادت المعارضة ضد الأمويين وتحولت أفكارها المضادة إلى ثورة مسلحة قادها عبد الله بن محمد بن علي بن العباس الذي اشتهر باسم السفاح، فكان هذا أول من ملك من العباسيين، واستطاع أن يقضي على مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين وأن يهزمه في معركة الزاب. وبقتل مروان الثاني بعد هروبه من العراق إلى مصر انتهت السلطة الأموية، وأفل نجم دمشق وآلت الخلافة إلى بني العباس، وتوجه العباسيون إلى العراق بعد القضاء على الدولة الأموية سنة (132هـ/750م)، وقامت الدولة العباسية، ونقلوا مركز الخلافة من الشام إلى العراق. وبلغت الدولة في عهدهم شأواً بعيداً من التقدم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعمراني. واتخذ أول خلفائهم عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله أبو العباس الذي اشتهر باسم السفاح، مدينة الكوفة مقراً له، ثم انتقل ما بين الكوفة

والحيرة والأنبار حتى بنى الهاشمية قرب الكوفة واتخذها عاصمة له. وبعد وفاة السفاح خلفه أبو جعفر المنصور سنة (136-158هـ/754-775م) الذي لم يستقر في الهاشمية، بل فضل أن يبني حاضرة جديدة لدولته تتجلى فيها عظمة الدولة العباسية، و شرع في التحري عن موضع مناسب لذلك يتوسط العراق على دجلة في منطقة ذات سمات معينة تتلاءم وطموحاته، فاختط مدينته، وقد كان موفقاً في اختياره ؛ إذ كانت ذات مزايا هامة من النواحي التجارية والعسكرية والسياسية والطبيعية. فابتدأ البناء فيها سنة (145هـ/762م)، وسماها مدينة السلام، المدينة المدورة ذات الأسوار والتحصينات المنيعة.

ويعتبر تصميم هذه المدينة وتخطيطها أروع نموذج في تاريخ تخطيط المدن العربية الإسلامية، وقمة تطور هذا الفن الذي بدأ في تصميم مدينة البصرة. وقد ازدهرت وبسرعة الحياة في العاصمة الجديدة، وعلت شهرتها أرجاء العالم العربي الإسلامي، وصارت خلال خمسة قرون محط أنظار العلماء والفقهاء و الفنانين والمعماريين وولاة الأقاليم، وكانت الرحال تشد إليها لطلب العلم والمعرفة.

ثم امتد العمران منذ عهد المنصور إلى الجانب الشرقي من نهر دجلة حيث نزل فيه المهدي ابن المنصور وولي عهده هو وجيشه الخراساني ؛ لذلك سمي هذا الجانب عسكر المهدي، ثم أطلق عليه فيما بعد الرصافة، بعد أن تم فيه البناء في سنة (159هـ/776م) في عهد خلافة المهدي. وصار هذا الجانب من بغداد معروفاً بقصوره ومساجده ومدارسه ودور العلم فيه. أما أهم الأبنية التي بنيت في هذا الجانب، فهو جامع الرصافة، ثم اختط المهدي قصره بجوار الجامع سماه قصر السلام سنة (164هـ/780م).

إذا كان للمنصور شرف بناء المدينة المدورة، فالخليفة هارون الرشيد كان له شرف رفع لواء مجدها وتأسيس حضارتها، إذ ازدهرت الصناعة في عصره ازدهاراً كبيراً وحث الناس على مزاولتها ومعالجتها بإتقان، هذا بالإضافة إلى الأعمال العمرانية التي قام بها منها، توسيع جامع المنصور، ولا ننسى القصور التي بنيت في طريق مكة والبرك والآبار وكذلك الثغور.

ولم يقتصر البناء والتعمير على مدينة السلام، بل شمل معظم المدن العراقية، وبقي كذلك طيلة الفترة التي سبقت سقوط بغداد سنة (656هـ/1258م). وامتد تأثير الفنون والعلوم والصناعات والعمارة من العراق إلى أرجاء العالم الإسلامي، وتبوأ العراق دوراً قيادياً في هذا المجال.

وفي العصر العباسي الثاني بنيت مدينة سامراء في سنة (221هـ/835م) من قبل الخليفة العباسي المعتصم، وسمى مدينته الجديدة سر من رأى واتخذها داراً لحكمه، وبنى فيها قصوره ومسجده، ثم انتقل إليها الخلفاء، وأصبحت فيما بعد عاصمة الدولة العباسية لمدة نصف قرن تقريباً، عاد بعدها الخليفة إلى بغداد.

إن تخطيط هذه المدينة يختلف تماماً عن تخطيط المدن السالفة الذكر، ولعل ظروف العالم العربي الإسلامي الذاتية والموضوعية كان لها أثر في شكل تصميم المدينة الجديدة، والشيء الآخر أن مساجد وقصور ودور هذه المدينة تعتبر من أهم وأقدم الأمثلة الشاخصة في العراق، والتي تمثل روعة وتقدم الفن المعماري العربي الإسلامي هندسة وتقنية وفناً وزخرفة. وفي هذه الفترة ازدانت سامراء بالقصور الضخمة الكثيرة التي زخرفت جدرانها بشتى أنواع الزخارف الجصية التي كانت تنبئ عن ميلاد فن جديد بدأت ملامحه تتخذ طابعاً إسلامياً خاصاً. وكشفت الحفائر الأثرية في أطلال هذه المدينة كميات كبيرة من الزخارف الجصية التي كانت تزين الجزء السفلي من جدران الأبنية. وقد قسمت هذه الزخارف إلى ثلاثة طرز اصطلح مؤرخو الفن الإسلامي على تسميتها بالطراز الأول والثاني والثالث تبعاً لكل واحد منها من حيث طريقة تنفيذ زخارفه وعناصرها التي تتكون منها. واستناداً إلى ذلك يمكن اعتبار أن ولادة الرقش العربي كانت في سامراء ثم تطور في بغداد والموصل.

وعلى الرغم من قصر حياة مدينة سامراء التي لم يزد عمرها على نصف القرن، إلا أنه خلال هذه الفترة اتسعت المدينة، وقام الخليفة المتوكل بإنشاء مدينة المتوكلية شمال مدينة سامراء وسميت بالجعفرية نسبة إليه. ولا تزال آثار هذه المدينة شاخصة، تبقى منها مسجدها الجامع الذي يعرف بجامع أبي دلف ومباني أخرى.

ولكن مجد هذه المدينة لم يدم طويلاً، إذ قامت ثورة في سامراء ضد الخليفة المستعين مما اضطره للعودة إلى بغداد في سنة (251هـ/865م)، حيث قام ببناء تحصينات قوية لبغداد والاحتماء بها. فأنشأ سوراً حول الجانب الغربي يضم بداخله المحلات المهمة حول مدينة المنصور المدورة، وسوراً آخر في الجانب الشرقي يضم بداخله المحلات المهمة الثلاث الشماسية والرصافة والمحزم.

وفي سنة (276هـ/889م) رأى المعتمد على الله أن يعود مركز الخلافة إلى بغداد، ولكن في الجانب الشرقي منها، وبذلك أصبحت بغداد عاصمة الدولة مرة أخرى، ونشطت فيها حركة العمران وبناء القصور الفخمة والجوامع.

وفي العصر العباسي بدأ العنصر التركي بالتدخل في شؤون الدولة مستغلاً ضعف الخلفاء، وتولى الأتراك المراكز الحساسة في الدولة بعد أن فقدت الخلافة هيبتها، وفقدت الدولة العباسية الكثير من ممتلكاتها من الناحية الفعلية. وسيطر القادة الأتراك على زمام الوضع، فاستغل الطامعون تردي الوضع للحصول على تفويض تام لتدبير أقاليمهم فتمخض هذا الإجراء عن قيام دويلات صغيرة في شرق العالم الإسلامي وغربه، الأمر الذي ساعد البويهيين على دخول بغداد في زمن الخليفة المستكفي بالله سنة (334هـ/945م). وتنافس الخلفاء والأمراء والقادة والتجار في تعمير دورهم، وبذل الأموال الكثيرة بتجديد وإنشاء المباني الدينية والمدنية، هذا على الرغم من أن سيطرة الخليفة الفعلية بدأت تتقلص، وأن عدة أقاليم قد حصلت على حكم ذاتي.

لقد خضعت بغداد للحكم البويهي بين سنتي (334-445هـ/946-1053م)، واعترف الخليفة بالغزاة الوافدين، ومنحهم الألقاب منها : لقب معز الدولة لأحمد بويه. لقد لعب البويهيون دوراً سلبياً في حياة الدولة العباسية، ففي حكمهم وصلت الخلافة العباسية من الناحية السياسية إلى درجة كبيرة من الضعف والانحلال، ولكن نشاط الحركة العمرانية كان مستمراً في بغداد، وكان دورهم في التطور العمراني محدوداً، وكان الدور الأساس للشعب الذي كان على مستوى عال من التقدم الحضاري لا يقارن بما كان عليه الغزاة، فقد بنى الخليفة المطيع بالله (334-363هـ/945-973م) دار الطواويس والدار المربعة والدار المثمنة، وقام الخليفة الطائع بالله بن الخليفة المطيع (363-381هـ/973-991م) بإعمار بغداد وبناء القصور والجوامع والمستشفيات.

وفي أواخر العهد البويهي ساءت حالة العراق، فاستنجد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بالسلاجقة الذين كانوا يوسعون ملكهم في إيران آنذاك، فزحفت جيوشهم نحو بغداد بقيادة طغرلبك السلجوقي ودخلوها سنة (447هـ/1055م)، فوضعوا حداً للسيطرة البويهية وحصلوا على موافقة الخليفة بحكم العالم الإسلامي وبغداد باسمه. وكان هؤلاء السلاجقة أول من حمل لقب سلطان وملك، وقد دام حكمهم حتى سنة (575هـ/1179م)، وألقي القبض على آخر أمراء البويهيين وأودع السجن في مدينة الري إلى حين وفاته سنة (450هـ/1058م)، حيث زال نفوذ البويهيين نهائياً في العراق وإيران، وذاع صيت الوزير نظام الملك الذي اشتهر ببناء المدارس النظامية، ومنها نظامية بغداد التي أنشأ الخلفاء بعده مدارسهم على نمطها.

وظل العراق خاضعاً من الناحية السياسية لنفوذ السلاجقة إلى ما بعد منتصف القرن السادس الهجري، ولكن تأثير السلاجقة في النواحي الأخرى استمر إلى سقوط بغداد على يد المغول سنة (656هـ/1258م).

امتاز العصر السلجوقي بنشاط الحركة العمرانية، حيث شيدت في عهدهم أبنية كثيرة متنوعة منها المساجد والمدارس والمشاهد والمارستانات والأسوار والحمامات والقصور والدور الضخمة، ومع الأسف اندثرت معظم تلك الأبنية ولم يبق منها إلا القليل. كما شهدت السيطرة السلجوقية ظهور المدارس في العالم الإسلامي واتخاذها دوراً للتدريس إلى جانب المساجد والجوامع التي كانت تدرس فيها العلوم الدينية والآداب العربية واللغوية، وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه الفئات الغازية الطامعة كان دورها محدوداً في التقدم العمراني وكان الدور الأساس للشعب أو سكان البلد الذين كانوا على مستوى عال من التقدم الحضاري لا يقارن بما كان عليه الغزاة.

استمر حكم السلاجقة للعراق حتى طردهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة (575هـ/1179م) وقضى عليهم في إيران.

ومن الأبنية التي شيدت خلال هذه الحقبة التاريخية، تجديد بناء دار المملكة البويهية ؛ إذ أحيطت بسور حولها فصارت تعرف بدار السلطنة السلجوقية، واستمرت هذه الدار قائمة حتى سنة (583هـ/1187م)، حيث هدمها الخليفة العباسي الناصر لدين الله.

أما في شمال العراق فقد قامت أتابكيات، وهي دويلات شبه إقطاعية من أصل سلجوقي، أشهرها أتابكية بني زنكي في الموصل التي حكمت المدينة في الفترة (516-660هـ/1122-1262م)، وكان لهذه السلالة الفضل في تعمير المدينة وبناء المزيد من القصور والمساجد والأضرحة. والحقيقة أن معظم آثار مدينة الموصل الإسلامية الباقية إلى اليوم تعود إلى هذه الفترة، منها الجامع النوري ومنارة الحدباء، المسجد المجاهدي، مشهد الإمام يحيى بن القاسم وقصر بدر الدين لؤلؤ. وحكمت سنجار سلالة أتابكية أخرى من أسرة بني زنكي دام حكمها بين سنتي (566-616هـ/1170-1219م) وأتابكية أربيل (539-630هـ/1114-1232م) وأميرها مظفر الدين باني جامع أربيل الذي لم يبق منه سوى منارته.

وتعتبر الفترة العباسية المتأخرة، منذ أن حرر الخليفة الناصر لدين الله العراق وأجزاء مهمة من العالم الإسلامي من السيطرة السلجوقية حتى سقوط بغداد

سنة (656هـ/1255م). من ألمع الفترات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فقد عادت للخلافة هيبتها فاستقرت الأحوال، وعلت مكانة بغداد، وازدهرت فيها العلوم والآداب، وكثر البناء والإعمار.

لذا نجد أن معظم آثار بغداد العباسية المتبقية تعود إلى هذه الفترة. وكان لشخصية الناصر لدين الله وطول فترة حكمه التي تجاوزت الأربعين عاماً، وجمعه للمال آثارها الفعالة في نهضة البلاد وتقدمها ؛ إذ قام بأعمال عمرانية، منها تعمير المساجد، وتجديد المشاهد، وبناء الأربطة والمدارس، ودار الضيافة الصادر والوارد. وشمل بأعماله العمرانية معظم مدن العراق والأقاليم التي كانت تحت سيطرته. ومن مآثره العمرانية جامع الخفافين وجامع معروف الكرخي.

ومن مخلفات الخليفة الناصر لدين الله العمرانية مئذنة جامع الشيخ معروف الكرخي الذي يقع على الجانب الغربي من بغداد في المقبرة المعروفة باسمه. يتميز هذا البناء بمئذنته التي تعود في تاريخها إلى سنة (612هـ/1215م)، أما المسجد فقد تعرض إلى التجديد عدة مرات كان آخرها على عهد الخليفة الناصر لدين الله وتشهد له الكتابة المدونة على المئذنة والتي لا تزال قائمة إلى الآن في إحدى مقرنصات شرفتها.

عندما توفي الناصر لدين الله تولى الخلافة الخليفة العباسي المستنصر بالله (623-640هـ/1226-1242م). استغل المستنصر الأموال الطائلة التي خلفها له والده في تعمير البلاد ورعاية العلم والعلماء فأمر بإنشاء المدارس، منها المدرسة المستنصرية في بغداد والتي نالت شهرة واسعة، وبنى الجسر العباسي على الطريق المؤدي إلى سامراء (جسر حربى) ولا تزال هذه المباني قائمة. وكان آخر من حكم من العباسيين الخليفة المستعصم بالله بن الخليفة المستنصر سنة (640-656هـ/1232-1258م)، وفي أيامه هاجم المغول (التتر) بغداد بمساعدة الخائن مؤيد الدين محمد بن العلقمي وزير المستعصم في سنة (656هـ/1258م)، ووقع النهب والحريق والقتل والسلب الذي دام أربعين يوماً، وأحرقت دور العلم فيها وبيعت كنوز قصورها ومدارسها ومشاهدها، وصارت تلك الفاجعة عنوان ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ودليل عدوان التخلف والطيش والهمجية على التقدم والحضارة العربية الإسلامية. عين المغول لإدارة بغداد عميلهم مؤيد الدين بن العلقمي، ثم خلف من بعد وفاته في إدارة شؤونها ابنه أبو الفضل عز الدين، وأطلق على حاكم بغداد لقب وزير. لقد ظل الولاة

الإيلخانيون يحكمون العراق حوالي ثمانين سنة (656-740هـ/1258-1339م). لقد أدى هجوم هولاكو على بغداد إلى تعرض الأبنية التراثية إلى التخريب، ولكن الحياة بدأت تدب فيها تدريجياً. وبعد فترة قصيرة من سقوطها جددت بعض مبانيها وأقيمت فيها أبنية جديدة أخرى ما زال بعضها قائماً إلى الآن، حيث يعود إلى ذلك العصر أثران بارزان هما : مئذنة جامع الخلفاء (سوق الغزل حالياً) ومشهد الشيخ عمر السهروردي. غير أن كل ذلك الحقد وكل أعمال التدمير والتخريب التي أصابت العراق، وعدداً من الأقاليم الإسلامية، لم تقض على إشراقة الحضارة العربية الإسلامية، فقد وقف الطغاة الهمج في حيرة ودهشة أمام شوامخ تلك الحضارة ونتاجها العلمي والأدبي، فاعتنقوا الدين الإسلامي وأحاطوا أنفسهم بالعلماء والصناع من المسلمين، حيث صهرتم الحضارة العربية الإسلامية، وهذب الدين الإسلامي أخلاقهم.

واستطاع هولاكو في فترة وجيزة أن يؤسس دولة ضمت الأقاليم التابعة لبلاد إيران الحالية وأرمينيا وأذربيجان والعراق، وخلف هولاكو سلاطين اعتنق بعضهم الدين الإسلامي وقاموا ببعض الإصلاحات والأعمال العمرانية، ثم بدأت هذه الدولة بالضعف والانحلال، وأخذ حكام الأقاليم والمقاطعات يعلنون استقلالهم، وأسسوا لهم دويلات ومماليك متفرقة كما حدث بالنسبة للعراق، حيث استقل الشيخ حسن الكبير سنة (740هـ/1340م) وأسس الدولة الجلائرية.

والجلائريون هم من المغول أيضاً أشهر سلاطينهم السلطان أويس والسلطان حسين الذي تولى في زمنه الخواجة أمين الدين مرجان حكم بغداد، وشيد المدرسة المرجانية وخان مرجان وبعض الخانات والأسواق، وظل أمين الدين مرجان يحكم بغداد إلى سنة (775هـ/1373م)، كما شيد العديد من المدارس والمساجد والأسواق إلى جانب القصور التي لا يزال البعض منها قائماً إلى يومنا هذا، وأشهر هذه المدارس مدرسة مرجان، المدرسة الوفائية ومدرسة جامع العاقولي، ومن الجوامع جامع سراج الدين وجامع النعماني وجامع سيد سلطان علي، ومع هذه النهضة العمرانية في بغداد ازدهرت فنون الزخرفة والتزويق والتذهيب.

وفي سنة (785هـ) تعرض العراق لموجة أخرى من المغول بدخول تيمورلنك بغداد وهروب السلطان أحمد الجلائري منها وقتل مع ابنه علاء الدين، فنهبت ودمرت بعض المدن العراقية الأخرى، وبعد انتهاء حكم تيمورلنك في العراق رزح العراق تحت وطأة دولة الخروف الأسود (قرا قوينلو)، ومن ثم دولة الخروف

الأبيض (آق قوينلو) التركمانيتين حتى دخول الشاه إسماعيل الصفوي مدينة بغداد سنة (914هـ/1508م) مستغلاً فرصة التذبذب فيها.

ولم تتوقف أطماع دول الأقاليم المجاورة للعراق، فقد دفع غنى القطر وموقعه الاستراتيجي ومكانته الحضارية والسياسية إلى إثارة المنازعات والمشاحنات بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية القوية، وراحت الدولة العثمانية تتحين الفرصة لوضع حد للسلطة الصفوية في العراق، فبعد وفاة الشاه إسماعيل استغل والي العراق الظروف فثار على الشاه الصفوي طهماسب، واستنجد بالسلطان العثماني سليمان القانوني، فتوجه السلطان نحو بغداد سنة (941هـ/1534م) وبذلك أصبح العراق تحت سيطرة الدولة العثمانية لفترة انتهت بإعادة حكم الصفويين سنة (1033هـ/1623م)، والتي لم تستمر طويلاً حيث استطاع السلطان مراد الرابع إخراجهم من بغداد سنة (1048هـ/1638م) وإنهاء الحكم الفارسي للعراق. وبهذا أصبح العراق منذ عام (941هـ) وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى (1336هـ/1917م) ولاية تابعة للدولة العثمانية يقوم بإدارتها وال من الدرجة الأولى يطلق عليه لقب وزير، بلغ عددهم خلال الدور الأول والدور الثاني (134) والياً يعينهم السلطان من استانبول. وقد اهتم بعض هؤلاء الولاة والسلاطين بتعمير المساجد والأضرحة والمدارس والتي لا يزال بعضها قائماً إلى يومنا هذا.

وإلى جانب المدارس التي في الجوامع قام بعض الولاة بأعمال جليلة للبلد خلدت لهم من الذكر الطيب على مر العصور، حيث قام الوالي مدحت باشا بإنشاء معاهد علمية نذكر منها معهد الرشيد العسكري، الرشيد الملكي، وأنشأ مدارس ابتدائية للأطفال منها المدرسة الرشيدية.

وكان ضعف الدولة العثمانية عاملاً مشجعاً للولاة والمتنفذين في تحدي السلطة العثمانية وإعلان الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية، فقداستطاع الوالي داود باشا أن يعلن استقلال العراق، وصار العراق خلال حكم المماليك الذي استمر إلى سنة (1247هـ/1831م) دولة مستقلة وأصبحت بغداد عاصمة القطر كله.

ومن أشهر هؤلاء المماليك الوالي سليمان باشا الذي قام بأعمال جليلة للعراق خلدت اسمه مدى أجيال، ومن أعماله تعمير سور بغداد بعد أن تعرض للهدم والتخريب، وبنى في الجانب الغربي من بغداد سوراً وخندقاً، وتم تجديد دار المملكة (السراي) الذي لا يزال قائماً إلى الآن، وبنى المدرسة السليمانية.

أما داؤد باشا الذي يعد أحد هؤلاء المشاهير المماليك فقد أعلن استقلاله عن الدولة العثمانية، وحاول الحفاظ على دولة المماليك، إلا أن ظروف البلد لم تساعده، حيث تمكنت السلطة المركزية في استنبول من استرجاع العراق وإخضاعه من جديد للسيطرة العثمانية، وكان ذلك سنة (1247هـ/1831م).

وبالنظر لأهمية العراق الاستراتيجية، فقد ازداد اهتمام الدولة العثمانية به، وراحت ترسل إليه من الولاة من ينفذ لها هذا الطموح ويقضي على الإمارات المستقلة. وفي هذه الفترة زاد اتصال الدولة العثمانية بالدول القريبة، لذا بدأت السلطة العثمانية بإجراء بعض الإصلاحات والتنظيم الإداري، فظهرت الجرائد وكانت أول جريدة صدرت في العراق جريدة الزوراء وظهرت المطابع. كما جرى بناء بعض المباني العسكرية، منها تجديد بناء قلعة بغداد (وزارة الدفاع حالياً) سنة (1267هـ/1850م)، وبناء القشلة معسكر للجيش سنة (1278هـ/1861م)، ويذكر أن الوالي محمد نامق باشا هو الذي أمر بإنشائها، إلا أن البناء لم يكتمل في عهده وأكملها الوالي مدحت باشا فيما بعد. كما قام ببناء برج يتوسط الساحة وضعت في نهايته ساعة تدق لإيقاظ الجند صباحاً.

وبنى أيضاً المدرسة الرشدية الابتدائية التي أصبحت فيما بعد مقراً لكلية الحقوق، وتم تحويل المدرسة العليا التي بناها الوالي علي باشا سنة (1276هـ/1859م) إلى مدرسة للصنائع حالياً. وهناك أعمال كثيرة قام بها هذا الوالي لا يتسع المجال لذكرها بعضها اكتمل وبعضها لم يكتمل، إذ جاء أمر عزله عن بغداد سنة (1289هـ/1872م). حاول الولاة الذين جاءوا من بعده إجراء بعض الإصلاحات، إلا أن محاولتهم لم تجد نفعاً لأنهم كانوا ضعفاء، وبقي العراق ولاية تابعة للدولة العثمانية حتى الاحتلال البريطاني سنة (1335هـ/1917م). وحكم الإنجليز العراق حكماً عسكرياً مباشراً استمر حتى قيام الثورة العراقية سنة 1920، حيث أعقب ذلك قيام الحكم الملكي في العراق سنة 1921، والذي استمر إلى سنة 1958.

الفصل الأول

نشأة المدن العربية الإسلامية في العراق

المبحث الأول

نشأة المدن الأموية

البصرة : تخطيطها وعمارتها

مدينة عربية مصرت في العصر الإسلامي خارج الجزيرة العربية، وهي أقدمها ولا تزال آثارها باقية إلى الآن[1]. مصرت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام 14هـ/635م، حينما أفلح جيش عتبة بن غزوان في تحرير مناطق واسعة في جنوب العراق وأجزاء مهمة من أقاليم الخليج. أسسها عتبة بن غزوان المازني عامل الخليفة عمر لتكون معسكراً لجنده ومشتى لهم. وتذكر المصادر أن عتبة نزل منطقة البصرة في أربعين وثمانمائة رجل، وكانت أرضها قبل هذا تسمى أرض الهند[2]، أي أنها مصرت بموقع الخريبة وعرفت فيما بعد بأنها ضاحية من ضواحي البصرة[3]، وهو المكان الذي كانت فيه مصالح للعجم في شط العرب. وذكر ياقوت في كتابه[4]، إن موقع الخريبة كان يسمى أيضاً بالبصيرة. وقد جعل عتبة المدينة في الضفة الغربية من النهر في مكان لا يحول الماء بينه وبين المدينة المنورة حسب وصية الخليفة له. وكانت الأرض التي اختارها القائد أرضاً بكراً خالية من المباني إلا بعض المباني القديمة وقصر قديم. ويذكر أن عتبة مر بموضع المربد فوجد فيه الكلذان الغليض، فقال : «هذا هو البصرة انزلوها باسم الله»، فخط المسجد وبناه بالقصب.

---

(1) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، 1974، ج 15/2.

(2) ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، 1902، ص 188.

(3) دائرة المعارف الإسلامية، ج 3، ص 669.

(4) الحموي، ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي، البغدادي، معجم البلدان، ليبزك، 1866-1873، ج 1، ص 641.

تعددت آراء الكتاب والباحثين العرب وغيرهم في معنى البصرة، واختلفوا أيضاً في سبب التسمية، إلا أن اللغويين العرب اتفقوا أن الكلمة عربية. ويظهر أن اسم المدينة قد اشتق من صفة الأرض المختارة ؛ فقد وصفت بأنها أرض غليظة فيها حجارة بيض صلاب، وأرض هذه صفتها تدعى البصرة. وقيل في معنى البصرة هي الأرض العلكة الطيبة الحمراء، كالغرين الذي انحسر عنه ماء شط العرب[1].

والملاحظ من هذه الأقوال أن معنى البصرة قد تردد بين الأرض الرخوة والأرض الغليظة الرخوة الضاربة إلى البياض، ومن الطبيعي أن تكون أرضها كذلك لوقوعها في نهاية السهل الرسوبي المحاذي لحافة الصحراء، وطبيعي أيضاً أن تختلط الصخور الكلسية المنتشرة بين رمال الصحراء بالطمى الرسوبية فتصبح الأرض رخوة فيها غلظة تضرب إلى البياض.

وكان الباعث الرئيس الذي دفع عمراً أن يأمر بتأسيس مدينة البصرة هو الباعث العسكري، نظراً للظروف العسكرية التي واكبت الفتوحات العربية في العراق، ورغبة منه في تركيز القوة العسكرية في جنوب العراق لكي يتخذ منها المجاهدون العرب قاعدة لإسناد وجودهم، والانطلاق منها إلى المناطق الشرقية حيث توجد القوات الأخرى التي بدأ العرب بتعقبها، وتصفية وجودها، وتحرير تلك المواقع من سيطرتها عليها ونشر الإسلام فيها.

وكان عمر يدرك كل الإدراك أهمية موقع مدينة البصرة العسكري في إمداد الجيش الفارسي بالأسلحة والمؤن[2].

بنيت دور البصرة والمرافق العامة لها بالقصب الذي كان المادة الأساس في البناء آنذاك، وظلت البصرة على حالها طيلة الفترة التي تولى فيها عتبة آخر ولاتها حتى وفاته عام (16هـ) وهو في طريق عودته إلى المدينة لهدف الحج[3]، وعين بدلاً عنه المغيرة بن شعبة الثقفي. ولكن تطور البصرة الرئيسي يرجع في أصوله الى ولاية أبي موسى الاشعري التي امتدت من عام 17 إلى 29هـ/638-650م. وأول عمل

(1) مجلة لغة العرب، سنة 1913-1914، ص 436.

(2) الحموي، المصدر السابق، ج 1، ص 433.

(3) البلاذري، المصدر السابق، ص 350.

قام به هو تغيير بناء المسجد ودار الإمارة باللبن والطين[1]، كما أنه أول من خط تخطيطها وفقاً للقبائل التي سكنتها، وجعل لكل قبيلة محلة. وقد قسمت منازل أهلها على خمس خطط سميت أخمساً لتوزيع قبائلها، وتم بناء هذه المنازل حول قصر الإمارة والمسجد، وجعل شارعها الرئيسي ستون ذراعاً ومن ثم أمر الناس بالبناء. وكان عرض الشارع الرئيس ستين ذراعاً وهو مربدها، وعرض ما سواه من الشوارع التي تفصل بين الأحياء عشرون ذراعاً، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع وتتشعب منها دروب ومسالك منيعة عرضها ما بين الأربعة أذرع والثلاثة وأقيم في وسط كل خطة رحبة لمرابط الخيول، وكانت المنازل متلاصقة وغرس النخيل لأول مرة، وكان أبو بكر أول من غرسها[2].

وزرعت الأرض، ورغب بعضهم بحيازة الأرض وزراعتها. وقسم كبير من سكان هذه الأرض شرعوا في إقامة مبانٍ ثابتة لمجموعة حضرية مستقرة. وأخذ عدد سكان هذه المدينة في ازدياد مستمر، إذ كان الخليفة عمر يمد الجيش بالعون ويغذيه بالإمداد البشري، حيث تمكن من الوقوف بصلابة في وجه القوات الفارسية، فكان هؤلاء الجند طلائع المجاهدين الذي ساهموا في فتح بلاد فارس[3].

ونظراً لموقع البصرة التجاري أسرع إليها العمران واتخذتها الحكومة مقراً لإمارة العراق في أيام بني أمية في بادئ الأمر، فعمرت في أيامهم، واتسعت عمارتها، وازدهرت ثروة أهلها، وكثرت خيراتها. كما حظيت باهتمام العباسيين وشهدت نهضة عمرانية كبيرة، وبلغت شأناً عظيماً من التقدم حتى ذكرها ابن حوقل بأنها وصفت بالمجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والأبنية الفاخرة[4]. كما أسهمت في تطور الفكر، ويكفيها فخراً أنها أنجبت أعظم العلماء أمثال الحسن البصري والفراهيدي والجاحظ وغيرهم.

وفي العصور التالية توالت عليها الكروب والمحن، ولم يبق من آثارها الشاخصة إلا جزء من مسجدها الجامع الذي جدد ووسع وعمر عدة مرات خلال العصور[5].

---

(1) المصدر السابق، ص 347.

(2) ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الحمداني، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، 132، ص 113.

(3) الحموي، المصدر السابق، ج 1، ص 33.

(4) شريف يوسف، تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، بغداد، 1982، ص 230.

(5) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، صور الأرض، تحقيق كريم، طبع ليدن، 1938، ج 1، ص 92.

المسجد :

يعتبر تخطيط مدينة البصرة أول تجربة لتخطيط المدن في العصر الاسلامي الأول[1]. ولما كان المسجد يعتبر من أهم أبنية المدن الإسلامية الأولى، اهتم القادة بتعيين موقعه والإشراف على تخطيطه. وتشير المصادر الأدبية إلى أن أكثر من شخص قام بتخطيط مسجد البصرة، ويذكر أن القائد عتبة بن غزوان منهم، ومنهم من يشير إلى محجر بن الأذرع، وخبر آخر يشير إلى أن الذي قام بتخطيطه هو الأسود بن سريع[2].

خططوا المسجد ودار الإمارة في وسط المدينة في المركز، وجعلوا الطرق والشوارع تؤدي كلها إلى المسجد، وبنوا الأسواق قريبة منه ليتيسر للناس الاتصال بها وبالوالي وأداء الفرائض ودفع الضرائب. وكان أول مسجد في البصرة استخدم القصب في بنائه مثل بقية أبنية المدينة. ويظهر أن الحريق الذي اجتاح مدينة البصرة قد التهم المسجد أيضاً[3]، أي أن المسجد كان خالياً من كل بناء وكان يشتمل على ساحة مكشوفة ربما كانت مسورة بسياج من القصب، وما لبث حتى شيد له سور من اللبن والطين بأمر من أبي موسى الأشعري، كما أمر بتوسيع المسجد. ويذكر أنه صبغ جدرانه واتخذ له سقفاً من العسب[4]. وليس لدينا معلومات أثرية أو تاريخية تؤيد شكله ومقدار مساحته، إلا أنه كان يحتوي على منبر يقوم في جدار القبلة[5].

بقي المسجد على حاله طيلة فترة حكم الخليفة عثمان بن عفان، وفي عهد معاوية قام زياد بن أبيه بهدم المسجد كله، وزاد في مساحته زيادة كبيرة في سنة (45هـ/665م)، وبناه بالآجر والجص، وأقام عليه سقفاً من الخشب الصاج[6] يستند على أعمدة حجرية. واتخذ زياد مقصورة فيه، وبنى له مئذنة، ولعل هذه أول مئذنة

---

(1) سلمان، دار، عيسى، "تخطيط المدن العربية"، مبحث نشر في كتاب حضارة العراق، بغداد، 1985، ج 8، ص 12.

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص 347.

(3) سلمان، العمارات العربية الإسلامية، ج 1، ص 49.

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص 347.

(5) الحموي، المصدر السابق، ص 333.

(6) البلاذري، المصدر السابق، ص 347.

بنيت في العراق. وأمر أن تكون دار الإمارة ملاصقة له من جهة جدار القبلة. وجعل بينهما مدخلاً يؤدي من الدار إلى بيت الصلاة ليتسنى للأمير الدخول إلى المسجد بيسر دون تخطي رقاب الناس، وفرش أرضه بالحصى.

في سنة 311هـ–923م نتيجة لثورة الزنج، تم تدمير مدينة البصرة وإحراق مسجدها وبيوتها وأسواقها.

ظلت معلوماتنا عن هذا المسجد محدودة إلى أن قامت الهيئة العامة للآثار بإجراء التحريات الأثرية عام 1960، فظهر أنه مستطيل الشكل يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب 120/30، وعرضه من الشرق إلى الغرب 88/50، يتألف بيت الصلاة فيه من خمسة أساكيب ناتجة عن إقامة خمسة صفوف من الأعمدة الأسطوانية، ويطل المصلى على فناء يحيط به مجنبة ومؤخرة يتكون كل منها من أسكوبين فقط.

يعتبر هذا الاكتشاف ذا أهميه تاريخية، فلأول مرة نحصل على تخطيط أول مسجد أنشئ في العهد الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية. وعمارة المسجد على عهد الخليفة المستنصر لا تختلف من حيث الطراز عن طرازه الأول، والتغيرات التي حدثت انصبت على سعة المسجد[1] والوحدات الزخرفية التي تحلي جدرانه، وتعكس طراز النصف الأول من القرن السابع الهجري حيث بلغت فنون الحفر المفرغ على الآجر ذروتها دون غيرها من العالم الإسلامي، وكل ما تبقى من عمارة المستنصر بالله جزء من الركن الشمالي الغربي زينت حنايا مقرنصات هذا الركن بحشوات دقيقة ذات زخارف نباتية مفرغة[2]، ويعرف هذا البرج عند العامة (بمنارة علي) (شكل رقم 1)، كما عرف الجامع بجامع الامام علي (ع). وتذكر المصادر التاريخية أن منارة المسجد كانت تقوم في آخر المسجد، وكان يعتكف قريباً منها الحسن البصري للقضاء والإفتاء.

دار الإمارة:

بنى القائد عتبة بن غزوان دار الإمارة ليقيم فيها بصفته قائد الجيش العربي الإسلامي في منطقة جنوب العراق، ومعلوماتنا عن هذه الدار لا تتعدى ما ذكره المؤرخون والبلدانيون. فقد جعل القائد عتبة بن غزوان الدار بالقرب من المسجد

---

(1) المصدر نفسه، ص 943.

(2) سلمان، المصدر السابق، ج 1، ص 51.

الجامع ولم يكن لاصقاً به، في الرحبة التي كانت تسمى رحبة بني هاشم ويطلق عليها الدهناء، حيث كانت تضم السجن والديوان. وكان بناء الدار بالقصب أولاً.

وفي ولاية أبي موسى الاشعري (16هـ-637م) أعيد بناء الدار باللبن[1]، وعندما قام زياد بن أبيه بتوسيع المسجد حول موضع الدار وجعلها في قبلة المسجد، وأدخلت أرضية الدار إلى مصلى الجامع لتوسيع بيت الصلاة، وحول الحيز إلى صدر المسجد، وكان الإمام يخرج من الباب الذي فتح في جدار القبلة[2]. وأثناء ولاية الخليفة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م)، أمر والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بهدم الدار بحجة رغبته في بنائها مجدداً بالآجر[3]، إلا أنه لم يبنها، فتركها مهدمة على حالها، ولم يبن في البصرة دار إمارة حتى ولاية سليمان بن عبد الملك، إذ أمر عامله على خراج العراق صالح بن عبد الرحمن بإعادة بناء الدار، فبنيت بالجص والآجر وعلى أسسها الأولى.

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد هدمت الدار وأدخلت في أرض المصلى، ومنذ ذلك التاريخ ليس في البصرة دار إمارة للولاة[4].

سور مدينة البصرة :

كان الغرض من إنشاء مدينة البصرة كما قلنا سابقاً، أن تكون قاعدة عسكرية تقيم فيها عائلات المقاتلين وأهليهم ويستقر فيها الجند، فلم ترَ الحكومة والحالة هذه حاجة إلى تسويرها، إلا أنها عندما توسعت وأصبحت مركزاً تجارياً، أمر الخليفة المنصور العباسي بتحصين المدينة ببناء سور يحيط بها وخندق. وقد ضعف هذا السور، وبعد مرور قرن من الزمان في سنة (286هـ/1122م) جدد بناء السور، وقام القاضي عبد السلام الجبلي سنة (516هـ/1122م) ببناء سور بينه وبين السور القديم، وهذا السور لا أثر له في الوقت الحاضر.

وفي العهد السلجوقي دخلت على المسجد الصوامع السبع، والتي لم يعرف خبرها، ثم بدأ الخراب في المسجد عند اندثار البصرة عام (697هـ/1297م)، حيث

---

(1) الحموي، المصدر السابق، ج 1، ص 432.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ج 1، ص 347.

(3) ياقوت، معجم البلدان، ج 1، ص 433.

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص 349، الكوفة.

انتقل أهلها إلى مدينة البصرة الجديدة ولم يبق أثر لهذا المسجد سوى جناحه الشمالي، والذي أشرنا إليه عند حديثنا عن تنقيبات الهيئة العامة للآثار فيها، ولا زال العمل جارياً فيها إلى الوقت الحاضر.

تقوم أطلال مدينة البصرة القديمة اليوم التي عاشت ما يقرب من ألف عام، إلى الشرق من بلدة الزبير، وهي تغطي مساحة واسعة من الأرض تقع على بعد 14 كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من المدينة الحالية، ويبلغ محيطها 13كم. وبعد التوسع العمراني السريع الذي أصاب البلدة في السنوات الأخيرة، امتدت مباني هذه البلدة على أجزاء مهمة إلى غربي وشمالي المدينة الأثرية. وعلى الرغم مما أصاب أطلالها، فستظل لهذه المدينة أهميتها كأول مدينة مصرت في العصر الإسلامي.

مدينة الكوفة: تخطيطها وعمارتها

مدينة الكوفة بلد العلم والنور ودار هجرة ومنزل جهاد المسلمين وعاصمتهم الثانية بعد مدينة الرسولﷺ. إنها مدينة جميلة لإلهامها وروعة بطولاتها، وقد أبهرت العالم بما ارتفع على أرضها من آيات المعارف والفنون، وبما قدمته من بطولات وتضحيات لنشر رسالة الإسلام، وترسيخ مبادئ الحرية ومفاهيم العدالة الاجتماعية. يكفيها فخراً وصف الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لها بقوله: «الكوفة رمح الله وقبة الإسلام وجمجمة العرب يكفون ثغورهم ويمدون الأمصار»[1]. كانت الكوفة قبل الإسلام موضعاً ترتاده القبائل التابعة للمناذرة، وفيها تأسست دولتهم التي لعبت دوراً مهماً في السيطرة على أطراف العراق، وضبط حدوده وبسط النفوذ على كثير من عشائر الجزيرة العربية، وعلى مقربة منها تقع الحيرة عاصمة ملكهم، وهي إحدى مراكز الحضارة العربية قبل الإسلام[2].

كانت مدينة الكوفة ولا تزال من المدن الإسلامية الشهيرة، وهي ثاني مدينة إسلامية بنيت في العراق، وقد جاء بناؤها بعد عامين أو ثلاثة من بناء البصرة بعد الفتح الإسلامي عندما انطلق جيش القائد سعد بن أبي وقاص رافعاً راية الإسلام ومحرراً مناطق مهمة من العراق، وكان الانتصار حليفه في معارك عظيمة،

(1) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، مطبعة الاستقامة، مصر، 1966، ص 124.
(2) الألوسي، سالم، مدينة الكوفة، طبعة بغداد، وزارة الثقافة، 1965، ص 17.

كالقادسية والمدائن فهزم عرش الطغيان وأنجز تحرير العراق، فبرزت ضرورة اتخاذ مراكز انطلاق للجيش المظفر، وضرورة إيجاد مكان تسكن فيه عوائل المجاهدين والمهاجرين. وذكر أن القائد سعد بن أبي وقاص قد سمح في البداية للمجاهدين بالنزول في المدائن واتخاذ الخطط فيها[1].

لقد كان العرب المسلمون في غاية الدقة باختيار الكوفة لتشييد عاصمتهم الإقليمية الجديدة بدلاً من المدائن التي استنفر القائد العربي سعد بن أبي وقاص جيشه بعد فتحها لفترة من الزمن، إلا أن المسلمين لم يستعذبوا موقعها ومناخها لكثرة البعوض فيها والأمطار والفيضانات التي تهددها، إضافة إلى وجود نهر دجلة كحاجز طبيعي بينها وبين مركز الخلافة الإسلامية المدينة المنورة. وهكذا الأمر بالنسبة لموقع الأنبار على نهر الفرات، حيث انتقل سعد بجيوشه إلى هذا الموضع لفترة وجيزة وأقام فيه مسجداً[2]، لكن سرعان ما ترك موضع الأنبار لكثرة الذباب، ولأن الفرات كان عائقاً طبيعياً من الناحية العسكرية، لذا سعى سعد إلى البحث عن مكان مناسب لإقامة جيوش التحرير الإسلامية. وقد سبق لسعد أن كتب إلى الخليفة عمر يعلمه بحال المسلمين في المدائن[3] وجاء في جواب الخليفة إلى سعد : «أردت لهم موضعاً برياً ليس بيني وبينهم فيه بحر ولا جسر». وهكذا وقع الاختيار على موضع الكوفة بعد بحث ومشورة مستفيضين، وقد أقر الخليفة عمر هذا الاختيار الاستراتيجي، فموقعها الجغرافي مكنها من تموين جيوش العالم الإسلامي في فتوحاتها لفارس وبقية مناطق الشرق[4]، كما تميز موقعها بأنها قريبة من المياه والأراضي الزراعية التي هي حاجة أساس لنمو وازدهار المدن.

أسست مدينة الكوفة سنة (17هـ/638م) وهناك من يرى أنها مصرت سنة (15هـ/636م). كما ذهب المسعودي في كتابه مروج الذهب إلى أن مدينة الكوفة بنيت بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب في الجانب الغربي من الفرات على بعد سبعة أميال إلى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة، وكان السبب في تأسيسها كما قلنا لتكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق ودار هجرة لعامة المسلمين

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص 279.

(2) الطبري، تاريخ الطبري، حوادث 17هـ.

(3) الألوسي، مدينة الكوفة، ص 17.

(4) مهدي، علي، مدينة النجف الأشرف، بغداد، 1986، ص 6.

بدلاً من المدائن[1]، ثم توافد عليها أوائل ساكنيها من العرب والفرس والسريان واليهود والنصارى[2]. وقد نمت الكوفة بعد ذلك وتحضرت وكثر فيها العمران ووصلت أوج عظمتها في العصر الأموي.

التسمية :

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل أن ينزلها العرب، وكانت تدعى بخد العذراء، ولعل جمال الموضع هو الذي استرعى أنظار العرب حينما نزلوا إليها فعرفت بالكوفة. وقد ذكر المؤرخون واللغويون عدة أسباب لتسمية الكوفة، منها أنه عندما افتتح المسلمون القادسية ونزلوا الأنبار فآذاهم البعوض، خرج بهم القائد سعد وارتاد لهم موضع الكوفة، وقال : «تكوفوا في هذا الموضع»، أي اجتمعوا، والتكوف التجمع. وقيل أيضاً الموضع المستدير من الرمل يُسمى كوفاني، وبعضهم يسمي الأرض التي بها الحصباء مع الطين والرمل كوفة[3]. وفي العصر الأموي عرفت الكوفة بالعراقين حينما ضم معاوية الكوفة إلى زياد و جمع له البصرة سنة (49 أو 50 للهجرة)[4]. وقيل لكونها رملية حمراء ولاختلاط ترابها بالحصى، وقيل سميت بالكوفة لاستدارتها، ويظهر أن اسم المدينة قد اشتق من طبيعة الأرض المختارة فهي مستديرة. وقيل سميت الكوفة لاجتماع الناس بها من قولهم : «تكوف الرمل يتكون تكوفا إذ ركب بعضه بعضاً». مما ذكرناه من آراء حول التسمية يبدو لنا ان كلمة كوفة وكوفان معرفة لدى العرب ويرى د. طاهر العميد أن أصل كلمة كوفة عربي لغنى قواميس العربية في مفرداتها لهذه الكلمة. ولعل أرجح هذه الأقوال أن تسمية المعسكر بالكوفة قد اشتقت من لفظتين مشهورتين في المنطقة، وهما كوفان وهي تل صغير، وكويفة بني عمر وهي موضع.

تخطيط مدينة الكوفة :

كان تخطيط مدينة الكوفة يقوم على أساس قبلي، وجعلت لكل قبيلة محلة خاصة سميت باسمها، كما دعيت الشوارع الرئيسية باسم تلك القبائل أيضاً، وقد

---

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 7، 197.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص 279.

(3) المصدر نفسه، ص 279.

(4) الطبري، تاريخ الطبري، حوادث، 128.

اتبع هذا النظام في تخطيط مدينة البصرة[1]، أي أن المجمع العمراني للمدينة قد وزع على سبعة أقسام سكنية وفقاً للقيادات القبلية. تفصل بين هذه الأقسام السبعة طرق رئيسية بلغ عددها خمسة عشرنهجاً[2] التي اقتطعها سعد للقبائل المختلفة وهذه الشوارع تشعبت من المسجد باعتباره مركزاً لها، وأمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يكون المسجد في قلب المدينة، وتكون دار الإمارة قريبة منه.

أما خطط الناس فتكون حول المسجد والدار، وأن يكون عرض الشوارع الرئيسية (40) ذراعاً والمتوسطة (20) ذراعاً والأزقة (7) أذرع، وأن يتوسط كل محلة ساحة طول ضلعها (60) ذراعاً، و أن لا يزيد عدد غرف الدار الواحدة عن ثلاث، ولا يزيد ارتفاعها عن طابق واحد، وأن تكون متراصة[3]. ويشير البلاذري إلى أن مهمة تنظيم المدينة وتقسيمها على الناس قد أسندت إلى أبي الهياج عمر بن مالك بن جنادة الأسدي[4]. ومهما يكن من أمر، فقد بدأ البناء في مدينة الكوفة بعد تخطيطها مباشرة، وكان أول ما شيد فيها من الأبنية المسجد الجامع الذي يعتبر ثاني مسجد إسلامي أسس في العراق بعد مسجد البصرة، ولا تزال آثاره قائمة إلى الوقت الحاضر. ويحظى المسجد بعناية المسلمين الذين يحرصون على زيارته وإقامة الصلاة فيه حالياً.

بعد عام من إنشاء مدينة الكوفة احترقت المدينة، فأذن الخليفة باستخدام اللبن والطين بدلاً من أخصاف القصب في بناء الدور والمرافق العامة[5]، وسرعان ما شمل العمران جميع أحياء ومناطق المدينة، ثم توافد عليها أوائل ساكنيها من العرب والفرس والسريان واليهود والنصارى[6].

وقد نمت مدينة الكوفة بعد ذلك وتحضرت وكثر فيها العمران ووصلت أوج عظمتها في العصر الأموي، وعلى الأخص قبل بناء مدينة واسط، إذ ظلت محافظة

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص 239.

(2) ماسينون، لويس، خطط الكوفة، تحقيق كامل سليمان الجبوري، مطبعة النجف، 1978، ص 9.

(3) الطبري، تاريخ الطبري، حوادث سنة 17.

(4) البلاذري، فتوح البلدان، ص 379.

(5) حضارة العراق، ج 9، ص 15.

(6) البلاذري، المصدر السابق، ص 278.

على أهميتها كمركز إداري لجزء كبير من العراق، وظلت دار الإمارة حتى بعد سقوط الخلافة الأموية، أقام فيها الولاة الأمويون، وأمروا بتعمير مسجدها الجامع ومرافقها العامة الأخرى.

المسجد :

إن أول ما اختط في الكوفة مسجدها ودار الإمارة وجُعلتا في وسط المدينة، وقيل إن القائد سعداً اختط مسجدها ودار الإمارة في المقام العالي وما حولهما بنفسه، ثم قطعت الأراضي واختطت كل قبيلة موضعها. ولم تبن جوانب المسجد حين تأسيسه ثم زادوا عليه حتى كمل بناؤه في أيام زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق، وكان قصر الإمارة يتصل بالمسجد من جهة القبلة، واستناداً إلى المراجع التاريخية فهو يشبه في تخطيطه جامع الحجاج في واسط.

ولم يكن لمسجد الكوفة سور في بادئ الأمر بل كان صحنه مكشوفاً يحيط به خندق، وله سقيفة يستظل بها المصلون في الجهة الجنوبية من الصحن، ثم أحيط المسجد بسور من اللبن والطين. ويذكر أن الجامع كان يتسع لأربعين ألف مصل، واهتم من تولى الإمارة بعد سعد بن أبي وقاص بالمسجد حيث تم توسيعه وتجديده عدة مرات.

وفي عهد زياد بن أبيه، وسع المسجد بحيث صار الجامع يتسع لستين ألف مصل، وبني بالآجر واستخدمت الأعمدة الحجرية في بناء المصلى. وقد دلت الحفائر الأثرية التي أجرتها الهيئة العامة للآثار في مسجد الكوفة وما حوله، على أن المسجد كان قد أقيم على أرض مربعة الشكل تقريباً، طول ضلعها (110 أمتار) بانحراف قليل عن زاوية القبلة بمقدار سبع عشرة درجة، ولوحظت فروقات طفيفة في طولها. وكانت هذه الجدران مرتفعة يدعمها من الخارج أبراج نصف دائرية ارتفاعها بارتفاع الجدران يصل إلى نحو (20 متراً) تقريباً، وأثبتت التنقيبات أن هذه الجدران عمقها في الأرض خمسة أمتار ونصف، وترتفع الأبراج الأسطوانية القائمة في الأركان أنصافها القائمة ما بين ركني كل ضلع بارتفاع السور القائم فيه. وأثبت لنا المنقب محمد علي مصطفى الذي قام بأعمال التنقيب عام 1936 أن البناء الحالي يعود إلى العهد الأيلخاني.

وكان سقف بيت الصلاة يستند على أعمدة ذات تيجان جميلة كما كان مشيداً بالآجر والجص. إن بقايا مسجد الكوفة القديم تقوم تحت الجدران الحالية ويستدل

من المراجع التاريخية على أن الجامع في عهد زياد بن أبيه كان يتألف من مصلى ومؤخرة تطل جميعها على صحن يتوسط البناء، ويذكر أن زياداً كان قد اتخذ مقصورة في هذا المسجد، وأن الحجاج قد أمر ببناء ما تهدم من جدرانه.

حالة المسجد الراهنة :

يقوم المسجد الحالي على أسس المسجد القديم، وجدرانه الداخلية مدعمة بأبراج نصف دائرية يبلغ مجموعها (28) برجاً، ويرتفع هذا السور والأبراج التي تدعمه إلى علو (20 متراً) (شكل رقم 2). الجانب القبلي من المسجد تقوم خلفه دار الإمارة مباشرة، ودلت الحفائر الأثرية على وجود مدخل كان يربط ما بين الدار والمسجد مباشرة[1]، ويتوسط الجامع صحن مكشوف تتخلله مجموعة من المحاريب تعود إلى أزمنة مختلفة تعرف عند عامة الناس بالمقامات، وهناك سرداب ينزل إليه بمدخل بواسطة سلم وهناك سلم آخر للخروج منه، وفي وسط الصحن مكان يعرف بالسفينة أو التنور، وهو عبارة عن سرداب ينزل إليه بواسطة سلم يصل إلى باحة مكشوفة تصل إلى حجرة صغيرة فيها محراب وسقيفة معقودة بالآجر على شكل مثمن، تحيط بفناء السفينة عدة أواوين ذات عقود مدببة. واستناداً إلى الزخارف الآجرية التي تزين واجهة هذه الأواوين يرجع تاريخها إلى القرنين السادس والسابع الهجريين[2]. وأرض المسجد حصباء غير مبلطة، وتحف بالصحن مجموعة من الأواوين، ويحتوي كل إيوان على غرفة لنزول زوار المسجد، وكلها حديثة البناء.

ويلتصق بالمسجد من الجهة الشمالية الشرقية بناء يضم قبري مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، بينهما مدخل يؤدي إلى فناء المسجد، وعلى كل من القبرين قبة مزينة بالقراميد ذات الزخارف النباتية والكتابات، أما الضلع القبلي فيشتمل على بيت الصلاة ويضم محراباً مزداناً بالزخارف النباتية والهندسية وبوابة ذهبية، حيث يكون مقام أمير المؤمنين الإمام علي (ع) ويعتبر هذا المحراب من التحف الفنية البديعة ومن أجمل ما هو موجود في المسجد، هذا المحراب هو غير المحراب الأصلي للجامع، في أعلاه كتابة نصها : «هذا مقام أمير المؤمنين»، وإلى يمين المحراب أقيم منبر المصلى. وذكر الدكتور كاظم الجنابي أن جميع هذه

---

(1) مصطفى، محمد علي، التنقيب في الكوفة، مبحث نشر في مجلة سومر، مجلد 1، 1954، ص 57.

(2) الجنابي، كاظم، مسجد الكوفة، بغداد، 1966، ص 19.

العناصر المعمارية التي وجدناها في الجامع والمصلى قد شيدت في أزمنة مختلفة[1].

دار الإمارة :

تعد دار الإمارة في الكوفة أقدم ما عثر عليه من عمائر إسلامية في العراق، بل أقدم دار إمارة كشف عنها حتى الآن في العالم الإسلامي. كانت هذه الدار مربعة طول ضلعها (110 أمتار)، أي بطول ضلع المسجد تماماً (شكل رقم 3). وكشفت التحريات الأثرية التي قامت بها الهيئة العامة للآثار عام 1938، بأن هذه الدار بناها القائد سعد على مقربة من الجامع يفصل بينهما شارع تمت إزالته فيما بعد. ووصل بين البنائين بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب بعد سرقة بيت المال من هذه الدار. وقد كشفت التنقيبات عن باب في جدار القبلة يصل بين المسجد والدار التي جددها الوالي زياد بن أبيه عندما أعاد بناء المسجد، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً[2]. أحاط زياد الدار بسور آخر خارجي كما قام بتدعيم وإعادة بناء السور الداخلي، وفي عهد الخليفة عبد الملك جرت على دار الإمارة تعميرات وتجديدات. ويبدو أن الدار كانت مميزة جداً، فشبهت بقصور الحيرة، وآخر من ذكرها الرحالة ابن بطوطة الذي قال عنها إنها متهدمة، ولم يذكر شيئاً عن مساحتها وتخطيطها. وظل الأمر على هذه الصورة إلى أن قامت الهيئة بالتنقيب عام 1938، وكشفت لنا هذه التنقيبات عن معالم تخطيطها وزخارفها، وتبين لنا أن الدار مكونة من عدد من الأبنية المنشأة أحدها على بقايا الآخر الأقدم منه.

الطبقة الأولى، وهي البناية التي يعود تاريخها إلى سعد بن أبي وقاص، وظهرت أسسها نازلة بعمق (90سم)، أما الطبقة الثانية، فتظهر أن الدار تتألف من وحدات بنائية عديدة لكل منها فناء واسع، ويحيط بها سوران داخلي وخارجي، مربعا الشكل : طول ضلع السور الخارجي (170م)، وهو مبني بالآجر والجص تدعمه أبراج نصف دائرية، ستة منها في كل ضلع عدا الضلع الشمالي الذي يدعمه برجان فقط، أما السور الثاني (الداخلي) فيتصل ببناية القصر الرئيسية، وهو مربع الشكل طول ضلعه (110م)، ودعم بأبراج نصف دائرية، أربعة أبراج على كل من

---

(1) المصدر نفسه، ص 47.

(2) رجب، د. غازي، العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق، بغداد، 1989، ص 76.

أضلاعه الأربعة، كما كشفت التنقيبات عن الوحدات البنائية القائمة بين السورين، أن في كل ضلع من أضلاع السور الداخلي مدخل أو مداخل أضيفت في فترات لاحقة، أما المدخل الرئيسي فهو يقع في منتصف الضلع الشمالي مواجهاً للمدخل الرئيسي في السور الخارجي، وجميع هذه المباني تعود إلى العصر الأموي.

أما الطبقة الثالثة، وهو قصر عباسي، له سوران سور خارجي، وهو سور الطبقة الثانية نفسه بعد ترميمه، وسور داخلي جديد، ويضم هذا السور قصراً عباسياً ووحدات بنائية متنوعة التصاميم بعضها تمثل حمامات ومخازن ومباني أخرى، ولكل من هذه الوحدات فناء واسع مبلط تطل عليه بوائك متناظرة.

كما شيدت غرف بعد هدم القصر العباسي في القسم الشمالي من المبنى يظن أنها بنيت خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهناك مباني أخرى متقدمة تقوم فوق أنقاض السور الداخلي ومرافقه تعود إلى العصر الأيلخاني، استناداً إلى نوع الآجر المستخدم في بناء المرافق وإلى نوع الفخار، والعثور على الدراهم الأيلخانية فيها. وقد أظهرت التنقيبات في بعض الغرف زخارف مكونة بطريقة التلاعب في رصف الآجر، وقطع من الزخارف المحفورة على الجص، وكذلك زخارف مرسومة بالألوان المائية وكتابات دونت بخط كوفي، إضافة إلى بعض اللقى من فخار وخزف وزجاج ومسكوكات ومعادن يرجع تاريخها إلى العصرين الأموي والعباسي.

كما كشفت التنقيبات الأثرية تفاصيل تخطيط أبنية الدار الداخلية، إذ تبين أن الدار قد هدمت وأعيد بناؤها في العصر العباسي الأول، وشمل الهدم السور الداخلي وما يضمه من أبنية أضيفت له. وظلت الدار مستعملة لفترة طويلة بعد ذلك إلى العصر الأيلخاني، وأحدثت فيها غرف وقاعات وأروقة تطل على باحة مكشوفة تحيط بها من كل الجوانب، وبعض هذه المرافق كانت مخصصة لأمور رسمية، وبعضها الآخر كان خاصاً بالسكن والخدمات الأخرى. وخلال الحكم الأيلخاني بقيت هذه الدار مستعملة وجرت عليها بعض التجديدات غيرت من معالم البناء، واتضح لنا من تخطيط هذه الأبنية وعمارتها أن الطراز الذي ساد وانتشر في العراق خلال القرون السابقة لتجديد بناء الدار هو أيضاً المتبع في بناء هذه المرافق، ويسمى بالطراز الحيري الذي كان سائداً في العراق قبل الفتح الإسلامي.

وملاصقة لدار الإمارة من الجهة الغربية وعلى بعد (85م) من مسجد الكوفة، يشاهد الزائر بناية صغيرة تعرف بين عامة الناس ببيت الإمام علي، وهو يقوم

على أنقاض أبنية الدار الأصلية، حيث يقال إن الإمام علي كان قد سكن فيه، وأنه كان قد غسل فيه بعد استشهاده، وقد جرت على البيت تعميرات كثيرة.

لقد شهدت مدينة الكوفة نمواً حضارياً كبيراً في العهود العربية الإسلامية المتوالية، وكانت من أكبر وأهم مدن العراق حتى تشييد وإعمار مدينة السلام بغداد.

واليوم مدينة الكوفة هي مركز قضاء تتبع إدارياً لمحافظة النجف، وتغطي مباني بلدة الكوفة الحديثة الآن أجزاء واسعة من أنقاض الكوفة القديمة التي توجد على مسافة 2 كم إلى الجنوب الغربي من الكوفة الحديثة.

مدينة الموصل : تاريخها وعمارتها

من المدن العربية الإسلامية الجليلة المتميزة بالرفعة والسمو وعلو المنزلة، إذ أن شعلة الحضارة لم تغب يوماً في سمائها، بل ظلت مصدر النور على توالي العصور، فكانت بحق مجمع كل المعارف والفنون، إذ يتجلى ذلك في نتاجها الفكري وفي بقايا معالمها الشاخصة المتمثلة في جوامعها ومدارسها ومشاهدها. والموصل كانت إحدى قواعد بلاد العرب والإسلام، ولها تاريخ حافل بالمآثر في التاريخ العربي الإسلامي[1].

وفي مجال العمارة، فإن مدينة الموصل تعد من المدن العربية التي رفدت الحضارة الإنسانية منذ العصور السابقة للإسلام في مجال العمارة والفنون، فهي وريثة نينوى عاصمة الآشوريين. وفي العصر الإسلامي لعبت الموصل دوراً مهماً في التراث العربي الإسلامي من خلال النواحي العلمية والفنية والعمارية المبتكرة أو المتطورة فيها، سواء التي اقتصرت على الموصل وغدت من سماتها المتميزة، أو التي انتقل تأثيرها إلى المناطق العربية الإسلامية الأخرى إبان العصور العربية الإسلامية، وأدت وظائفها العمارية والجمالية ولبت حاجات الإنسان على أفضل وجه، وهي بذلك قد لعبت دوراً هاماً في تطوير التخطيطات العمرانية عموماً وتخطيط المدن خصوصاً.

تقع مدينة الموصل على مسافة (409كم) إلى الشمال من مدينة بغداد، وهي اليوم مركز محافظة نينوى نسبة إلى العاصمة الآشورية الشهيرة نينوى - حيث

---

(1) الديوجي، سعيد، تاريخ الموصل، طبع بغداد، 1982، ج 1، ص 15.

تقوم أطلالها على الجانب الشرقي لنهر دجلة قبالة مدينة الموصل[1]. ولهذه المدينة أهمية استراتيجية، فهي صلة الوصل بين الشرق والغرب عندها تلتقي طرق المواصلات الرئيسية التي تربط البحر المتوسط والخليج العربي. والموصل منفذ العراق الرئيسي على العالم الخارجي، يصفها القزويني في كتابه[2] بقوله : «المدينة العظيمة المشهورة التي هي إحدى قواعد بلاد الإسلام، رفيعة البناء والرقعة، محط رحال الركبان».

تسمية الموصل :

إن مدينة الموصل استمدت، على الأرجح، اسمها من الخصوصية الجغرافية لموقعها، وكان هذا الاسم معروفاً، أطلقه العرب على موضع المدينة القديمة منذ عهود قديمة سبقت الفتح العربي الإسلامي لها. فكلمة الموصل عربية الاشتقاق تدل صيغتها على اسم المكان، أي بمعنى الملتقى[3]. وكان العرب يطلقون اسم الموصل على الحصنين الشرقي والغربي[4]، كما كانوا يقولون عن الموصل وبلاد الجزيرة الموصلان. ويرى آخرون أنها سميت بالموصل لأنها وصلت بين العراق والجزيرة[5]. وتسمى الموصل أم الربيعين لأن فصل الخريف فيها يشبه الربيع، وتسمى أيضاً الفيحاء لجمال ربيعها وكثرة أزهارها، ويسميها بعضهم البيضاء لأن دورها مبنية بالجص والرخام[6]، وتسمى الحدباء لاحتداب في دجلتها واعوجاج في جريانه[7].

وظلت الموصل مدينة محدودة إلى أن بزغ نجم الإسلام وسطع نور الرسالة السمحاء ليشمل مختلف البقاع، وكان ذلك سنة (16هـ/637م) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وأصبحت مركزاً للفتوحات الإسلامية إلى جانب بقية المدن الرئيسية الأخرى كالبصرة والكوفة.

---

(1) الملاح، هاشم يحيى، "تحرير الموصل وتمصيرها في العصر الراشدي"، مبحث نشر في كتاب حضارة الموصل، ج 2، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1992، ص 23.

(2) القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ص 461.

(3) معجم البلدان، ج 8، ص 196.

(4) البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، مصر، 1964، ص 76.

(5) معجم البلدان، ج 5، ص 273.

(6) الديوجي، تاريخ الموصل، ص 23.

(7) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، مكتبة النهضة، مصر، 1928، ص 23.

وقد تولى أمر ولاية الموصل في البداية عدد من الولاة الذين ساهموا في فتحها أو فتح المناطق المجاورة لها، فكان أول من تولى ولاية الموصل ربعي بن الأفكل العنزي الذي كان على رأس الجيش الذي فتح الموصل في حدود سنة (16هـ/637م)، كما عمل إلى جانبه على الخراج هرثمة بن عرفجة البارقي[1]، ثم عهد بولاية الموصل إلى عتبة بن فرقد السلمي سنة (20هـ/640م) ليقوم بمهمة محدودة وهي إعادة الأمن والنظام فيها[2].

وفي سنة (22هـ/642م) تسلم ولاية الموصل هرثمة بن عرفجة البارقي واستمرت ولايته على الموصل حتى عام (34هـ/654م)، وخلال هذه الفترة قام هرثمة بأعمال عمرانية منها تخطيط الموصل وتعميرها، فقد ذكر البلاذري أن أول من اختط الموصل وأسكن فيها العرب ومصرها هرثمة بن عرفجة البارقي[3] بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، ثم بنى المسجد ودار الإمارة على غرار ما خططت به البصرة والكوفة. واستمرت الموصل بالتوسع وغدت من الأمصار المهمة وهاجرت إليها القبائل العربية من الكوفة وغيرها لما لاقاه سكانها العرب وغيرهم من حسن معاملة المسلمين القائمين فيها.

وفي خلافة عثمان (24-35هـ) نزلتها قبائل الأزد وطي وكندة وعبد قيس، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف. وخلال العهد الأموي ازدادت أهمية الموصل ونالت اهتمام الأمويين نظراً لموقعها الحربي ومركزها الاقتصادي وبعدها عن الفتن، كما شهدت أوضاعاً اقتصادية واجتماعية وثقافية متميزة. وممن تولاها بعناية سعيد بن عبد الملك الذي بنى سور الموصل[4]. وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بنى والي الموصل الحر بن يوسف قصراً تفنن في بنائه وزخرفته وطلي سقوفه بماء الذهب، وسماه بالمنقوشة لأنه كان منقوشاً بالرخام والساج والفصوص الملونة[5]. وفي عهد مروان بن محمد نصب عليها جسراً وسورها واعتنى بطرقها وسورها وبنى قلعتها، ووسع الجامع.

---

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص 637.

(2) الملاح، "تحرير الموصل وتمصيرها في العهد الراشدي"، مبحث نشر في كتاب موسوعة الموصل الحضارية، ص 29.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص 327.

(4) المصدر نفسه، ص 339.

(5) الأزدي، أبو زكريا يزيد، تاريخ الموصل، مصر، 1967م، 2، ص 26.

وفي العصر العباسي خرجت الموصل عن طاعة واليها محمد بن هول في عهد الخليفة أبي العباس مما أدى إلى هدم سورها وقتل أكثر سكانها، إلا إن هذه المدينة حظيت باهتمام المنصور سنة (136هـ/753م).

كما أن الخليفة المهدي أمر بتوسيع الجامع سنة (167هـ/783م) بعد إضافة الأسواق المحيطة به، إلا أنه سرعان ما نكبت هذه المدينة وهدمت أسوارها من قبل الخليفة هارون الرشيد سنة (170هـ/786م) بعد ثورة المدينة عليه[1]. وذكر الأزدي أن أسواق الموصل كانت حول جامعها، وفي هذه الأسواق حمامات وخانات وفنادق لنزول التجار.

تخطيط مدينة الموصل:

لا نملك معلومات تفصيلية عن شكل المدينة عند تمصير العرب لها عام (16هـ/637م)، إذ أمسكت المصادر العربية عن ذكرها، وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن هذه المدينة خلت عند التأسيس من الأسوار أو الخنادق التي تشكل عادة هيئة المدينة ومخططها الخارجي، إلا أن المقدسي قال: «البلدة هذه تشبه طيلسان مثل البصرة (المستطيل)[2] حيث تمتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة نهر دجلة.

السور:

إن طبيعة نشوء مدينة الموصل كان حربياً، حيث إنها في البداية كانت بمثابة حصن دفاعي عن نينوى عاصمة الآشوريين، وكان لابد من تحصينها، وبناء السور هو أحد مستلزمات هذا التحصين. إلا أن هذا التحصين لم يبق على حاله نتيجة زيادة عدد سكان هذه المدينة باستمرار بعد الفتح الإسلامي، فكان السور يرمم ويوسع في مناطق الزيادة لاحتواء هذه الأبنية التي خارجه. وهكذا استمر السور يتجدد إلى أن هدم من قبل الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة (180هـ/796م).

---

(1) المصدر نفسه، ص 258.

(2) المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله بن محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة بريل سنة 1906، ص 138.

وفي العصر العباسي خرجت الموصل عن طاعة واليها محمد بن هول في عهد الخليفة أبي العباس مما أدى إلى هدم سورها وقتل أكثر سكانها، إلا إن هذه المدينة حظيت باهتمام المنصور سنة (136هـ/753م).

كما أن الخليفة المهدي أمر بتوسيع الجامع سنة (167هـ/783م) بعد إضافة الأسواق المحيطة به، إلا أنه سرعان ما نكبت هذه المدينة وهدمت أسوارها من قبل الخليفة هارون الرشيد سنة (170هـ/786م) بعد ثورة المدينة عليه[1]. وذكر الأزدي أن أسواق الموصل كانت حول جامعها، وفي هذه الأسواق حمامات وخانات وفنادق لنزول التجار.

تخطيط مدينة الموصل:

لا نملك معلومات تفصيلية عن شكل المدينة عند تمصير العرب لها عام (16هـ/637م)، إذ أمسكت المصادر العربية عن ذكرها، وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن هذه المدينة خلت عند التأسيس من الأسوار أو الخنادق التي تشكل عادة هيئة المدينة ومخططها الخارجي، إلا أن المقدسي قال: «البلدة هذه تشبه طيلسان مثل البصرة (المستطيل)[2] حيث تمتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة نهر دجلة.

السور:

إن طبيعة نشوء مدينة الموصل كان حربياً، حيث إنها في البداية كانت بمثابة حصن دفاعي عن نينوى عاصمة الآشوريين، وكان لابد من تحصينها، وبناء السور هو أحد مستلزمات هذا التحصين. إلا أن هذا التحصين لم يبق على حاله نتيجة زيادة عدد سكان هذه المدينة باستمرار بعد الفتح الإسلامي، فكان السور يرمم ويوسع في مناطق الزيادة لاحتواء هذه الأبنية التي خارجه. وهكذا استمر السور يتجدد إلى أن هدم من قبل الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة (180هـ/796م).

---

(1) المصدر نفسه، ص 258.

(2) المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله بن محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة بريل سنة 1906، ص 138.

وكان لهذا السور عدة أبواب، بابه الرئيس هو باب الميدان (باب سنجار) وكانت عليه قنطرة[1]. وكان حول هذا السور خندق حفره مروان بن محمد عندما جاء إلى الموصل زيادة في تحصين المدينة عندما شعر بالخطر[2].

والمخطط العام لهذه المدينة هو فناء واسع وفيه سوق الأربعاء والجامع، وهو يقوم على مرتفع من الأرض باتجاه النهر وينزل منه إلى النهر بواسطة درج، والأسواق ثم الدروب، ويتخلل الهيكل الكثير من المنشآت والمباني.

الجامع الأموي :

يقع هذا الجامع في محلة الكوازين، وهو اليوم جامع صغير يعرف بجامع الكوازين، كما يسمى أيضاً بجامع المصفى. وهو أول مسجد شيد في الموصل، وكان هذا في سنة (16هـ/637م). وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى إن عتبة بن فرقد السلمي الذي ولاه الخليفة عمر بن الخطاب ولاية الموصل قام في سنة (17هـ/638م) ببناء أول دار للإمارة في الجانب الغربي من الموضع الذي يعرف بـ (تل قليعات) وشيد إلى جواره من الجهة الجنوبية المسجد الجامع[3]. وقد تم توسيع هذا الجامع في زمن ولاية عرفجة بن هرثمة سنة (22هـ/642م) بعد أن ضاق بالمصلين، وصار هذا المسجد بعد هذه التوسعة يتسع لأكثر من أحد عشر ألف مصلٍ[4]. لقد مر بناء الجامع خلال العهود الإسلامية المتوالية بأدوار بنائية عديدة بدأت في أوائل القرن الثاني للهجرة عندما أخذ الجامع يضيق بالمصلين فوسعه الخليفة الأموي مروان بن محمد وبناه بشكل يتلاءم وكثرة المسلمين، مع إضافات على الجامع زيادة في هيبته واحترامه، وبنى فيه مطابخ ومنارة لا نعلم موضعها بالضبط لأنها أزيلت فيما بعد، وبنى مقصورة في بيت الصلاة لكي يصلي فيها[5]. وكان المسجد ملاصقاً لدار الإمارة وحوله الأسواق، ومنذ ذلك اليوم سمي الجامع بالجامع الأموي. وفي خلافة المهدي أمر واليه على الموصل موسى بن مصعب الخثعمي سنة (167هـ/783م)

---

(1) الأزدي، تاريخ الموصل، ص 280.

(2) رشاد، عبد المنعم، "الدولة العربية الإسلامية وظهور الدويلات"، مبحث نشر في كتاب موسوعة الحضارة الإسلامية، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992، ج 2، ص 84.

(3) د. غازي رجب، العمارة العربية، ص 60.

(4) الديوه جي، تاريخ الموصل، ص 52.

(5) الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 224.

بتجديد عمارته وتوسيعه وذلك بضم الأسواق التي تحيط بالمسجد إلى المسجد، وفتح له عدة أبواب في جهاته الأربع، وأصبح هذا الجامع بمثابة معهد تعقد فيه حلقات الدرس. هذا وقد أشار الأزدي إلى احتواء الجامع على دار للحديث تطل على شاطئ دجلة بالقرب من باب الأذان الذي يؤدي إلى النهر[1]، كما ألحقت به قاعات عديدة أعدت لإلقاء المحاضرات في مختلف العلوم الدينية واللغوية، وقد تخرج من هذا الجامع لفيف من العلماء في مجالات مختلفة.

وخلال حكم الأتابكة تم تجديد بنائه، إذ قام سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي في سنة (543هـ/1148م) بتجديد عمارته وزخرفته، وذلك بعد تقليص مساحته وإدخال إضافات جديدة إلى بعض أقسامه وبنى في وسط فنائه فوارة للوضوء جميلة المنظر[2].

وللجامع مئذنة أتابكية مشابهة لمئذنة الجامع النوري من حيث البناء والريازة الزخرفية الآجرية، وتعرف اليوم بمنارة الكوازين، بينما يعرف الجامع بجامع الكوازين (شكل رقم 4).

هذا وقد أزيلت أغلب معالم المسجد خلال الحرب العالمية الأولى، ولم يبق منه سوى قاعدته وجزء من بدنه الغني بالزخارف الآجرية، وهو يقع اليوم على مقربة من الجامع الصغير الحالي، بينما كان في العهد الأتابكي من أكبر و أهم الجوامع في الموصل إلى أن أمر نور الدين زنكي بتشييد الجامع الجديد، وأصبح يعرف بالجامع العتيق. وبعد الغزو المغولي تداعى بنيانه وطمرت معالمه بين الأنقاض إلى أن شمل بأعمال التجديد بعد اختزال مساحته، ونقل محرابه الذي يعد من أنفس المحاريب المنحوتة من المرمر إلى الجامع النوري عام (1341هـ/1922م) من قبل وزارة الأوقاف. ولا تزال الوزارة والهيئة العامة للآثار يوليان اهتمامهما بهذا المبنى لأهميته الأثرية والتاريخية.

دار الإمارة :

أسس هذه الدار عتبة بن فرقد ليقيم فيها والي المدينة. تقع الدار على السطح الغربي من تل قليعات وبالقرب من الدار تقوم ساحة الميدان. وحينما تولى هرثمة بن

---

(1) الأزدي، تاريخ الموصل، ص 113.

(2) الديوه جي، جوامع الموصل، مطبعة شفيق، بغداد، 1963، ص 31.

عرفجة في سنة (22هـ/642م) ولاية الموصل وسع هذه الدار. ومما تجدر الإشارة إليه أننا لا نعرف شيئاً عن تخطيط هذه الدار وشكلها وأبعادها في عهد التأسيس، كما نجهل حجم توسيع هرثمة لها، إذ أن المصادر التاريخية لا تشير إلى ذلك[1]. وفي عهد مروان بن محمد الذي تولى الموصل مرتين الأولى (102-105هـ/720-723م) والثانية (126-127هـ/743-744م) أعاد بناء الدار وتوسيعها، وذلك بإضافة ساحة الميدان إليها وإلى الجامع، وهي تمتد من باب الجسر من سوق الميدان الحالي إلى سوق الشعارين[2]، وقد اتخذ بينها وبين الجامع باباً يؤدي إلى ممر طويل فرشه بالبلاط. كما أن العباسيين اتخذوا الدار المذكورة دار إمارة لهم، وآخر من نزل فيها أحمد بن يزيد والي الرشيد، ولا نعرف على وجه التأكيد ما إذا كان الولاة العباسيين بعد أحمد بن يزيد قد واصلوا الإقامة فيها أم أنهم أقاموا في دار غيرها. وتذكر المصادر والمراجع التاريخية أن الحر بن يوسف عندما تولى إمارة الموصل عام (106هـ/724م) رفض النزول في دار الإمارة وأمر أن تبنى له دار سميت بالمنقوشة نظراً لكثرة زخارفها، حيث كانت مزينة بالفصوص الملونة والفسيفساء والساج المزخرف. وقد ابتدأ الحر ببناء هذه الدار فور وصوله إلى الموصل وسكنها بعد انتهاء العمل فيها، فأصبحت مقراً لإقامته وداراً للإمارة في الوقت نفسه[3]. واستمر الحر يسكن فيها إلى سنة (135هـ/752م) حيث صادرها الوالي العباسي إسماعيل بن علي. وقد ظلت آثار المنقوشة باقية إلى أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حيث أشار إليها المؤرخ الموصلي المشهور ابن الأثير سنة (630هـ/1232م) بقوله : أما الآن فهي خربة تجاور سوق الأربعاء[4].

لقد كان لموقع مدينة الموصل أثر كبير في تطور تاريخها الحضاري في مختلف العصور. وأول من انتبه إلى خطورة موقعها هو الفاروق عمر (رض) فاتخذها مركزاً للفتوحات، وجعلها قاعدة للأجناد الستة التي جندها[5].

---

(1) العميد، د. طاهر، "العمارات المدنية / دار الإمارة"، مبحث نشر في كتاب حضارة العراق، ج 7، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985.

(2) الأزدي، تاريخ الموصل، 2، 14.

(3) المصدر نفسه،ج 2، 26.

(4) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أكرم، محمد بن عبد الكريم الجزري، الكامل في التاريخ، مصر، 1375، ج 5، ص 133أ

(5) ابن الأثير، أبو الحسن علي، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، 1963، ص 366.

مدينة واسط : نشأتها - تخطيطها - عمرانها

في العصر الإسلامي، وعلى أيام الخليفة عمر بن الخطاب، أنشئت شبكة من المدن العسكرية بعد فتح العراق، فأصبحت فيما بعد مراكز للإمارة، فمصرت البصرة مقابل الأيلة في جنوبه، والكوفة في الوسط قرب الحيرة وحديثة الفرات قرب الموصل، والموصل شمال العراق على نهر دجلة. كما شجع الخلفاء القبائل العربية على الهجرة إلى المدن الجديدة والمراكز الأخرى كالمدائن والأنبار وكسكر وميسان للالتحاق بالقوات العربية المقاتلة وجعلوا ذلك شرطاً للعطاء[1]. ووزعت الأراضي عليهم ليستقروا عليها، وذلك ضماناً للاستيطان والاستقرار، وتوكيداً للإدارة والفتح، وتوثيقاً للسيادة الإسلامية فيها[2]. وتقف واسط مثالاً حياً للمدن التي نشأت بفعل هذا العامل.

تعد مدينة واسط خامس مدينة رئيسية بناها العرب في العراق، بناها الحجاج بن يوسف الثقفي عندما تولى ولاية العراق في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/684-705م). وكان الحجاج من أكفأ رجال الخليفة عبد الملك، ولاه العراق لإعادة النظام والاستقرار فيه ومواجهة ثورة الأزارقة[3]. أقام الحجاج عند دخوله العراق بالكوفة سنة ومثلها في البصرة، وأخمد الفتن في المدينتين وفارس. ولكي يسيطر على هذه المناطق شيد على ضفة نهر دجلة الغربية جنوب مدينة الكوت الحالية بلدة سماها واسط لتوسطها بين البصرة والكوفة، وجعلها مقر حكمه وأسكن أهل الشام فيها، وأخضع لهم المناطق التي كانت تابعة لولايته. بقي الحجاج زهاء العشرين سنة والياً على العراق حتى توفي في أواسط عام (95هـ/713م) ودفن فيها.

التسمية :

لم تكن واسط معروفة بهذا الاسم قبل نشأتها، وإنما كانت أرضاً مرتفعة خالية من السكان تقع على الضفة الغربية من نهر دجلة شمال البطيحة غربي مدينة كسكر. وذكر اليعقوبي واسط بقوله : «واسط هي مدينتان على جانبي

---

(1) ابن عساكر، القاسم علي بن الحسن، التاريخ الكبير، مطبعة الروضة، الشام، 1331، ج 1، ص 175.

(2) الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، ص 107.

(3) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب جعفر بن وهب، تاريخ اليعقوبي، مطبعة البلدان، 1383، ص 273.

دجلة، فالمدينة القديمة في الجانب الشرقي من دجلة، وابتنى الحجاج مدينة في الجانب الغربي وجعل بينهما جسراً من السفن»، وأطلالها اليوم تعرف بالمنارة.

ولاشك أن اسم المدينة الجديدة واسط له علاقة مباشرة بموقعها بالنسبة للمدن العراقية، وخصوصاً المصرين والأحواز ؛ فهي تتوسط هذه المدن الثلاث. ومن المؤكد أن اسمها جاء من موقعها هذا. وقيل إن أرضها كانت أرض قصب لذلك سميت واسط القصب[1]، وقيل واسط لأن موقعها يتوسط بين البصرة والكوفة والأحواز، فهو يبتعد خمسين قدماً عن كل من المواقع الثلاثة. وذكر البلاذري أن الحجاج عندما فرغ من بناء مدينته كتب إلى عبد الملك بن مروان قائلاً : «اتخذت مدينتي في كرشى من الأرض بين الجبل والمصرين وسميتها واسطاً»[2]. وأرجح هذه الأقوال والآراء قول البلاذري باعتباره حجة في الفتوح والخطط، ولأن الإسم تسمية جديدة أطلق عليها، واستحدث عند بنائها، وأنه عربي.

دوافع بناء واسط :

من المؤكد أن الباعث العسكري كان في قمة الأهداف التي دفعت الحجاج إلى بناء واسط[3]، إذ ساهمت ظروفه الإدارية القلقة في إنشاء المدينة، هذا إلى جانب عوامل أخرى منها أن الحجاج أحس أنه من الصعب الاستمرار بإدارة القطر من الكوفة والبصرة حيث كان يقيم ستة أشهر في كل منهما. وتذكر المصادر التاريخية أن موقف أهل الكوفة كان غير ودي تجاهه، إلى جانب ذلك جابه الحجاج العديد من الثورات المؤثرة مما سبب له خسائر هددت كيان الدولة الأموية، وكان لها تأثيرها المباشر على عائلته، حيث أسرت امرأتاه وتعرض للحصار في دار إمارته. كل هذه الأسباب وما نجم عنها من إرباك إداري أثر عليه، مما جعله يفكر جدياً في بناء مدينة جديدة له تسهل مهمته، خصوصاً أن مدينتي البصرة والكوفة لم تكونا حصينتين آنذاك[4]، لذا بعث الحجاج إلى الخليفة عبد الملك يستأذنه في بناء مدينة جديدة له. وعندما قرر البناء ألف لجنة من أصحاب العلم والدراية في قضايا

---

(1) السمعاني، أبو القاسم علي بن الحسن، الأنساب، دائرة المعارف العثمانية، سنة 1966، ص 576.

(2) فتوح البلدان، ص 86.

(3) بحشل، أسلم بن سهل، تاريخ واسط، ص 43.

(4) معروف، عروبة المدن الإسلامية، ص 24.

الصحة والزراعة والري والتجارة لاختيار الموقع المناسب لإنشاء المدينة. وحدد الحجاج بعض الصفات التي يجب أن تتوفر فيها، منها أن يكون الموقع مرتفعاً وعلى ضفة نهر جار عذب الماء، وأن يكون مناخ المنطقة جيداً. فوقع اختيار اللجنة على قطعة من أرض مرتفعة تتوسط المدن المهمة فيه، وهي الكوفة والبصرة والمدائن. ويبدو أن موقع واسط قد أعجب الحجاج نظراً لما يتمتع به هذا الموضع من مزايا عسكرية ومناخية واقتصادية، لذا بعث من يشتري له الموضع فاشتراه من صاحبه داوردان بعشرة آلاف درهم ليقيم عليه بعد أن أذن له الخليفة عبد الملك بن مروان بالبناء.

ولاشك أن الموضع المختار لهذه المدينة يكشف عن عقلية متميزة أرادت لهذه المدينة أن تكون معسكراً حصيناً أرضاً، وبناءً لجند الشام ودار هجرة لهم ولعوائلهم، ومركزاً إدارياً تسهل الحركة منه إلى كافة أنحاء العراق حيث يبعد بحدود (350كم) عن البصرة والكوفة والأحواز والجبل، وتقع بين دجلة والفرات في منطقة سهلة خصبة عرفت بإنتاجها الزراعي. ولم يمض وقت طويل على إنشاء المدينة حتى ازدهرت فيها التجارة والصناعة، هذا بالإضافة إلى الزراعة، وصارت من أهم المراكز السياسية والإدارية في العراق.

تاريخ البناء:

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ الابتداء في إنشاء مدينة واسط، فهناك بعض الوثائق التاريخية التي تظهر أن بناءها كان قد بدأ عام (80 أو 81هـ/699 أو 700م) واستغرق البناء فيها ثلاث سنوات[1] بعد أن أخمد المعارضة ووطد الأمن والاستقرار في العراق، وكان ذلك بعد مضي خمس سنوات من بدء مهمته عام (75هـ/694م)[2]. كانت واسط منذ تأسيسها شطرين يفصل بينهما نهر دجلة، والشطر الثاني وهو الشرقي أقدمها يدعى كسكر، حيث استحدث الحجاج مقره قبالتها على شاطئ دجلة الغربي حيث عاش العرب وحدهم فيها في بادئ الأمر، ثم سمح بعد موت الحجاج لغيرهم بالسكن فيه، واتحد الشطران وتألفت منهما مدينة واسط واتحد سكانها جميعهم[3].

---

(1) بحشل، واسط، ص 139.

(2) حضارة العراق، ج 1، ص 21.

(3) سفر، مصطفى، فؤاد، محمد علي، واسط، الموسم السادس للتنقيب، دار الحرية، بغداد، 1976، ص 82.

تخطيط المدينة :

يعتبر تخطيط مدينة واسط خطوة إلى الأمام إذا ما قورنت بتخطيط مدينة البصرة والكوفة، على الرغم من أن المبادئ الأساسية في تخطيطها هي استمرار متطور للصيغ التي اتبعت في بناء البصرة والكوفة، فقد جعل الحجاج المسجد الجامع ودار الإمارة في مركز المدينة، وهذا ما أثبتته التنقيبات الأثرية التي أقامتها الهيئة على الجدار القبلي في مسجد الحجاج[1]، وبالقرب منها أقيمت دواوين الحكومة ودار الرزق والسجن[2]. وترك فراغاً حول هذا القسم، والذي يسمى بالرحبة، ليشرع منه الطرق، ثم عين مكان السوق العام منه، وبعدها شرع القطائع للقبائل ليقيموا فيها، فاختطت كل قبيلة المكان المخصص لها، وكانت خطط الناس بهيئة أربعة أرباع تفصلها شوارع عامة تنتهي في الفضاء وتتقاطع هندسياً عند دار الإمارة .

وكان قد أقيم في داخل المدينة عدد من الرحبات الواسعة نعرف منها ثلاثاً، أكبرها رحبة كانت قريبة من السوق في جنوبها ومساحتها (300x300م)، وفي الجانب الغربي أيضاً سجن الحجاج المعروف بالديماس.

المسجد الجامع :

يقع المسجد الجامع الذي بناه الحجاج في الضفة الغربية من المدينة، وهو يجمع بين البساطة والجمال كمسجد الكوفة، وقد بنى الحجاج قصره في وسط المدينة أيضاً بمساحة (400x400 ذراع)، وإلى جواره المسجد الجامع، والذي كانت مساحته (200x200 ذراع)، وهي ظاهرة جديدة في تخطيط المساجد والقصور، إذ كانت مساحة المسجد بنفس مساحة القصور أو أكبر منها عموماً.

ونتيجة للتنقيبات التي أجرتها الهيئة سنة 1936، ولمدة ستة مواسم متتالية، في موقع الحجاج ودار الإمارة ظهرت للهيئة أسس[3] (شكل رقم 5). والمسجد مربع الشكل طول ضلعه 200 ذراع شيد بالآجر والجص وفرشت أرضيته بالآجر أيضاً، يتألف من صحن مستطيل تحيط به أروقة من الجهات الأربع أعمقها رواق القبلة، وفيه خمسة صفوف من الأعمدة الأسطوانية الضخمة من حجر رملي، وهذه الأعمدة

---

(1) اضبارة التحريات رقم 18/3، سنة 1952.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 118.

(3) سومر، سنة 1945، ص 150.

موازية لجدار القبلة مكونة خمسة أساكيب متساوية عدا أسكوب المحراب فهو أقل عرضاً منها، وفي كل صف منها ثمانية عشر عموداً مكونة تسع عشرة بلاطة غير متساوية العرض. فقد اتسعت بلاطة المحراب وصغرت البلاطتان المتطرفتان قليلاً عن مستوى اتساع جاراتها، أما المجنبتان ففي كل منهما صف واحد من الأساطين عددها اثنتا عشرة أسطوانة، وفي المؤخرة أقيم صف واحد من ثمان عشرة أسطوانة. ومما يجلب الانتباه أننا لم نعثر على آثار أسس محراب مجوف في جدار القبلة. ويعتقد د. غازي رجب في كتابه العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق أن المحاريب المجوفة دخلت إلى المساجد بعد هذا التاريخ على الأغلب.

هذا فيما يتعلق بالجامع الأول أما الجامع الثاني فقد أنشئ سنة (400هـ/1009م)، وفي وسط الضلع الجنوبي محراب مجوف، وقد تم بناء هذا الجامع على أسس جديدة. والجامع الثالث أقيم على أسس الجامع الثاني حوالى سنة (550هـ/1155م)، يحتوي تخطيطه على محراب يتوسط جدار القبلة امتاز بتخطيطه السداسي. أما الجامع الرابع، فقد جعل فوق الجامع الثالث وقد زادت مساحته بإضافة بلاطة واحدة على جانبي المصلي، وجعل للمصلى محراب مجوف غائر. ويعود بناء هذا الجامع، على حسب قول المنقب محمد علي مصطفى، إلى عهد الحكم الأيلخاني الذي استمر حتى منتصف القرن الثامن الهجري[1]. ويذكر بحشل الواسطي أن في مسجد واسط مقصورة، أما منارته فقد استحدثت في الجامع عام (304هـ/916م)، غير أن عمارتها لم تدم طويلاً، فقد تهدمت وزال أثرها عام (497هـ/1103م).

وتشير النصوص التاريخية بخصوص تخطيط الجامع أنه فتح في جدرانه أحد عشر باباً، أربعة منها في كل من المجنبتين والبقية في جدار المؤخرة. وكما قلنا سابقاً، فإن التنقيبات الأثرية كشفت لنا أن الجامع قد هدم وأعيد بناؤه عام (400هـ/1010م) وبدون إحداث زيادة فيه أو تغيير في تخطيطه، واستعملت نفس الأعمدة التي كانت قائمة في المسجد الأول، وكان الهدف من هدم البناء هو تصحيح القبلة ؛ فقد كان جدار القبلة في الجامع الأول منحرفاً بمقدار (34 درجة) عن الخط القبلي الصحيح. وهدم الجامع مرة أخرى عام (550هـ/1155م) وأعيد بناؤه على نفس المساحة وبنفس التخطيط،

---

(1) سومر، المصدر نفسه، ص 140.

وكما أشرنا يبدو أن هناك إصلاحاً آخر قد حدث في بناء الجامع خلال العصر الأيلخاني، حيث تم توسيعه، وتم ترميم الجدران المتهدمة، ودعم من الخارج باثني عشر برجاً، وفتح في واجهته الشمالية ثلاثة أبواب، وفي كل من جانبيه الشرقي والغربي أربعة أبواب، وباب ضيق في جدار القبلة بجوار المحراب، وبقي محراب الجامع الثالث على حاله في العهد الأيلخاني، ولكن أضيف إلى جانبه الشرقي محرابان صغيران. وتجويف المحراب قليل العمق، وقد اندثر المحرابان فيما بعد، ولم يبق سوى معالم أسسهما.

دار الإمارة (قصر الحجاج) :

شيده الحجاج بن يوسف الثقفي عندما بنى مدينة واسط، وكان يسمى بقصر الحجاج أو قصر القبة الخضراء. وكما رأينا سابقاً كانت واسط عند تأسيسها شطرين يفصلهما نهر دجلة، والشطر الشرقي أقدمهما ويدعى كسكر، حيث استحدث الحجاج مقره قبالتها على شاطئ دجلة الغربي ؛ أي أن الدار بنيت في الجزء الغربي وجعلها ملاصقة للضلع القبلية للمسجد الجامع وفق الطريقة المتبعة في تشييد دور الإمارة في كل من البصرة والكوفة والموصل والفسطاط والقيروان (شكل 6). وجعل على مقربة من القصر سوقاً عامراً كان فيه كل صنف من الصناعة. وكانت هذه الأسواق واسعة تمتد من القصر حتى شاطئ دجلة شرقاً وإلى درب الخزارين جنوباً. وكان درب الخزارين شارعاً عظيماً يبتدأ من القصر ويمتد جنوباً إلى الغرب من السوق وينعطف شرقاً جنوب السوق[1]. وقد أظهرت التنقيبات التي أجريت على القصر وجود بعض أسسه، إلا أن الهيئة لم تتمكن من تتبع تخطيط القصر بسبب الأنقاض الهائلة المتراكمة فوقه. وأظهرت تنقيبات الموسم الأخير جزءاً صغيراً من الجدار الشمالي الشرقي، وبرجين قائمين عند نهايته، وقسماً من الجدار الشمالي الغربي، ونحو ثلاثين متراً من الجدار الجنوبي الشرقي، وكذلك باباً واحداً يقع في منتصف المسافة بين الزاوية الغربية للجامع والزاوية الشمالية للقصر. أما داخل القصر، فقد تم العثور على أسس متقاطعة تقوم في تقاطعها قواعد لأعمدة مشيدة بآجر مربع وأسس لأروقة تتكون من ثلاثة مداميك من الآجر. وقد ظهر أن كل بلاطة في القصر تتألف من تسعة عشر رواقاً تساوي فسحتها فسحة أروقة الجامع وتتناظر معها. وذكر ابن رستة بأن القصر فيه قبة خضراء ترى من

---

(1) بحشل، واسط، ص 18.

مكان بعيد يعرف بفم الصلح الواقع على بعد (35كم) شمال واسط. ولابد من الإشارة إلى أن مساحة القصر (400 ذراع)، وكان له أربعة أبواب، ولعل القبلة ذاتها كانت قائمة في قصر باب الذهب المعروف بقصر المنصور.

وكان لهذه الدار حديقة واسعة وبركة ماء، وكانت أبوابها الأربعة تؤدي إلى طريق عرضه ثمانون ذراعاً، وهي الطرق الرئيسية التي تخترق خطط المدينة، فيكون موضع القصر في قلب المدينة كما هو الحال بمدينة بغداد. وكان شارع الخوارزمي ذاته شارعاً عظيماً يبتدأ من القصر ويمتد جنوباً من الغرب من السوق وينعطف شرقاً جنوب السوق ثم يقترب من دجلة[1]. ويذكر أن الحجاج قطع لأهل كل تجارة قطعة لا يخالطهم غيرهم، وأمر أن يكون مع أهل كل قطعة صيرفي.

لقد أثبتت التنقيبات الأثرية التي أجرتها الهيئة في واسط صحة ما ذكرته المراجع حول مساحة وطبيعة الأبنية التي شيدت، وأن المسجد ودار الإمارة مربعا الشكل تقريباً، إلا أن الإضافات والتحويرات التي نفذت في الموقع جعلت من الصعب تحديد مرافقها والعناصر العمارية والزخرفية فيها. إلا أن التخطيطات الأرضية توضح لنا أن البناء قد اعتمد في تخطيطه على الطراز الحيري الذي تمتد جذوره إلى العصور القديمة في بلاد ما بين النهرين، واستخدمت مادة الآجر والجص في بناء القصر، هذا بالإضافة إلى استخدام الأعمدة المصنوعة من عدة قطع أسطوانية مركبة الواحدة فوق الأخرى، ويتوجها تاج يزدان بزخارف نباتية جميلة تدل على أسلوبها الإسلامي المبتكر الذي شاع وانتشر بعد ذلك في العالم الإسلامي.

إن معلوماتنا عن استعمال القصر بعد الحجاج وبعد العهد الأموي محدودة، إلا أنه ظل ماثلاً إلى الربع الأخير من القرن السادس الهجري.

---

(1) المصدر نفسه، ص 25.

المبحث الثاني

نشأة المدن العباسية

بغداد عاصمة الخلافة العباسية

كان طبيعياً أن يرفض العباسيون بعد أن أقاموا الدولة العباسية الإبقاء على مدينة دمشق حاضرة الخلافة الأموية، حيث إن بلاد الشام كانت مقر بني أمية وبها عصبتهم من العنصر العربي الذي يناصرهم ويرفض انتقال الخلافة إلى غيرهم، لذا قرروا أن تكون حاضرة دولتهم في العراق، ولأسباب معروفة منها موقع العراق ودور أهل العراق في دعم الثورة العباسية، ثم الثقل الاقتصادي والسياسي والبشري الذي يتصف به العراق. لذا نزل مؤسس الدولة العباسية عبد الله محمد بن علي الملقب بالسفاح أول الأمر الكوفة سنة (132هـ/749م)[1]. وفي الكوفة تمت البيعة له ثم ألقى خطبته المشهورة في مسجد الكوفة، وكان قد أدرك أنه من الصعب عليه البقاء بالكوفة لضعف ثقته بإخلاص أهلها للعباسيين، وذلك لحبهم للعلويين، لذا خشي أبو العباس أن يقيم بين الكوفيين، وسارع إلى الأنبار وبنى فيها مدينة أشار إليها اليعقوبي في كتابه البلدان بقوله : «تقع المدينة على بعد 10 فراسخ عن بغداد وأطلالها اليوم في شمال غربي مدينة الفلوجة على بعد 4 كم منها». فبنى مدينة على شاطئ الفرات سماها الهاشمية نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف[2]، وانتقل إليها سنة (134هـ/751م)، ولا نعرف شيئاً عن تخطيط المباني والعمائر التي شيدها الخليفة أبو العباس في الأنبار، كما نجهل طبيعة الطراز الذي اختاره لمبانيه، إذ لم تشر

---

(1) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن وهب، تاريخ اليعقوبي، مطبعة ليدن، 1383، ج 2، ص 227.

(2) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة دار المعارف، مصر، 1966، ج 2، ص 429.

إليها المصادر التاريخية. إلا أنها تشير إلى أن أبا العباس بنى فيها قصوراً[1]، وأسس فيها مدينته، ولا ندري هل أقام مسجداً جديداً ؟، أم عمر المسجد الذي كان قد أقامه القائد سعد بن أبي وقاص في الأنبار ؟.

بقي أبو العباس في الأنبار منذ تأسيسها حتى وفاته بمرض الجدري[2]، ودفن بالأنبار، وقبره ظاهر يقع بين الفلوجة وبين ضفة نهر الفرات في قرية تعرف بالفياض.

بعد وفاة السفاح بويع بالخلافة أبو جعفر المنصور، وكان يومئذ بمكة، وعندما استخلف المنصور بنى الهاشمية. وهاشمية المنصور تقع، استناداً إلى الطبري، قبالة مدينة أبي هبيرة بين الكوفة والحيرة، ولم يبق المنصور كثيراً بالهاشمية فقد كرهها بعد ثورة الراوندية[3]، والتي كان هدفها تقويض الحكم العباسي، لذا عزم المنصور على بناء عاصمة جديدة له تخلد اسمه وتتناسب مع عظمته وطموحه، لذا خرج بنفسه مع خاصته ليختار مكاناً يتخذه مسكناً لنفسه وجنده، ويكون موضع مدينته المدورة، على أن يكون هذا الموضع موضع خصب وخيرات يتوسط أقاليم دولته، ويشرف على أطرافها، ويتصل بسهولة بكل جزء من أجزائها، فاستقرت على موقع بغداد، فأصر أن يبدأ البناء فيه، ووضع أول لبنة، وقال : «بسم الله والحمد لله، والأرض يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

ومن الطبيعي أن بواعث بناء المدن في الماضي أو الحاضر يختلف بعضها عن البعض الآخر، فمن المدن ما شيد لأغراض عسكرية مثل مدينتي البصرة والكوفة، أو لأهداف إدارية كبناء مدينة واسط.

أما بالنسبة لبغداد، فقد أراد المنصور أن يبني عاصمة للدولة العباسية، دولة الحضارة والسلام، فقرر بناء عاصمة جديدة تكون رمزاً للحضارة والسلام، وأراد أن يكون موقعها يضمن حصانة الدفاع عنها عسكرياً وصعوبة الوصول إليها

---

(1) ياقوت، معجم البلدان، 368/1.

(2) الطبري، تاريخ الطبري، ج 7، ص 47.

(3) المصدر نفسه، 147/6.

عسكرياً، وسهولة الدخول إليها سلماً تفتح ذراعيها بحب الأمة القادمين، وتغلق أبوابها بوجه الغزاة الطامعين[1].

وأخيراً نستطيع القول إن بناء مدينة المنصور المدورة تعتبر أهم تجربة معمارية في القرن الثاني الهجري، وضعت خبرات المهندسين والفنانين والعمال العرب المسلمين، مع خبرة القيادة والتوجيه، والقدرة على التذوق والابتكار.

اختيار الموقع :

يقال إن المنصور كلف أهل العلم والمعرفة لاختيار الموضع المناسب ضمن مواصفات معينة إدارية واقتصادية واستراتيجية، ووقع اختيار الهيئة بعد أن طافت في القطر على موقع يتوسط العراق[2].

والمعروف عن المسلمين منذ فجر الإسلام، وحتى بناء بغداد، أنهم كانوا يتخيرون مواضع مدنهم ويتفحصون أمكنتها تفحصاً طوبوغرافياً، ووضعوا شروطاً وقواعد لبناء المدن وتخطيطها. وإذا ما دققنا في الموضع الذي اختاره المنصور تبين لنا أن المكان يمتاز بمزايا عديدة، وأن الله قد منحه مكاناً جعله ملائماً للدولة العباسية الجديدة، وهو موضع استراتيجي طيب، فضلاً عن وقوعه على طرق القوافل التجارية، كما أنه يتميز بمزايا صحية ملموسة. والواقع فقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور منطقياً ودقيقاً في اختيار بغداد موضعاً لعاصمته الجديدة. إن هذه المنطقة هي أحسن منطقة لتشييد عاصمته، إلى جانب ذلك كان الموقع من الأماكن المتميزة ،إذ كان شاخصاً بالآثار في الأماكن المحيطة ببغداد، نذكر منها المدائن وسلوقية وبابل وعكركوف، وسجل التاريخ لشعوبها حضارة قديمة، وكانت هذه المناطق قد جذبت إليها الناس، وسكن فيها البابليون والكاشيون والبارثيون والسلوقيون.

إلى جانب ذلك شهدت منطقة بغداد، وخصوصاً الأقسام الغربية والجنوبية منها، تتابع حضارات متعددة أسهمت جميعها في بناء وتوطيد مجد العراق القديم،

---

(1) حمزة، نسرين، "التصميم الوظيفي والأداء الخدمي لمدينة بغداد"، مبحث نشر في كتاب بغداد، إصدار مركز إحياء التراث، ص 264.

(2) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، مطبعة التفيض، 1945/161.

وحينما جاء الإسلام شهدت هذه المدينة بعد حوالى قرن ونصف القرن من ميلادها، فجر الدولة العباسية، ثم شهدت بغداد الشرقية بقية مجد العباسيين. وظل اسم هذه المدينة يشير إلى تألق الحضارة العربية الإسلامية وانبعاث مجدها رغم ما كابدته من مصائب وويلات على أيدي المغتصبين.

لمدينة بغداد مكانة مهمة في تاريخنا العربي الحضاري، إذ أن تأسيسها يعد أنموذجاً متطوراً للفن والتخطيط العمراني العربي الإسلامي بعد تأسيس الأمصار الإسلامية (البصرة والكوفة والموصل والقيروان والفسطاط وغيرها من المدن).

وبغداد "دار السلام"، المدينة المدورة، تقع في الجانب الغربي من دجلة إلى الجنوب من الكاظمية الحالية في البقعة الممتدة بين الكاظمية ومحلة الكرخ، وتقوم محل السكك الحديدية الحالية في الشالجية قسم من بقاياها، وكان ينتشر في أطرافها قرى آهلة وديارات عامرة وتتخللها البساتين والرياض الزاهرة.

كانت بغداد قبل بنائها قرية قديمة تقع على الشاطئ الغربي لنهر دجلة في أعلى المكان الذي يقترب فيه نهر الفرات من نهر دجلة، وكان يعقد فيها سوق شهري أو سنوي يأتيه التجار من بلاد فارس واليمن والحجاز وبلاد الشام.

التسمية:

اجتهد المؤرخون والبلدانيون القدامى والمحدثون في أصل اسم بغداد وخرجوا بآراء عديدة ومتباينة، فمنهم من يعتقد أن أصل الاسم آرامي مؤلف من كلمتي (بغ) المقتضبة من كلمة بيت (داد) بمعنى غنم. وهناك رأي آخر يرى أن الاسم استعمله الكشيون في النصف الثاني من الألف الثاني ق م، ومعناه عطية الصنم وعطية الإله. ويعتقد البعض الآخر أن كلمة باغ تعني كلمة بستان وداد اسم شخص فيكون بستان داد. ولكن هناك دلائل موثقة أوردتها النصوص المسمارية تشير إلى أن اسم بغداد ورد بصيغتين هي بكداد - بكدادا، كما وصلت إلينا وثيقة تاريخية ترجع إلى عهد حمورابي ورد فيها اسم بغداد، ونصوص أخرى من فترات متعاقبة من العهد الكشي ورد اسم بغداد في حجر حدود.

كما تبين لنا أن مدينة بغداد الحالية كانت إقليماً أيضاً كان يعرف بمثل هذا الاسم حينذاك، فالاسم الحالي انحدر إلينا من الاسم القديم. وفي ضوء ما تقدم،

فإن بغداد اسم قديم في التراث اللغوي القديم لوادي الرافدين، وقد يرجع أيضاً إلى الفترة التي سبقت التحرير الإسلامي للعراق، وعلى الدنانير التي ضربت بمدينة السلام، ورد هذا الاسم على دينار ضرب في عهد الواثق (227-232هـ) والمهدي والمقتفي والمستنجد والمستضيئ والناصر والظاهر بأمر الله، بالإضافة إلى الاسمين السابقين للمدينة المدورة، بغداد، مدينة السلام، وتسمية دار السلام.

وأخيراً لابد من القول إن اسم بغداد اقترن بأضخم حضارة شهدها العالم في القرون الوسطى، وإذا كنا نفتخر بأن اسم بغداد قد اقترن بأضخم حضارة شهدها العالم في القرون الوسطى، فلا يهمنا بعد ذلك قول الباحثين حول التسمية، لأن ما يهمنا فعلاً الحضارة التي نشأت ونمت على ثرى الأرض الخيرة على أيدي شعبها الذي خط صفحات التاريخ العربي الإسلامي.

اختلف المؤرخون في اشتقاق هذا الاسم، فبعضهم ينسبون المدينة إلى نهر دجلة المدعو نهر السلام، إلا أن المنصور سماها دار السلام تفاؤلاً بما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[1].

أما عامة الناس والمؤرخون فإنهم ظلوا يدعون المدينة بغداد. ويبدو إن اسم مدينة السلام أطلق على مدينة المنصور المدورة التي كانت تشبه حصناً منيعاً، فتسمية بغداد مدينة السلام كان من باب إطلاق اسم الجزء على الكل والرجوع إلى اسم مدينة السلام، وهو الرجوع إلى الأصل وإلى الاسم الأقدم، وهو أخف في الاستعمال من مدينة السلام. وأطلق عليها اسم الزوراء، وذلك لازورار نهر دجلة وانعطافه نحو الغرب عند موضع بغداد، وهو الذي أرجحه لهذه التسمية.

بناء مدينة بغداد :

بدأ المنصور في تخطيط هذه المدينة سنة (145هـ/762م)، وانتهى العمل من البناء سنة (149هـ/766م)، وقد استغرق بناء المدينة المدورة ما بين

---

(1) سورة الأنعام، الآية 127.

(145هـ/149هـ)، حيث أصبحت جاهزة للعمل بعد أن أنفق عليها المنصور أربعة ملايين وثمانمائة وثلاثاً وثلاثين ألف درهم[1]. ونكر اليعقوبي أنه قد اشترك في تخطيط المدينة خمسة من المهندسين هم : عبد الله بن محرز، والحجاج بن أرطأة، وعمران بن الرواح وشهاب بن كثير، وبشير بن ميمون. وأشار البلاذري أن الأخير قد عهد إليه بناء الطاقات عند باب الشام. وقد اشترك أربعة من المشرفين على البناء نذكر منهم : الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت مؤسس المذهب الحنفي في بغداد.

ويذكر المؤرخون أن المنصور استعان بعمال وفنانين ومهندسين جيء بهم من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة[2]، وهذا يؤكد لنا أن الذين أشرفوا على بناء المدينة المدورة كانوا من العرب المسلمين الذين عاشوا في المدن الإسلامية.

ولابد من الإشارة إلى أن فكرة التخطيط الدائري للمدن قد عرف في الفترة التي سبقت الإسلام في مدينة مأرب في اليمن والحضر في العراق، وبعد الإسلام في مدينة الكوفة. وجاء في كتاب البلدان بأن الكوفة سميت كذلك لاستدارة بنائها، وقال ياقوت أيضاً : «والكوفان الاستدارة»[3]. ثم تكامل هذا التخطيط لدى العرب بعد أن تمرسوا في مجال البناء والتعمير، فنضجت ملكاتهم الفنية والعمارية، ونفذت هذه الملكات في بناء مدينة بغداد، فجاءت مدينة فريدة، اعتبر تخطيطها المستدير أنموذجاً رائعاً في جمال تخطيط المدن التي عرفت في التاريخ. وتؤكد معظم المصادر والمراجع التاريخية أن فكرة تخطيط المدينة مبتكر من خيال الخليفة المنصور[4]، إذ أشار الخطيب في كتابه إلى أن المنصور عندما عزم على بناء مدينته أحضر اثنين من المهندسين هما : الحجاج بن ارطأة وأبو حنيفة، ومثل لهم صفة المدينة التي في نفسه ؛ أي أن المنصور أملاها بنفسه ووفق رغبته على المهندسين والبنائين. وليس في المصادر والمراجع التاريخية إشارة إلى اقتباس التخطيط الدائري من معسكر أو

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 21/5.
(2) الطبري، تاريخ الطبري، 237/6.
(3) ياقوت، معجم البلدان، 324.
(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، 226.

حصن أو مدينة سابقة، ومنهم من يقول إن المهندس الحجاج ابن ارطأة هو الذي قام بتصميم المدينة الجديدة، وهذا الرأي أقرب إلى الصحة، فتخطيط المدينة يكشف على أن العقلية التي وضعته هي عقلية هندسية ذات إلمام واسع بعلوم تخطيط المدن وهندستها.

وربما جاء تأثر تصميم مدينة المنصور بمدينة واسط، فالتشابه واضح في موقع القصر والجامع، وتقسيم المدينة إلى أربعة أرباع، ومكان الأسواق منها وتحصيناتها، إذ كان لمدينة واسط كما قلنا سابقاً سوران وخندق، ولمدينة السلام ثلاثة أسوار وخندق، إضافة إلى استخدام أبواب سور واسط الحديدية لمداخل مدينة أبى جعفر المنصور. هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن الخليفة أبا جعفر مكث في واسط حيناً من الزمن واستعان بصناعها من مهندسين وبنائين وفعلة عندما بنى مدينة السلام. ويذهب د. عيسى سليمان إلى أبعد من ذلك (التشابه في التخطيط)، إلى تسمية قصره في مدينة السلام بقصر القبة الخضراء كما كان يدعى قصر الحجاج في واسط، كما تتطابق مدينة السلام مع واسط في قياسات وموضع القصر والجامع.

وأخيراً، إن تخطيط بغداد هو عبارة عن الاستمرار لتخطيط واسط، وطور في مجالات معينة ليتناسب مع أهمية المدينة التي أريد لها أن تكون عاصمة العالم الإسلامي، كما ظهر تأثير تخطيط مدينة المنصور في بناء مدينة هبرة بشمال أفريقيا[1].

إن اختيار المنصور لمدينته شكلاً مدوراً يتصف بتنظيم هندسي دقيق، يعد بحق أعلى ما بلغه فن تخطيط المدن من نضج هندسي وتناسق، غير أن هذا الإبداع حمل الباحثين لتخطيط المدن من المستشرقين إلى إثارة بعض التساؤلات حول المصدر الذي اقتبس منه، لكن الحقائق العمارية والتخطيطية القديمة تؤكد لنا بأن البناء عربي أصيل.

لم تكن مدينة السلام واسعة المساحة، بل كانت عبارة عن مركز إداري ضخم ضم مجموعة من البشر. وإذا ما اعتبرنا أن طول قطر مدينة السلام لا يزيد عن كيلو

---

(1) الطبري، تاريخ الطبري، 237/6.

متر ونصف، فهذا يعني أنها ليست كبيرة، وقد يظن الإنسان لأول وهلة أن مدينة المنصور هذه هي من المدن الفسيحة الكبيرة، والحقيقة أنها لم تكن إلا حصناً عظيماً تتألف استحكاماتها من خندق عميق أجري فيه الماء من نهر (كرخايا) يدور حولها، وتقوم على جانبيه مسناة محكمة بنيت بالآجر والصاروج، ترتفع عالياً يلاصقها سور المدينة الأول. وأقيم لها في أول الأمر سوران، ثم قام حول مركز المدينة سور ثالث داخلاً فتألف من مجموع الأسوار الثلاثة دوائر ذات مركز واحد هو جامعه وقصره المعروف بقصر الذهب.

وقد هيأ المنصور في هذه المدينة جميع وسائل الدفاع وكل الاستعداد للسلم والحرب، لذلك ترك المواضع بين السورين العظيمين والمحيطة بالمدينة خالية من البناء ليتمكن الجيش من التحرك أثناء الحرب والهجوم على المدينة. وكان عرض هذا الفاصل (100 ذراع)، وكان في السور أبراج عظيمة عليها شرفات، وعرض أساس هذا السور (9 أذرع) وارتفاعه (60 ذراعاً). إن مشروعاً كمشروع المنصور هذا لابد أن يكون قد وضع له مجسم، إذ أن نموذج تخطيط المدينة قد تم في الموضع الذي شيدت فيه المدينة وبنفس المساحة والأبعاد. فقد روى الطبري أن المنصور لما عزم على بنائها أحب أن ينظر إليها عياناً، فأمر أن يخط بالرماد، ثم أخذ يدخل من كل باب ويمر في فصلانها وطاقاتها ورحابها، وهي مخطوطة بالرماد، ولم يكتف بذلك، وإنما أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ويصب[1].

من هذا النص نستطيع القول إن للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور نظرة خاصة وصائبة في ميدان العمارة، ومعرفة بالنواحي الهندسية والمعمارية، وهذه المعرفة امتزجت مع آراء هندسية ومعمارية، فكان نتاج هذا الالتقاء ثمرة يانعة في عالم العمارة يفتخر بها المسلمون فيما يفتخرون به من مفاخر تراثهم المعماري الحضاري.

وبعد أن شاهد المنصور مخطط مدينته على الأرض، أمر أن تحفر الأسس وفقاً لتلك المخططات ووضع أول لبنة بيده، وقال : «بسم الله والحمد

---

(1) طاهر، تخطيط المدن، ص 355.

لله والأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»، ثم قال : ابنوا على بركة الله.

التخطيط العام للمدينة :

اختط المنصور مدينته وجعلها مدورة، وقد اشتملت هذه المدينة على بعض العناصر العمارية المهمة، والتي تكاد أن تكون بمثابة الأمثلة العمارية الفريدة في العمارة والفن والتخطيط. ومن روايات المؤرخين يظهر لنا أن مدينة بغداد الغربية كانت دائرية الشكل، أي دائرة هندسية منتظمة، وهذا ما يؤكده لنا[1] أن قطر مدينة بغداد المدورة من باب خراسان إلى باب الكوفة (ألفا ذراع ومائتا ذراع) ومن باب البصرة إلى باب الشام (ألفا ذراع ومائتا ذراع)، وأن أبعاد أبوابها الأربعة متساوية. وكيفما كانت الحال، فإن أبرز ما يميز مدينة السلام هو شكلها المدور (شكل رقم 7)، فقد أتقن في تصميم مدينة بغداد وتدويرها، وجعلها بهيئة حلقات متتابعة تصغر كلما اقتربت من المركز، حيث شغل قصر الخليفة النقطة المركزية المحورية فيه. والميزة الثانية لهذه المدينة هي تحصينها القوي جداً، والذي يتألف من خندق وثلاثة أسوار، والميزة الثالثة هي ترتيب الأسواق على جانبي الشوارع الأربعة الرئيسة التي تربط قلب المدينة بجسور الخندق الأربعة، والتي يؤدي كل منها إلى أحد المداخل الأربعة في سور المدينة الخارجي، وأخيراً جعل خطط الناس بين السور الأعظم والسور الفاصل بينها، وبين القسم المركزي في المدينة، والذي دعي بالرحبة العظمى. كما تتصف المدينة بعدم وجود الحدائق والأسواق، فالداخل إلى المدينة يجب أن يعبر إحدى القناطر الأربعة المشيدة على الخندق العميق الذي يطوق المدينة ويغذى بالماء من نهر كرخايا، وتدعم الخندق هذا مسناة مشيدة بالآجر والنورة، أما أسوارها فهي ضخمة ومتينة وأسواقها معزولة وخطط الناس فيها محصورة، إذ قسمت المدينة إلى شوارع سماها السكك، يسكنها من اختارهم من الموظفين والموالين لهم، سكة الشرطة وسكة السجن المعروف بـ (المطبق). وكان لهذه السكك أبواب وثيقة من طرفيها، وحفر في المدينة نفقاً يمتد تحت الأرض إلى مسافة فرسخين خارج المدينة أعد للهرب إن حاصره عدوه ودخل عليه في مدينته الحصينة[2].

---

(1) البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، مطبعة السعادة، مصر، 1932، ص 73.

(2) المصدر السابق، ص 77.

وكـان في الرحبـة الوسطى من المـدينة قـصر المنصور (القبـة الخضـراء)، ومساحة جامـعها نصف مساحة قصرها، يلاصق القصـر الجامع في جدار القبلة، ويحيط بـالقصر والجـامع دواوين الدولة داخل فناء واسع. ومن هذه المـباني دار تقع من جـهـة بـاب الشـام يجلس فـيـهـا صـاحب الشرطة وصـاحب الحرس، وكـان حول الرحبة منزل في خط دائري هي منـازل أولاد المنصور والمقربين من خدمه، وبيت المـال، وخــزائن السـلاح، ودواوين الدولة، وديـوان الرسـائل، وديوان الخـراج، وديوان الخـاتم، وديوان الجند، ودواوين الحـوائج، ودواوين النفقـات، ودواوين الصدقات[1].

يفصلهـا عن السور الداخلي فناء واسع، يحيط بهذا الفناء الأسوار الثلاثة، السور الداخلي والسور الأعظم ثم السور الخـارجي، وجعلت خطط الناس بين السور الأعظم والسور الداخلي، ووضـعت الخطط بـهيئـة هندسيـة متقنة حيث تخترقـهـا شوارع مستقيمة تؤدي من جـهـة إلى السور الداخلي، ومن جـهـة أخرى إلى السـور الأعظم، أمـا الفراغ بين السـور الخـارجي والسور الأعظم فـهـو خـال مـن السكن. وزيادة في تحصين المـدينة يطل السور الخـارجي على خندق المـدينـة الذي يمكن اجتـيـازه عن طريق أربعـة جسور (قـنـاطر) كل منهـا يؤدي إلى أحد أبواب المـدينة، وأفردت جوانب هذه الشوارع بمنطقة الطاقات بحوانيت التجار.

إن الشكل الدائري الذي اختـاره المنصور لمدينته يعتبـر من أفضل ما بلغه تخطيط المـدن في العـالم، إذ ليس المـقصود هو الشكل الدائري بقـدر مـا يعني شكل حلقـات متتـاليـة تتوسع بالابتعـاد عن المركز، إضـافـة إلى أن الحـصـون الدفـاعـيـة القـائمة علـى السور المحيط بالشكل لا تسمح بوجود أية زاويـة زوراء يمكن التظلل بهـا أو النفـاذ من خلالهـا، حيث لا توجد منطقة لا تقع عليهـا أنظار أفـراد الحـرس الموزعين في حصونهم.

لقـد جاءت المدينة باستـعمـالات متراميـة هـرميـة من أي جـهة كـانت، وبأداء معمـاري مخطط له، وهي كمـا يلي : موقع الخـلافـة، المسجد الجـامع، الخدمـات التجـارية، المحـلات العامـة، موقع الوزراء و القـادة والأمـراء، موقع السكن العـام لعموم سكان المدينة، مـواقع الأسوار والأبواب والحصون والخنادق. هذا التـنسيق

---

(1) شريف، تاريخ فن العمارة في مختلف العصور، ص 273.

في البناء يعكس تحديدات وظيفية تجعل سكان المدينة في ظروف حياتية ملائمة جداً لمتطلبات الوقت والجهد والإمكانيات التي يحتاجها الفرد.

المساحة والقياسات:

اختلف المؤرخون في تحديد مساحة المدينة المدورة وأبعادها، فالتفاوت الكبير بين الروايات يجعل التحقيق في بنائها أمراً عسيراً، فقد أشار اليعقوبي إلى أن كل باب من المدينة يبعد عن الباب الذي يليه من خارج الخندق بخمسة آلاف ذراع، فعلى هذا الأساس يكون محيط المدينة المدورة عشرة كيلومترات، أما طول قطر المدينة فهو (3151.5 متراً)، أما مساحتها بموجب هذا القياس، فتكون حوالى (705كم²). وأشار الأزدي في كتابه مختصر مناقب بغداد إلى أن المهندس الذي تولى إنشاء سور المدينة أعطى لنا قياسات تختلف عما أشار إليها اليعقوبي، قال: «من كل باب من أبواب المدينة إلى الباب الآخر ميل». وكان طول محيط المدينة (7893م) وطول قطر المدينة (2512م)، فالمساحة الكلية للمدينة المدورة تكون (4956756م²). وهذه القياسات والأبعاد اعتمد عليها عالما العمارة الإسلامية كريزويل وهزر فيلد واتخذاها أساساً لوضع تخطيط المدينة المدورة، في حين أعطى لنا كل من الخطيب البغدادي وابن الجوزي وياقوت الحموي قياسات مختلفة عن التي ذكرناها، وهذا يجعلنا لا نستطيع أن نصل إلى حقيقة مساحة الأبعاد إلا عن طريق الحفريات الأثرية. إلا أن هناك عقبات تحول دون تنفيذ هذه الحفريات كزوال معالم السور من جهة والزحف السكاني إلى المنطقة وقيام المنشآت والمؤسسات والمباني الأخرى عليها من جهة أخرى مما يجعل من الصعوبة القيام بالتنقيب على أسس هذه المدينة.

قصر المنصور:

سمي القصر الواقع في وسط المدينة المدورة بـ (قصر باب الذهب)، وكان في صدر هذا القصر إيوان في صدره مجلس قياسه (20x20 ذراع)، وارتفاعه (20 ذراعاً)، تغطيه قبة، وعلى رأسها تمثال فرس عليها فارس، وفي يده رمح يتجه حيث تتجه الريح، وكانت قبة المجلس الخضراء تشاهد من أطراف بغداد. سقط الجزء العلوي منها عام (339هـ/950م) على أثر مطر غزير ورعد

---

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص 54.

هائل وبرق، ثم انهارت وسقطت كلياً عام (653هـ/1255م)[1] بسبب الفيضان الذي أغرق المدينة. وكان القصر مربع الشكل مثل قصر الحجاج في واسط طول ضلعه (200م)، ومعلوماتنا عن تخطيطه غير معروفة عدا إشارة واحدة إلى غرفة نوم الخليفة التي تطل على رواق، ويقوم سقفها على أعمدة ويشرف على الصحن. ومن المعروف أن هذا القصر لم يسكنه أحد من الخلفاء بعد أبي جعفر المنصور، إلا الخليفة عندما بويع بالخلافة، وكان قبل ذلك يسكن قصر الخلد الذي أنشئ خارج أسوار مدينة بغداد عام (157هـ/774م) بأمر من أبي جعفر المنصور.

المسجد الجامع :

بنى المنصور المسجد في قلب المدينة وجعله ملاصقاً للضلع الجنوبي من القصر. وقد أجمعت المصادر التاريخية على أنه بني باللبن والطين على شكل مربع طول ضلعه (مائتا ذراع)، وكان عدد الأعمدة فيه (80) عموداً. ويرجح أنه كان على غرار تخطيط مسجد الرسولﷺ يتكون من رواق القبلة والمصلى ومجنبتين ومؤخرة. جعلت الأروقة أساطين من الخشب كانت كل أسطوانة فيها مكونة من قطعتين ثبتت بالغراء ومنابت الحديد. وقد بنيت في المسجد مقصورة ليصلي فيها المنصور. وكانت لهذا المسجد منارة على مقربة من المصلى وله محراب يتوسط جدار القبلة. ويبدو أن القبلة كانت منحرفة قليلاً عن الكعبة، لأن بناء المسجد المتصل بالقصر جاء لاحقاً للقصر الذي كان غير مستقيم على القبلة. لم يبق الجامع على حالته الأولى، فقد طرأت عليه عدة تغييرات على عهد الخليفة هارون الرشيد سنة (192هـ/808م) الذي أمر بهدمه وتوسيعه وإعادة بنائه بالآجر والجص، كما تم توسيعه سنة (260هـ/874م) بإضافة دار القطان له. إلا إن أهم زيادة حدثت كانت سنة (280هـ/893م) في زمن الخليفة المعتضد الذي أضاف اليه جزءاً من قصر المنصور ووصله به وفتح بين القصر والجامع في الجدار العتيق سبع عشرة طاقة، منها إلى الصحن ثلاث عشرة وإلى الأروقة أربعاً، وحوَّل المنبر والمقصورة إلى المسجد الجديد، وصار هذا القسم يعرف بالصحن الأول لتمييزه عن الصحن العتيق.

ومن رسوم هرسفيلد للجامع يبدو أن بيت الصلاة كان يحتوي على سبع عشرة بلاطة وكانت الأروقة الجانبية تتألف من رواقين، أما عدد أساكيب المصلى فكانت خمسة.

ظل الجامع مستخدماً للصلاة خلال العصرين العباسي الأول والثاني، وحتى بعد سقوط الدولة العباسية سنة (656هـ/1258م)، حيث زاره ابن بطوطة سنة (727هـ/1326م)، ثم قال عنه إن معالمه اندثرت في نهاية القرن الثامن، ولم يبق منه أثر سوى محراب من الرخام الجميل المعروف بمحراب الخاصكي وضعه الخليفة هارون الرشيد للجامع، وحالياً هذا المحراب معروض في المتحف العراقي.

الأسوار والأبواب:

كما قلنا سابقاً تطوق القصر والجامع أبنية وقصور شغلتها دواوين الحكومة، وبفضل هذه المجموعة من عمارات السور الداخلي المشيد باللبن والطين، يظهر أن هذا السور لم يكن ضخماً مرتفعاً مثل السور الأعظم[1].

أما دور أهل المدينة فكانت بين السورين، الأعظم والداخلي في فناء واسع بعرض (150م).

وتخطيط هذا الجزء هندسي متقن، وكانت الخطط مفصلة بشوارع مستقيمة تؤدي إلى طريق يوصل إلى السور الداخلي ويتصل بقلب المدينة عن طريق أربع بوابات هي امتداد للأبواب الرئيسية الأربعة التي تقع على الشوارع الأربعة التي تقسم المدينة إلى أربعة أرباع. وقد سقفت الشوارع الأربعة وجعلت بهيئة دهاليز مشغولة بطاقات أو حنايا خصصت للباعة والأسواق.

إن أضخم أسوار مدينة السلام هو السور الأعظم، وكان ارتفاعه بحدود 30 متراً، مشيداً باللبن والطين. وزيادة في قوة هذا السور فقد دعم بأبراج نصف أسطوانية عددها (113) برجاً، ويخترق هذا السور أربعة مداخل رئيسية محورية مزورة الهدف منها زيادة القوة الدفاعية لها.

وهذه المداخل هي باب خراسان، ويقع في الجهة الشمالية الشرقية، ثم باب الشام، ويقع في الجهة الشمالية الغربية، وباب البصرة في الجهة الجنوبية الشرقية، ويفضي إلى الرياض والحقول الممتدة على ضفة دجلة، وأخيراً باب الكوفة الذي يقع في الجهة الجنوبية الغربية، ويخرج منه طريق الحج المار جنوباً.

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، 239.

ويفصل السور الأعظم عن السور الخارجي مسافة بعرض (50 متراً) خالية من السكن. والسور الخارجي يطل على الخندق تفصله عنه مسناة متينة مشيدة بالآجر والنورة. ومما لاشك فيه أن السور الخارجي لم يكن مثل فخامة وارتفاع السور الأعظم.

ويحيط بهذا السور خندق، وهذا الخندق يمثل آخر الحلقات في الخطوط الدفاعية للمدينة. وكان يأخذ ماءه من نهركرخايا ويمكن اجتيازه عن طريق أربعة قناطر تؤدي إلى البوابات الأربع الحديدية التي نقلت من مدينة واسط.

والمعروف أيضاً أن أبا جعفر المنصور استعان بعدد كبير من الصناع المهرة والمهندسين من كافة أقاليم الدولة العباسية، ويقال إن عددهم قد بلغ مائة ألف عامل وأوكل الإشراف عليهم للفقيه النعمان بن ثابت (أبو حنيفة).

وقد استغرق البناء في مدينة بغداد حوالي خمس سنوات، تم في البداية إكمال القصر والمسجد، وقصور الأمراء، ودواوين الدولة، ثم الأسوار والخندق.

ارتفعت مكانة مدينة السلام بسرعة وعلت شهرتها، ونالت إعجاب من زارها، ولكنها لم تعمر طويلاً، أو تتوسع بالطريقة التي توسعت بها الكوفة والبصرة وواسط. ولاشك أن التخطيط الدائري المحدد المساحة لا يمكن أن تكون فيه المرونة الكافية للتوسع والنمو بعد سنوات من تأسيس مدينة بغداد. وهذا ما دفع الناس إلى الإنشاء والتعمير خارج السور، فقامت حارة الكرخ عبر باب الكوفة، فاقتطع المنصور في هذا الجانب الأراضي لقواد الجيش وأرباب الحظوة، فنمت الكرخ وما حولها بسرعة حتى فاقت المدينة المدورة أهمية وسعة، وأصبحت قلب بغداد التجاري، كما أصبحت محلات أخرى تدعى الحربية، وكذلك محلة العتابة التي كانت تنسج فيها ثياب الحرير، ومحلة الرملة التي تعرف بخضر إلياس، وهي محلة اليهود في أيام العباسيين، وسكن النصارى بدار الروم في شمال شرقي بغداد، ودرب دينار بسوق الثلاثاء وراء محلة الحربية حيث تقع مقابر قرشي بجوارها (محلة باب التبن)، وعندها يقع مشهد الإمام موسى بن جعفر حيث قامت حوله بلدة الكاظمية، وخارج باب البصرة أقيمت محلة البصرة، وتتاخمها المحلة الشرقية.

في غضون القرون الخمسة التي عاشت فيها الخلافة العباسية تغيرت خطط بغداد تغيراً كبيراً، لاتساع المدينة من جهة، وخراب بعض أقسامها من جهة أخرى

نتيجة الحروب الداخلية التي نشبت بين الأمين والمأمون بعد وفاة الرشيد، وقل شأن المدينة المدورة وتراجعت مكانتها عندما نقل الخليفة العباسي المعتصم بن هارون الرشيد مقام الخلافة في سنة (221هـ/836م) إلى سامراء، وأقام في هذه العاصمة الجديدة سبعة من الخلفاء بعده. ومما زاد في سرعة هجرانها وتهديمها، الفيضانات التي عرفها كل من دجلة والفرات. وكان لطبيعة المواد الإنشائية التي بنيت بها الأسوار ودور الناس، أي مادة اللبن والطين، أثر في سرعة التخريب والاندثار. هذه العوامل مجتمعة أدت إلى عدم بقاء المدينة كما أراد لها الخليفة أن تكون.

وقد أثار تخطيط وبناء مدينة السلام إعجاب المؤرخين، والجغرافين، وكتاب السير والخطط، فوصفت بأنها فريدة في شكلها، وروعة ودقة تخطيطها.

الرصافة ـ الجانب الشرقي من بغداد :

امتد عمران بغداد إلى الجانب الشرقي فعرف بمعسكر المهدي، إذ سمح المنصور لابنه أن يعسكر فيه وأن ينتقل إليها بجنده ويبني له قصراً، فبدأ البناء سنة (143هـ/760م) وسمي قصر الرصافة، وسميت المحلة الجديدة بمعسكر المهدي ثم دعيت بالرصافة. ويرى بعض المؤرخين أن المهدي بدأ البناء سنة (151هـ/768م)، وهي السنة التي عاد فيها مع جيشه من الري[1]، وسميت مدينته هذه بالرصافة. والرصافة كانت تطلق على المواضع التي توجد فيها طرق مرتفعة. وأول بناء شيد في الرصافة هو جامع الرصافة الكبير وبجواره القصر، وكان أوسع من جامع مدينة المنصور وأجمل منه، ثم أقام المهدي الدور والقطائع حوله. أما أهم هذه القطائع المحيطة بالرصافة، فهي ترب الخلفاء التي دفن فيها الخلفاء العباسيون المتأخرون، ثم قبر الإمام أبي حنيفة الذي صار مركز المحلة التى أطلق عليها فيما بعد اسم محلة أبي حنيفة (الأعظمية حالياً)، ومقبرة الخيزران، ثم محلة باب الطاق، ومحلة الخضرية، ومحلة الشماسية، ودير الروم، وقطائع البرامكة، ومحلة المخزم، ومحلة سوق الثلاثاء، ومحلة سوق الروم وغيرها.

وكان الجانب الشرقي من بغداد ينقسم إدارياً إلى قسمين : القسم الشمالي، ويعرف باسم طسوج نهر بوق، والقسم الجنوبي، وكان يعرف باسم طسوج كلواذا.

---

(1) شريف، تاريخ فن العمارة في مختلف العصور، ص 286.

وقد اتصلت الرصافة بالجانب الغربي بجسر أقيم عند باب الشعير، وسمي هذا الجسر باسم الجسر الكبير، وجسر الرصافة ويعتبر أول جسر أقيم بعد إنشاء مدينة بغداد. وقسمت ثكنات الجيش فيها إلى ثلاثة أقسام، قسمان لعرب اليمن ومصر، والقسم الثالث لأهل خراسان، وكان هناك طريق يبدأ بباب خراسان ويؤدي إلى الرصافة، ويمر فوق الجسر. واقتطع المهدي لضباطه والمقربين له مساحات لبناء بيوت لهم، فامتد العمران فيها، فأصبحت مدينة الرصافة بعد مدينة المنصور من حيث المساحة (شكل رقم 8).

وأخذت الرصافة تتسع وتزدهر الحياة فيها، وتم نقل دواوين الدولة إليها، وسكنها معظم الخلفاء الذين خلفوا المهدي، واتسعت أكثر عندما عاد الخلفاء إلى مدينة بغداد بعد أن هجرت سامراء سنة (279هـ/892م)، وتركز السكن فيها، ولكن دون أن يهمل الجانب الغربي. واشتهرت الرصافة بقصورها ومساجدها ودور العلم فيها، بالإضافة إلى دور الخلفاء. وعرف من قصورها القصر الجعفري، والتاج والفردوس، ودار الشجرة. ويذكر المؤرخون أن المأمون لما عاد إلى بغداد بعد انتصاره على أخيه الأمين، اختار السكن في قصر الرصافة، وترك قصره الأول لزوجته وأولاده، وظل مقيماً فيه إلى أن بنى منزله على شاطئ دجلة عند قصره الأول في بستان موسى.

تم تشييد سور الرصافة، ودعم بالأبراج، وأحيط بخندق عميق زيادة في تحصين المدينة، وكان هذا سنة (251هـ/865م) عندما فر من سامراء مع الجند الأتراك الثائرين عليه واحتمى ببغداد، وأنشأ سورين حول المدينة للدفاع عنها، الأول يحيط بالجانب الشرقي، ويضم بداخله المحطات الثلاث الشماسية والرصافة والمخزم، والسور الثاني يحيط ببغداد الغربية، وكان يضم بداخله المحلات المهمة حول مدينة المنصور. ثم توسعت المدينة خارج أسوار المستعين، واتخذ الخلفاء مدينة بغداد الشرقية (الرصافة) هذه المرة عاصمة لهم بدلاً من بغداد المدورة حتى نهاية حكم الخلافة العباسية سنة (656هـ/1258م). واتخذوا من القصر المعروف الحسنى فيها دار خلافة لهم، بعد أن أضافوا إليه، ووسعوه، وأحاطوه بسور يميزه عن غيره من القصور المحيطة به، ودور الرعية والأسواق، والتي صارت تسمى حريم دار الخلافة، ويحيط بها جميعاً سور نصف دائري تقريباً تخترقه سبعة أبواب، وترجع معظم المصادر بداية بنائه إلى عهد المعتضد (279-289هـ/ 901-892م) وأتمه من جاء بعده.

واستمرت عملية البناء والتوسع في هذا الجانب من مدينة بغداد في عصور لاحقة بعد عودة مركز الخلافة من مدينة سامراء إلى مدينة بغداد، وهذا ما سنذكره في الصفحات القادمة.

مدينة سامراء الأثرية

ليس في العراق الغني بآثاره الفريدة ما يثير في النفس من إعجاب واندهاش وألم كتلك التي تثيرها أطلال مدينة سامراء، تلك المدينة التي تمتد مسافة تقارب (34كم) على شاطئ دجلة (شكل رقم 9)، حيث تقع ثمانية منها جنوب المدينة الحالية و(26كم) شمالها، وعرضها يتراوح بين كيلومترين والأربعة كيلومترات[1]. ومدينة على مثل هذا الاتساع لابد أن تثير اهتمام الكتاب والمؤرخين، فهي حملت القزويني على أن يقول: «أنها أعظم بلاد الله بناء وأهلاً، وأنها لم يكن في الأرض أحسن ولا أجمل ولا أوسع ملكاً منها»[2].

ولمدينة سامراء أهمية أثرية وتاريخية، حيث أظهرت التنقيبات أن موضع سامراء قد استوطنه العراقيون القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ، منها تل الصوان الواقع على بعد (10كم) جنوب سامراء، حضارته ترجع إلى الألف السادس قبل الميلاد. وقد كان لسكان هذا الموقع نصيب من الحضارة تمتد إلى عصور سحيقة في التاريخ، وهذا يدل على أن الموقع الذي شيدت فيه العاصمة العباسية الثانية كان معروفاً في العصور التي سبقت العصر العباسي.

لقد كانت سامراء متنزهاً للمناذرة ولبني العباس، وموضع أنس ينتابه كبار رجال الدولة المجاورة. ومن المشاريع المعمارية التي نفذت في هذه المدينة قبل عهد المعتصم مشروع الرشيد[3]. قد أشار المؤرخون إلى هذا المشروع أثناء حديثهم عن اختيار المعتصم لمنطقة سامراء عاصمة له، منهم البلاذري الذي قال: «ونزلها أمير المؤمنين المعتصم ثم شخص عنها إلى القاطول، فنزل قصر الرشيد كان ابتناه حين حفر قاطوله الذي دعاه أبا الجند»[4]. ويبدو أن الرشيد لم

---

(1) سوسة، أحمد، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، مطبعة المعارف، بغداد، 1948، 46.

(2) القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ص 386.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 120.

(4) البلاذري، فتوح البلدان، ص 129.

يشيد قصره فحسب في القاطول، وإنما كان غرضه بناء مدينة في هذا الموضع، وهذا واضح من رواية الطبري حيث أشار إلى رواية منسوبة إلى مسرور الذي قال: «سألني المعتصم أين كان الرشيد يتنزه إذا ضجر من المقام ببغداد، قال: قلت له: بالقاطول (نهر القائم حالياً)، وقد كان قد بنى هناك مدينة آثارها وأسوارها لا تزال قائمة»[1]. إلا أن هذه لم تتم، إذ أن الرشيد قد ترك العمل بها وتوجه إلى الرقة ليدير فيها إخماد ثورة أهل الشام، وبقيت مدينة الرشيد (القاطول) دون أن تستكمل. ويفهم من رواية ياقوت الحموي أن قصر الرشيد كان على مقربة من أثر قديم (حصن القادسية)، واستناداً إلى الدكتور سوسة الذي قام بدراسة مدينة سامراء الأثرية جغرافياً، يرجح أن يكون موقع مدينة الرشيد في المكان المعروف (المشرحات) الذي يقع شمال شرقي سور القادسية على الضفة اليسرى لمجرى القائم لنهر أبي الجند وعلى بعد 6كم منه. بقي قصر الرشيد قائماً عامراً في زمن المعتصم، إذ أضاف إليه بعض المباني عندما رغب السكن فيه، ثم منحه بعد ذلك إلى أشناس، وقد بقي قصر الرشيد على حاله إلى أن جاء الخليفة المتوكل الذي أمر بنقض القصر وبنى قصراً جديداً مكانه، وأنشأ أمام القصر البركة الجعفرية المشهورة[2].

واصلت مدينة سامراء نموها الحضاري حتى بلغت في العصر العباسي أوج الازدهار، وامتد بها العمران مما جعلها حاضرة العالم الإسلامي، وذلك في عهد الخليفة المعتصم ثامن خلفاء بني العباس الذي أسس فيها مدينته الجديدة، وجعلها مقر قيادته العسكرية، ونقل إليها مركز الخلافة عام (221هـ/835م).

حكم في سامراء ثمانية خلفاء منهم المعتصم، الواثق، المتوكل، المنتصر، المستعين، المعتز، المهتدي، المعتمد. وآخر من أقام في سامراء ثم هجرها هو المعتمد، قيل إنه غادرها قبيل وفاته بستة أشهر، فتولى الخلافة من بعده المعتضد.

وسامراء الحديثة اليوم تقع على مسافة (120كم) إلى الشمال من بغداد، حيث نشأت هذه المدينة على جزء من أطلال العاصمة العباسية المندثرة، وحول مشهد

---

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 3، ص 160.

(2) سوسة، ري سامراء، 244/2.

الإمامين علي الهادي الذي كان يسكن سامراء أيام المعتصم، وولده الحسن العسكري الذي عاصر المتوكل، واللذين توفيا في أواسط القرن الثالث الهجري، وتم دفنهما في بيتهما بمدينة سامراء، وأقيمت لهما حضرة في حدود سنة (1200م) وطليت القبة بالذهب سنة 1285/1868م.

وإلى جانب هذا المبنى أقيم سرداب الغيبة، زود مدخله بباب جميل يعود تاريخه إلى عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله 606هـ/1209م[1]، وهذا المبنى أضفى على المدينة أهمية دينية إلى جانب أهميتها الأثرية.

وخلال الحكم العثماني، وعلى عهد الوالي مدحت باشا، جعلت مدينة سامراء ولاية عام 1286هـ/1869م، حيث كان يحيط بالمدينة سور ضخم مضلع الشكل يميل إلى الاستدارة يبلغ محيطه كيلومترين، وقطره حوالى 680م، أقامه زين العابدين عام 1250هـ/1834م، ولهذا السور (شكل رقم 10) أربعة أبواب. ونتيجة للتوسع العمراني لمدينة سامراء الحالية هدم السور والأبواب ماعدا باب بغداد، فقد حول إلى متحف محلي تعرض فيه الآثار المستخرجة من المواقع الأثرية لهذه المدينة.

ومدينة سامراء الحديثة تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وعلى بعد (130كم) إلى الشمال من مدينة بغداد، وقد شيدت هذه المدينة فوق آثار العاصمة العباسية (سر من رأى) التي تمتد أطلالها مع الضفة العليا لوادي نهر دجلة.

مميزات موقع المدينة وتسميتها :

يمتاز موقع مدينة سامراء بمميزات استراتيجية يضعها في موضع ملائم للسيطرة على أجزاء مختلفة من الإمبراطورية الإسلامية، بالإضافة إلى وقوعها في مكان تحيط به المياه، منها نهر دجلة يحدها من جانبها الغربي ابتداءً من أقصى موقعها حتى حدودها الجنوبية، ويساعد هذا النهر على سهولة الاتصال بين المدن الشمالية والجنوبية من العراق، كما أن النهروان بفرعيه يحف بها من جانبها الشرقي، وهذان الجداران المائيان يمنحان هذا الموقع أهمية عسكرية عظيمة، كما

---

(1) نشرة دائرة الآثار، 1952.

أن ارتفاع أرض المدينة عن مستوى النهر جعلها في مأمن من خطر الفيضان الذي كان يهدد بغداد كل عام، وكان هذا من العوامل التي أدت إلى اختيار المعتصم هذا المكان لإنشاء العاصمة الجديدة.

لقد أكدت معظم المصادر التاريخية أن المعتصم سكن في قصر الرشيد بعد أن أضاف إليه بعض المباني، ولم يمكث في هذا الموضع أكثر من ثلاثة أشهر لضيق موقع القاطول[1]، ثم غادرها وأخذ يفتش عن أرض جديدة يقيم عليها عاصمته الجديدة لتحمل اسمه، فوقع اختياره على أرض واسعة لا عمران فيها سوى دير للنصارى، وهو الموقع الذي يقوم فيه حالياً باب العامة فاشتراه من أصحابه[2].

بدأ المعتصم في تشييد مدينته في سنة (220هـ/834م)، ونقل إليها مركز الخلافة الإسلامية سنة (221هـ/835م)، وجعلها مقر قيادته العسكرية، وحين أقام بها أمر أن تسمى سر من رأى، وبهذه الصيغة وجد اسمها مدوناً على النقود العباسية المضروبة فيها، ويقول حمد الله المتوفى سنة (740هـ/1339م) : لما كان إقليماً طيباً عرفت بـ (سر من رأى)، ويقال إن الناس خففوا هذه التسمية فقالوا (سامراء)، وقد ذكرها البحتري شاعر المتوكل بهذه الصيغة في قصيدته عند إعدام بابك الخرمي[2].

ويقول اليعقوبي إن اسم سامراء في الكتب المتقدمة زوراء بني العباس، أما العالم الآثاري د. فوزي رشيد فأشار إلى أن تسمية سامراء وسر من رأى هما استمرار للتسميات القديمة للمدن التي أقيمت في المنطقة المذكورة، حيث إن كلمة سامراء منحدرة من تسيمة سيمروم التي ظهرت إلى حيز الوجود في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، وأما سر من رأى، فإن نصوص الألف قبل الميلاد سواء كانت مسمارية أم آرامية، فقد ذكرت لنا اسم المدينة سر من رأى[4]، وهكذا فإن سامراء وسر من رأى كلاهما تسميات عراقية عربية قديمة[5].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 319.

(2) سوسة، ري سامراء، ج 2، ص 123.

(3) البحتري، ديوان البحتري، 1467/3.

(4) رشيد، د. فوزي، "أصالة نظم الأرواء العربية القديمة في العراق"، مبحث نشر في كتاب بغداد مدينة السلام، إصدار مركز إحياء التراث، ص 112.

(5) سومر، مجلد 2، سنة 1981، ص 38.

ولمدينة سامراء أهمية خاصة بين مدن العراق القديمة، كونها شيدت وازدهرت وهجرت خلال فترة قصيرة، وأمدها نصف قرن، لهذا، فإن كل ما فيها من مبان، وما عثر عليه بين أنقاضها من لقى يعود تاريخها إلى زمن معين وتاريخ معين يمكن تحديده بالقرن الثالث الهجري.

وخلال حكم الخليفة المعتصم في مدينة سامراء، وقعت أحداث جسام، منها : تهديد المعتصم سنة (223هـ/837م) مدينة القسطنطينية، وفتح عمورية، وكان عهدها عهد قمم من أعلام الرجال ممن تفتخر بهم الأمة في مختلف الميادين والعلوم والأدب، فقد عاصرها أحمد بن حنبل، والبخاري، والطبري، وإمام النحو المبرد، والشاعر أبو تمام، والبحتري، وفيلسوف العرب الكندي.

التخطيط العام للمدينة :

تخطيط المدينة ونظام الري يدل على براعة فائقة في هندسة تخطيط المدن، كما أن فيه كثيراً من الابتكارات التي تتجلى في تنظيم الشوارع والمساكن، وتنسيق الأبنية العامة والأسواق والمساجد والأرصفة، إذ أقطع المعتصم للقواد والكتاب والموظفين. وكان كل قسم منها مخصصاً للأفراد المنحدرين في الأصل من إقليم واحد، كما عني بعزل الجيش عن الأهلين ودواوين الدولة، فأنزلهم بأحياء معزولة وبعيدة عن الاتصال بعامة الناس، كما أمر أن تكون إقطاعات الأتراك بعيدة عن الأسواق المزدحمة، ورغب أن تخط مساكنهم على شوارع واسعة وأزقة طويلة كي توفر لهم الأجواء التي تلائم صفاتهم. وأقطع المعتصم مولاه اشناس التركي وأصحابه في آخر البناء في الشمال من الكرخ، وسماه الدور (دور عربايا)، كما أقطع الأفشين في آخر البناء وسماه المطيرة (تقع جنوب سامراء)، وكانت من منتزهات بغداد، وأقطع عرطوج وأصحابه ما يلي الجوسق الخاقاني، وأقطع وصيفاً وأصحابه ما يلي الحير، وبنى حائطاً سماه الحير[1]، كما شيد مباني عسكرية (ثكنات) لسكنى 250 ألف جندي، وإصطبلات واسعة لاستيعاب 160 ألف حصان[2]. وحصن القادسية يشغل مساحة تقرب من ثمانمائة دونم، وللحصن سور عظيم يحيط بمساحة واسعة مثمنة الشكل،

---

(1) اليعقوبي، البلدان، ج 3، ص 23.

(2) سوسة، ري سامراء، ج 2، ص 50.

طول كل ضلع من أضلاعها (360م)، وقطرها يبلغ حوالى (1650م)[1]، كما أقطع القطائع إلى القواد الذين بنوا لهم قصوراً ضخمة، وأسس عدة مصانع لصناعة الزجاج والخزف والأصباغ وصناعة القراطيس، وأقام في سامراء أسواقاً لتصريف هذه البضائع.

لقد بلغ طول مدينة سامراء تسعة عشر كيلومتراً، وقد مدت على طول هذه المدينة شوارع عامة متوازية أبرزها شارع، الخليج وشارع يلي الخليج شرقاً هو الشارع الأعظم، ويعرف بشارع السريجية، وهو يمتد من آخر البناء في المطيرة جنوباً إلى آخر البناء في قطيعة أشناس ودور عربايا شمالاً، وشارع ثالث مواز له من جهة الشرق هو شارع أحمد بن رشيد، ويتفرع عن يمين ويسار كل شارع رئيسي شوارع فرعية.

وأقيمت بين هذه الشوارع الرئيسة والفرعية الدور والقطائع والأسواق[2]، كما أقيمت قصور فخمة على ضفاف نهر دجلة، ولا تزال بقايا بعضها قائمة إلى الوقت الحاضر. وعهد إلى كل رجل من رجال أصحابه بناء قصر، منها قصر الخاقان وعرطوج أبي الفتح والمعروف بالجوسق الخاقاني، وإلى عمر بن فرج القصر العمري، وإلى وزيره بناء القصر المعروف بالوزيري.

إن المخطط الذي درج عليه المعتصم في بناء سامراء كان يختلف عن ذلك المخطط الذي اتبع في بناء المدن العراقية المبكرة مثل البصرة والكوفة، وواسط، وبغداد، إذ جعل الجامع يقع على الشارع الذي يعرف بالسريجية[3]. وقد استمرت الصلاة فيه في عهد المعتصم وولده الواثق، وحين جاء المتوكل إلى الخلافة هدمه كله، وبنى جامعاً آخر أكبر من سابقه (شكل رقم 10). أما الأسواق المختلفة، فقد أقيمت حول الجامع. ومرة أخرى قلد المعتصم الخليفة المنصور، جاعلاً رجال الحرف والبضاعات مجتمعين مع أصحاب التجارة المتشابهة في أماكن خاصة، بالإضافة إلى ذلك أنه أمر أن يكون لكل قطيعة سوق صغير.

---

(1) القصيري، د. اعتماد، "التراث الحضاري لمدينة سامراء"، مبحث نشر في مجلة كلية المامون م 1، سنة 2003، ص 120.

(2) سوسة، ري سامراء، ص 61.

(3) العميد، تخطيط المدن، ص 418.

المعالم الأثرية للمباني التي أقيمت في عهد المتوكل :

في عام 232هـ/846م توفي الواثق، وبويع بالخلافة من بعده جعفر المتوكل على الله، وكان قد بلغ من العمر آنذاك 26 سنة، لقب جعفر في أول الأمر بالمستنصر بالله، ثم تغير اللقب فعرف بالمتوكل.

سكن المتوكل في بداية حكمه في القصر الهاروني، وأسكن ولده المؤيد بالمطيرة، والمنتصر في قصر الجوسق، وابنه الثالث المعتز خلف المطيرة في موضع يقال له بكلوارا، والذي يقع موضعه في مكان يعرف بالمنقور.

امتاز عهد المتوكل بكثرة المشاريع العمرانية، وذلك لرغبته القوية في البناء، كما يعد من أكثر الخلفاء اهتماماً بالعمران في فترة الخلافة العباسية، ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل، حيث أدخل على مدينة المعتصم إضافات وتوسيعات منسقة، ذات صيغة فنية، لتحقيق رغبته الشديدة في أن تكون عاصمته أعظم عاصمة في العالم الإسلامي، إلا أن المتوكل لم يقتنع بهذه التوسيعات، لذا سعى لإنشاء مدينة جديدة هي المتوكلية، وعرفت بالماحوزة كما سميت بالجعفرية[1] نسبة إليه.

تقع مدينة الجعفرية في بقعة جميلة، في الحد الشمالي لمدينة المعتصم على بعد خمسة عشر كيلو متر من موقع سامراء الحديثة، حيث تمتد على محاذاة الضفة اليسرى لنهر دجلة مسافة 15كيلومتر إلى الشمال، حيث تنتهي إلى جوار صدر القائم الأعلى، الذي يتفرع من نهر دجلة عند مدينة الدور الحالية.

بلغ عرض المدينة زهاء ثلاثة كيلوميترات، وبهذا تكون مساحة الأرض التي تشكلها المدينة 45كيلومتراً مربعاً تقريباً.

زودت المدينة بالمياه السيحية، بإخراج نهر من ضفة نهر دجلة اليسرى، على بعد حوالي أربعين كيلومتراً، من شمال مدينة تكريت. يسير النهر محاذاة دجلة جنوباً مسافة زهاء سبعين كيلو متر، حتى يصل إلى المتوكلية، وقد سمي النهر بالجعفري نسبة إلى الخليفة جعفر المتوكل، ويقال : إنه أنفق عليه ما يقرب من مليون دينار. وكان تصميم المدينة على أساس تخصيص القسم الجنوبي منها

---

(1) معجم البلدان، ج 3، ص 17.

لسكنى الناس بصورة عامة، وكان يعرف باسم دورعربايا، والقسم الساحلي من مدينة المتوكلية الواقع على الضفة الغربية لنهر دجلة كان مخصصاً لسكنى أبي الفتح بن خاقان، وإبراهيم بن رباح، وكان يسكن دار الفتح قبل إنشاء المتوكلية أشناس التركي مولى المعتصم، وكانت هذه الدار قرب كوخ أشناس. ويلاحظ من تخطيط المدينة أن معظم القصور الرئيسية التي أقيمت في المتوكلية، كانت تطل على ضفة نهر دجلة منها القصر الجعفري الذي أعد لسكنى المتوكل، والكائن في أقصى الشمال. وخططت شوارع المدينة بصورة مستقيمة ومتوازية، فالشوارع الرئيسة تمتد على طول المدينة، من الجنوب إلى الشمال، والشوارع الفرعية تتجه نحو الشرق والغرب، ويتضح لنا من تخطيط المتوكلية أهمية وجود الشارع الأعظم، فهو كشريان رئيسي عام في جسم المدينة وهو متصل بشارع السريجة، والذي كان قد أنشيء في مدينة المعتصم، فالمدينة كما نلاحظ يخترقها شارعان، يمتدان على طول المدينة : الشارع الأعظم، الشارع الغربي، والشارع الشرقي هو شارع أبي أحمد، والشارع الأعظم يتوسط المدينة بخط مستقيم، مسافة ستة كيلو مترات تقريباً، نحو الشمال وتتفرع على جانبيه شوارع فرعية كثيرة. وفي هذا الجزء من المدينة قطعت القطائع لقواد الجيش، فكان لكل قائد مقر خاص به يطل على نهر دجلة، منها قطيعة إبراهيم بن رباح، ومحمد بن عبد الملك الزيات.

وفيما يتعلق بالأسواق، فقد أقيمت في مواقع متفرقة من المدينة، وجُعل لكل مربع وناحية سوق، وفي الجانب الغربي من الشارع الأعظم، أقيم المسجد باسم جامع أبي دلف، وأجري الماء إليه من نهر دجلة بواسطة قناتين تتخللان شوارع المدينة.

وتنتهي المتوكلية في شمال الجامع بقليل، وينتهي معها الشارع الأعظم عند السور الذي يحيط بالمدينة من الشمال، والممتد على ضفة نهر القاطول وضفة نهر دجلة، وهو يؤلف حاجزاً بين المدينة ودار الخلافة وقصور الخليفة الواقعة إلى شمال السور المذكور. وحفر حوله خندق يملأ بالمياه من النهر الجعفري، وقد أنشيء في هذا السور في نقطة انتهاء الشارع الأعظم ثلاثة أبواب عظام، يدخل منها الفارس برمحه[1]، ولا تزال آثار هذه الأبواب قائمة. ولكي يزيد من تحصين

(1) معجم البلدان، ج 3، ص 17.

دار الخلافة فقد أحاطها بسور يضم مساحة تقدر بـ 540 دونماً تتخللها ساحات واسعة، فيها حدائق وبساتين، تروى من نهر الجعفري. من كل ما ذكرناه من وصف المدينة، يبدو لنا أن تخطيط المتوكلية يعبر عن مدى ما وصل إليه تخطيط المدن الإسلامية من تطور، حيث امتازت المتوكلية في تخطيطها عن غيرها من المدن الإسلامية بـ :

1. أقيم تخطيطها على أساس تصاميم دقيقة يتمثل فيها الفن التخطيطي الدقيق والتنسيق، وبهذا يمكننا أن نجزم بأن المتوكلية هي أهم مدينة عباسية، خططت بصورة فنية ودقيقة، ووضعت تصاميمها بطريقة هندسية متناسقة قبل بنائها.

2. أحيطت المدينة بالمياه من جميع أطرافها، بحيث أصبحت تؤلف شبه جزيرة، يمدها نهر دجلة من جهة الغرب والقاطول الأعلى، وفروعه من الشمال والشرق والجنوب.

الفصل الثاني

العمائر الدينية في العراق

المبحث الأول

المساجد والجوامع

المسجد بكسر الجيم هو الموضع الذي يسجد فيه، وجمعه مساجد. وقد ورد ذكر المسجد والمساجد في القرآن الكريم بلفظها ثمان عشرة مرة، منها قوله عز وجل : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيه اسمه ﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾[2].

أما الجامع فهو نعت للمسجد، وإنما نعت بذلك لأنه علامة الاجتماع، وكان الاتجاه السائد في إقامة المساجد الجامعة الأولى مراعاة نظام الصفوف في الصلاة والاتجاه نحو الكعبة.

وقد احتفظ العراق بنظام تخطيط المساجد الجامعة الأولى التي بنيت في مدينتي البصرة والكوفة خلال العصر الأموي. وفي العصر العباسي شهد العراق إقامة مجموعة من المساجد والجوامع لايتسع المجال لذكرها جميعاً، لذا اخترنا منها :

المسجد الجامع في سامراء

شيده المعتصم وبقي عامراً إلى عهد المتوكل، إلا أن الخليفة الأخير، وجد أن المسجد قد ضاق بالمصلين، لذا أمر بإنشاء جامع كبير مكانه سنة 235هـ/849م وفرغ منه عام 237هـ/851م تقدر مساحته 38 ألف متر مربع[3]، وقد تهدمت معظم

(1) سورة البقرة، الآية 114.
(2) سورة الجن، الآية 18.
(3) اليعقوبي، البلدان، ص 235.

معالمه الأثرية ولم يبق منه سوى جدرانه الخارجية البالغ ارتفاعها 10,50 متراً، وسعته 2,60 متراً، وجدرانه تحيط بساحة مستطيلة الشكل فتح فيها 23 مدخلاً خمسة منها قائمة في الضلع الشمالي، وثمانية منها في الضلعين الشرقي والغربي، وفي جدار القبلة أقيم مدخلان يقعان على جانبي المحراب[1] (شكل رقم 11).

ويتوسط المسجد صحن مكشوف تحف به أروقة من جميع جهاته، أكبرها رواق القبلة القائم في الجهة الجنوبية الغربية، وكان يحتوي على 24صفاً من الأعمدة، في كل صف 19عموداً. أما مؤخرة المسجد (المجنبة الشمالية)، فقد احتوت على 24 دعامة فقط، في كل صف ثلاث دعامات، وفي الرواقين الشرقي والغربي 22صفاً من الدعامات، كل صف يحتوي على أربع دعامات. يتوسط جدار القبلة محراب مستطيل الشكل تحفه أعمدة. وكان يتوسط الصحن فوارة ماء لا ينقطع ماؤها، بلغ محيطها 12متراً وارتفاعها ثلاثة أمتار، وقد تعرضت هذه المئذنة إلى القصف نتيجة تواجد القوات الأمريكية داخل الجامع وفوق المئذنة، مما أدى إلى حدوث فتحة في الطابق الثاني للمئذنة.

ومئذنة الجامع تقوم في المجنبة الشمالية من بناء الجامع، وتعرف بالملوية قائمة بذاتها ولا تتصل بالجامع، تقع على بعد 27 متراً من الجدار الشمالي للجامع، وعلى محوره الأوسط تقريباً، تقوم على قاعدة مربعة مؤلفة من مسطبتين، الأولى طول ضلعها 31,30 متراً وارتفاعها 2,5 متراً مزينة بـ 33مشكاة على هيئة محاريب صغيرة، أما الثانية فطولها 3,10 متراً وارتفاعها 1,60 متراً، وبذلك يكون ارتفاعها الكلي 4,10 متراً، يقوم فوقها بدن حلزوني، يرتقى إليه بطريق عرضه 2,5 متراً يدور حول البدن خمس دورات كاملة، بعكس اتجاه عقرب الساعة. وقمة المئذنة أسطوانية الشكل، قطرها 6 أمتار وارتفاعها 5,40 متراً، مزينة بثماني حنايا صماء على هيئة شبابيك باستثناء الحنية الجنوبية التي ينتهي عندها السلم الحلزوني، وداخل هذا البدن الأسطواني سلم يؤدي إلى قمة المئذنة التي ترتفع عن القاعدة بحوالي 50 متراً.

جامع أبي دلف

تعد بقايا جامع أبي دلف القائمة في نهاية الشارع الأعظم من أبرز الأبنية الأثرية الشاخصة في المتوكلية، بناه المتوكل عام 245هـ/860م وأكمل بعد سنة وستة أشهر.

---

(1) سليمان، د. عيسى، "تخطيط المدن"، مبحث نشر في كتاب حضارة العراق، ج 8، ص 62.

وفيما يتعلق بتسمية الجامع، لم نجد في النصوص التاريخية والأدبية ما يشير إلى التسمية الأولى لهذا الجامع، وأغلب الظن أنه كان يسمى المسجد الجامع، أما تسميته بجامع أبي دلف فهي تسمية حديثة ألصقت بمسجد المتوكل في عصر لاحق.

بني الجامع على غرار المسجد الجامع في سامراء، والمعروف بين عامة الناس بجامع الملوية، من حيث التخطيط العام، فهو أيضاً مستطيل الشكل، طوله 215,5 متراً، جدرانه الخارجية تعرضت إلى الانهيار، لكونها كانت مشيدة باللبن ومدعمة بأبراج بلغ عددها 42 برجاً، في كل ركن من أركانها الأربعة أبراج مستديرة، أما بقية الأبراج الأخرى، فهي موزعة على الأضلاع الخارجية، ففي كل من الضلعين الشرقي والغربي 15برجاً نصف أسطوانية، وفي الضلع الشمالي ثمانية أبراج، وعشرة أبراج في الضلع الجنوبي، وفتح في جدرانه ثمانية عشر مدخلاً.

ومما لوحظ على بناء الجامع أن الأقسام الداخلية لهذا الجامع ظلت قائمة، على خلاف الهيكل الداخلي للمسجد الجامع في سامراء. ويتوسط بناء الجامع صحن مكشوف قياسه 104x60x155,70م، محاط من جهاته الأربع بأربعة أروقة، أكبرها الرواق القبلي (بيت الصلاة) القائم في المجنبة الجنوبية. يحتوي بيت الصلاة على 16 دعامة مستطيلة الشكل، تقوم فوقها عقود مدببة يرتكز عليها سقف المصلى، وفي المجنبة الشمالية 16 دعامة أيضاً تكون 17 بلاطة تطل على الصحن بعقود مدببة.

وتقوم المئذنة في المجنبة الشمالية، وهي ملوية الشكل على غرار ملوية سامراء، ذات مرقاة خارجية، إلا أنها أصغر حجماً، طول ضلع قاعدتها المربعة 10,60 متراً، ويقوم فوقها بدن حلزوني يدور ثلاث دورات فقط (شكل رقم 12).

وبالرغم من أوجه الشبه القائمة بين جامع الملوية وجامع المتوكلية، إلا أننا نجد بعض الفروقات، وهي تنحصر في الأبعاد، وعدد الأروقة، وفي كيفية التسقيف، ثم العقود الموجودة في بيت الصلاة، وأروقة جامع أبي دلف، بينما سقف جامع سامراء يرتكز على الدعائم مباشرة دون عقود، إلا أن حالة خرائبه الباقية على العكس من جامع سامراء، تكاد تكون معضمها قائمة عدا سقوفها، كما أن مساحة جامع سامراء أكبر بميل مربع من جامع أبي دلف، أما المئذنة فهي أصغر حجماً من ملوية سامراء، وارتفاعها 19متراً، والطريق اللولبي يدور حول البدن ثلاث دورات فقط.

جامع الخفافين

لم تكن إقامة المساجد مقتصرة على الخلفاء العباسيين، بل أقيمت مساجد من قبل بعض السيدات الفاضلات، منها جامع زمرد خاتون ومدرسته الذي يعتبر أقدم بناء عباسي وصلت إلينا بعض عناصره العمارية. أنشئ الجامع من قبل زمرد خاتون زوجة الخليفة العباسي المستضئ بالله، والتي كانت تتصف بالتقوى وفعل الخير، حيث قامت بعمارة المساجد والجوامع والأربطة.

يقع الجامع على شاطئ دجلة قرب المدرسة المستنصرية، وقد تضاربت الآراء في الإسم الأصلي للجامع، والصحيح هومسجد الحظائر، وهو الاسم القديم الذي كان يعرف به[1]. وفيما يتعلق بتاريخ البناء لانعرف بالضبط سنة بنائه، إلا أن المراجع التاريخية تؤكد لنا أنه من جملة الأبنية التي ترجع إلى نهاية العهد العباسي[2]، علماً أن مشيدته توفيت سنة 599هـ/1202م، لذا أغلب الظن يرجع تاريخ بناء الجامع إلى سنة (580م).

تعرض بناء الجامع إلى عدة ترميمات وإعادة بناء بعض أقسامه من قبل الولاة على مدى العصور.

ومن النصوص المدونة على واجهات المبنى يبدو أن العناصر العمارية قد تهدمت، ولم يبق منها ما يدل على طراز عمارته في تلك الفترة سوى المخطط الأرضي له، والمنارة التي لم تهدم وأنها أصيلة، وهي بهذا تعتبر نموذجاً للمآذن البغدادية التي أقيمت على غرارها المآذن العراقية خلال مختلف العصور، كما تعتبر أقدم ما تبقى من بناء الجامع.

تتكون المئذنة من قاعدة مثمنة يعلوها بدن أسطواني ينتهي بشرفة المؤذن التي ترتكز على صفوف من المقرنصات بارزة عن البدن، وتحصر هذه المقرنصات بينها حنايا مضلعة ذات عقود مدببة. والجزء الثاني الذي تقوم فوقه الشرفة أصغر حجماً، وهو أسطواني الشكل يقل قطره عن قطر البدن قليلاً وينتهي بقبة بصلية مضلعة الشكل.

---

(1) مجلة العرفان، مجلد 9، سنة 1934، ص 899.

(2) سوسة وجواد، مصطفى وأحمد، دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ص 182.

وخلال حكم الوالي إسماعيل باشا أعيدت عمارة بناء مدرسة الجامع، وتمت صيانة منبى الجامع، وآخر تجديد جرى عليه كان سنة 1973م من قبل وزارة الأوقاف وشمل الواجهة الأمامية والحرم.

أما تخطيط الجامع فهو عبارة عن قطعة أرض مربعة الشكل تحتوي على بيت للصلاة، تتوسط أرضيته دعامتان مستطيلتان ونصف دعامة قائمة في الجدارين الشرقي والغربي. وهذه الدعائم قسمت بيت الصلاة إلى أسكوبين متساويين في الحجم، ترتكز فوق هذه الدعائم عقود مدببة تحصر بين أكتافها مثلثات كروية ازدانت بصفوف من المقرنصات، وبواسطة هذه المثلثات تم تحويل الجزء المربع إلى مدور لإقامة القبة، حيث نرى قباباً نصف كروية قليلة العمق أكبرها قبة بلاطة المحراب.

وقد استخدم الآجر والجص في بناء القباب، إذ رصف الآجر بصورة دائرية إلى أن ينتهي إلى قمة القبة، ويتوسط جدار القبلة محراب مضلع يطل على المصلى بعقد مدبب، وقد كسيت واجهة المحراب ببلاطات خزفية تزدان بزخارف نباتية، وإلى يمين المحراب يقوم المنبر، وهو على غرار المنابر البغدادية استخدم الآجر والبلاطات الخزفية في بنائه.

ويقوم أمام المصلى رواق يطل على الصحن، وإلى يمين بيت الصلاة يقوم مصلى خاص بالنساء. ويحتوي الصحن على حجرات كانت بعضها تستخدم من قبل خدام الجامع، والبعض الآخر خصص لطلاب المدرسة التي كانت تدرس فيها العلوم المختلفة. وكانت مدرسة هذا الجامع تحتوي على مجموعة من الكتب والمخطوطات النادرة، وقد أتلف معظمها.

وللجامع بوابتان إحداهما تطل على سوق الخفافين، والثانية تطل على نهر دجلة، وبهذا خالف النظام تخطيط المساجد، وأمام بيت الصلاة أقيم رواق واسع. كما احتوى المسجد على ساحة واسعة، واحتوت الساحة على مصلى صيفي يقع إلى يمين بيت الصلاة، وفي الجانب الغربي منه أقيمت المدرسة لتدريس العلوم العقلية والفقهية.

جامع قمرية

كثير من المساجد التي أقيمت في بغداد خلال العصر العباسي فقدت أسماءها بسبب ما جرى عليها من عمليات صيانة وإعادة بناء غيرت معالمها العمارية،

واكتسبت أسماء جديدة، إلا أن جامع قمرية لايزال معروفاً إلى اليوم باسمه القديم، ويعد من أقدم المساجد العباسية الباقية إلى وقتنا الحاضر[1].

يقع في الجانب الغربي من مدينة بغداد، ويطل على نهر دجلة مباشرةً مقابل دار الحكومة (السراي) في محلة الشيخ بشار، وهو من أصلح مساجد بغداد قبلة[2]، والجامع من بناء الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (626هـ/1228م) (شكل رقم 13).

تعرض بناء الجامع إلى تجديدات عدة مرات وفي فترات لاحقة.

يحتل مسجد قمرية مساحة مستطيلة الشكل قياسها 17,5x31م. يتألف المسجد من بيت للصلاة يشكل القسم الجنوبي الغربي منه، وصحن ضيق يحيط بالمصلى من الشرق والغرب والشمال، أما المئذنة فهي تلتصق بجدار بيت الصلاة الجنوبي الشرقي.

يقع المصلى في الجزء الجنوبي، يحتل قطعة من الأرض مستطيلة الشكل يتكون من أسكوبين وثلاث بلاطات، أوسعها بلاطة المحراب. ويتوسط جدار القبلة محراب مضلع على غرار محراب جامع الخفافين، وفتح في جدرانه خمسة أبواب تطل على الصحن، وأمام بيت الصلاة أقيم رواق واسع. كما احتوى المسجد على ساحة واسعة، واحتوت الساحة على مصلى صيفي يقع إلى يمين بيت الصلاة، وفي الجانب الغربي منه أقيمت المدرسة لتدريس العلوم العقلية والفقهية.

وتعد مئذنة جامع قمرية من أجمل المآذن من حيث التناسق والتناسب[3]. ولها طراز خاص بها، فجزؤها العلوي من الحوض إلى القمة دقيق بالنسبة إلى الحوض والبدن لضمان بنائها زمناً أطول، لأن نحافة القسم الأعلى تخفف من الضغط على القاعدة.

زينت المئذنة عند قمتها بالقراميد العمارية، وباللونين الأزرق والأبيض بأشكالها الهندسية.

---

(1) العزاوي، عباس، مخطوط المساجد والجوامع في بغداد، محفوظ في المجمع العلمي العراقي، ص 29.

(2) الجنابي، د. كاظم، "مسجد قمرية تخطيطه وعمارته"، مبحث نشر في مجلة سومر سنة 1975، ص 82.

(3) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد 1932، ص 122.

جامع الخلفاء

جامع الخلفاء هو أحد الجوامع الثلاثة الكبيرة في بغداد (جامع المنصور، جامع الرصافة وجامع القصر)، كانت تقام فيه صلاة الجمعة خلال القرون الأربعة الأخيرة من عصر الخلافة العباسية، كما أنه كان الجامع الرسمي للدولة العباسية[1]، فيه تعقد حلقات الفتوى والدروس، وتقام المناظرات، وتعقد فيه حلقات الفقهاء.

لقد عاش هذا الجامع أكثر من ألف سنة اعتراه خلال هذه المدة الطويلة الكثير من التصليح وإعادة البناء، من ذلك قيام المستنصر سنة 623هـ/1226م بتجديد بنائه بصورة كاملة.

أعيد بناؤه في العهدين المغولي والتركي. وخلال الحكم الأيلخاني عام 687هـ/1289م هدم الجامع وأعيد بناؤه، ولكن البناء الآخر تهدم وظلت هذه المئذنة فقط، وصارت تدعى بمئذنة سوق الغزل (شكل رقم 14).

وتعد منارة سوق الغزل أضخم وأطول مآذن بغداد السابقة واللاحقة، وهي فريدة أيضاً في شكل قاعدتها التي تتألف من اثني عشر وجهاً أو ضلعاً. يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار، ولا يوجد مثيل لهذه القاعدة من حيث عدد أضلاعها ومحيطها في أي من مآذن بغداد أيضاً[2]. ومن ميزاتها المعمارية احتواؤها على حوضين وسلمين حلزونيين يخترقان البدن ولا يلتقيان إلا في الحوض الثاني، وهذه صفة مميزة لم نجدها في مآذن بغداد، وإن كنا وجدنا سوابقها في حدباء الموصل ومظفرية أربيل، ويضاف لها صفة أخرى هي صفوف المقرنصات الجميلة المنفذة وبدقة متناهية في حفر الزخارف، وخصوصاً زخارف الرقش العربي التي نفذت بطريقة التفريغ، كما تفنن البناء في رصف الآجر في بناء بدن المئذنة، مما أدى إلى إحداث زخرفة آجرية تغطي كامل البدن.

وتعتبر مقرنصات شرفة جامع الخلفاء من أبرز عناصرها المعمارية، وهي متقدمة جداً من حيث تركيبها وتكوينها، إذا ما قورنت بمقرنصات مآذن جوامع بغداد الثلاثة السابقة.

---

(1) جواد وسوسة، المصدر السابق، ص 124.

(2) الجنابي، كاظم، منارة سوق الغزل، دار الجمهورية، بغداد، 1966، ص 2.

ومما لوحظ على حشوات الزخارف الهندسية التي تزين المئذنة أنها تبرز عن مستوى الأرضية، أما العناصر النباتية فهي بمستوى الزخارف المفرغة. والحقيقة أن هذه الأشكال وتقنيتها منقولة من زخارف المدرسة المستنصرية والمدرسة الشرابية.

الجامع النوري في الموصل

بعد وفاة الملك عماد الدين زنكي خلفه ولداه نور الدين محمود وسيف الدين غازي، وبعد وفاة سيف الدين جاء إلى الموصل نور الدين عام 566هـ/1170م وأقام خلال مدة حكمة عدة أبنية أشهرها الجامع الكبير المعروف باسمه الجامع النوري. يقع هذا الجامع في مركز مدينة الموصل في الجانب الغربي من دجلة في محلة تعرف باسمه بالجامع النوري أو (الجامع الكبير)، لسعته وعظمة مبانيه، ويعتبر هذا الجامع ومنارته المعروفة بمنارة الحدباء من أشهر المعالم الإسلامية الشاخصة اليوم في هذه المدينة. أمر ببنائه الملك الأتابكي نور الدين محمود زنكي مؤسس الدولة الزنكية، وكان ذلك على عهد الخليفة العباسي المستضيئ بالله[1]، حيث شهدت الموصل خلاله نهضة عمرانية واسعة، وقد عد هذا الجامع في مقدمة الآثار الإسلامية النفيسة، إذ حافظ على قدمه[2] قدر المستطاع، وبقيت منارته المعروفة بالطويلة أو بالحدباء (شكل رقم 15).

بوشر ببناء الجامع سنة 566هـ واكتمل عام 568هـ/1173م[3]، وشيدت فيه مدرسة لتلقي العلم فيها، وتم إنجازها في سنة 568هـ/1172م. وبعد الغزو المغولي أهمل هذا الجامع، وظل كذلك إلى أن شمل بأعمال الترميم والتجديد في بعض أقسامه، وذلك في القرن التاسع للهجرة، ثم تواصلت أعمال الصيانة والإعمار فيه خاصة بعد أن تولت وزارة الأوقاف شؤونه، فقامت بتجديد عمارته، كما قامت الهيئة العامة للآثار مؤخراً بتنفيذ مشروع ترسيخ منارته والحفاظ عليها وعلى طابعها وإنقاذها من الانهيار. تشغل أبنية الجامع قطعة أرض تقدر مساحتها بـ: 5850متراً مربعاً. يتألف المبنى من مصلى مستطيل الشكل قياسه 20x7,15م،

---

(1) الصائغ، سليمان، تاريخ الموصل، المطبعة السلفية، القاهرة، 1963.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص 129.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 136.

ويتألف المصلى من أربعة أساكيب واثنتي عشرة بلاطة، ويقوم سقفه على دعامات ضخمة تحمل عقوداً مدببة موازية لجدار القبلة، وفصل الأسكوب الرابع المطل على الصحن باثنتي عشرة بائكة، يستند سقف هذا الأسكوب على أعمدة أسطوانية رشيقة. ومما يلفت النظر أن تخطيط الجامع لا يحتوي على مجنبة ومؤخرة تطل على الفناء، وهذا التخطيط جديد نراه لأول مرة في بناء الجامع النوري، أما فيما يتعلق بتخطيط بناء بيت الصلاة والرواق القائم أمام المصلى، فيعتقد أن الظروف المناخية كان لها دور رئيس في إحداث هذا التطور في التخطيط.

ومن آثاره الجميلة الممرات المزينة بزخارف وكتابات جميلة، وتظهر آثار تقليد الفنانين لزخارف هذا الجامع في المحاريب التي أنشئت بعد هذا التاريخ. ومن آثاره أيضاً الواجهة الجصية التي كانت قائمة فوق محراب مزخرف، وعند تجديد بناء الجامع عام 1944 نقلت هذه الواجهة الفنية بالزخارف والكتابات الثابتة (الأرابيسك) إلى المتحف العراقي.

كما اشتهر هذا المصلى بقبته المزدوجة الداخلية منها نصف كروية تقوم على رقبة أسطوانية، تعلوها قبة مخروطية ذات 16ضلعاً، وهذه القبة لها ما يماثلها في بناء مساجد الموصل وأضرحتها.

إن الجامع القديم كان أكبر حجماً مما هو عليه اليوم، إلا أن أعمال الترميم والتجديد قلصت هذه المساحة. يشتمل الجامع على صحن فسيح أقيم فيه محراب في المصلى الصيفي، صنع هذا المحراب من الرخام الأزرق، ويعتبر هذا المحراب قطعة فنية نادرة، حيث بالغ النحات كثيراً في زخرفته بزخارف هندسية ونباتية وكتابات دونت بخط النسخ، وقد نقل هذا المحراب للمتحف العراقي بعد أعمال الترميم التي قامت بها وزارة الأوقاف وبالتعاون مع الهيئة العامة للآثار لهذا المبنى. أما المحراب الحالي في المصلى، فقد نقل إليه من الجامع الأموي، وهو معمول من الرخام الأزرق. ويعتبر هذا المحراب من أبرز وأبدع المحاريب الموجودة الآن في الموصل، لدقة تنفيذ الزخارف النباتية والهندسية البارزة. والكتابات بعضها آيات من القران الكريم، والبعض الآخر يشير إلى تاريخ صنعه، وهو سنة 543هـ[1].

---

(1) د. عيسى، العمارات العربية الإسلامية، ص 159.

من أبرز معالم هذا الجامع منارته الشهيرة بالحدباء، يبلغ ارتفاعها نحو 55 متراً، وهي من المآذن الجميلة المميزة بخصائص عمارية وأساليب فنية غنية بالزخارف الآجرية المتنوعة. تتكون هذه المئذنة من قاعدة مكعبة نصف هرمية ارتفاعها (65,8م)، وهي تتألف من جزءين، الأول مبني بالحجر والجص يبلغ ارتفاعه (8,80م)، أما الجزء الثاني العلوي، فهو مشيد بالآجر واجهته مزدانة بتشكيلة زخرفية رائعة، ارتفاعه (7م). يقوم فوق هذه القاعدة بدن أسطواني يبلغ ارتفاعه (19,20م)، ويتألف هذا البدن من سبع وحدات نباتية مزدانة بزخارف آجرية فاخرة متنوعة الأشكال.

للمنارة مدخلان يصل كل منهما بواسطة درج إلى الأعلى، وقد تفنن المعمار في تصميم بناء السلم، فجعل سلمين في باطن المنارة كل منهما منفصل عن الآخر، يلتقيان عند منطقة الحصن في الأعلى، فالصاعد إلى الأعلى لا يرى النازل إلى الأسفل. وهذا النوع من السلالم وجدناه في بناء منارة سوق الغزل في بغداد التي لا تزال قائمة، وهذا التطور الفريد في مئذنة الجامع النوري بالموصل انتقل تأثيره إلى المئذنة المظفرية في أربيل (586-630هـ/1190-1232م)[1]. وفي مجال تخطيط المساجد وجدنا حدوث تطورات في تخطيط جوامع الموصل خلال القرن السادس الهجري، وليس كما كان عليه الحال في الجوامع والمساجد التي بنيت خلال القرون الثلاثة الأولى التي كانت تتكون من فناء وسطي تحيط بالمصلى مجنبة ومؤخرة، إذ نجد خلو الجامع النوري من المجنبة والمؤخرة، وأصبح بيت الصلاة يتألف من قسمين، قسم أمامي يطل على الصحن باثنتي عشرة بائكة ذات عقود مدببة ترتكز على أعمدة، وقسم آخر خلفي مغلق إلى الداخل يمثل المصلى الشتوي، وقد فصل بينهما جدار يتوسط مدخلاً يؤدي إلى بيت الصلاة. وهذا النوع من التخطيط نجده لأول مرة في الجامع النوري، مما يدل على التطور في تخطيط بناء الجامع. وربما يعود السبب في هذا التطور إلى الظروف المناخية التي تسود المدينة، فجامع النوري جديد في تخطيطه وشكله وتصميمه وروعة التشكيلات الزخرفية التي نقشت في محرابه وجدران بيت الصلاة، وهي الآن معروضة في القاعة الإسلامية في المتحف العراقي.

---

(1) الجمعة، أحمد قاسم، "دور الموصل المعماري في إغناء التراث العربي العالمي الإسلامي"، مبحث نشر في موسوعة الموصل، ج 2، ص 137.

المبحث الثاني

جوامع بغداد خلال الحكم العثماني

جامع المرادية : وهو يمثل الطراز المعماري الأول

يعرف جامع المرادية بجامع الميدان لوقوعه في محلة الميدان القائمة في باب المعظم مقابل مبنى وزارة الدفاع، أمر بإنشاء هذا الجامع الوالي مراد باشا سنة (978هـ/1571م)(1) الذي قام بأعمال عمرانية كثيرة.

لا تشير المصادر التاريخية إلى تاريخ البدء في بناء الجامع، كما أننا لم نعثر على كتابات منقوشة على جدران المبنى تذكر لنا تاريخ البدء في البناء(2)، إلا أن الشاعر فضلي بن الشاعر فضولي ذكر لنا تاريخ البناء بأبياته الشعرية التي أنشدها في حفلة افتتاح المبنى، وذلك سنة 978هـ/1570م. وأشار الألوسي إلى أن هذه الأبيات دونت على واجهة باب مبنى الجامع بخط الخطاط حسن علي الكاشاني، ولما جددت عمارته أتلفت هذه النصوص. وهذه الأبيات تؤيد ما ذكر بأن تاريخ الانتهاء من البناء كان سنة 978هـ/1570م، وهذا ما تؤيده النصوص التاريخية التي أشار إليها الرحالة ومنهم أوليا جلبي.

وقد مرّ على بناء الجامع أحداث كثيرة، منها صيانة المبنى عام 1307هـ/1889م من قبل الحاج حسن رفيق باشا(3)، وفي عهد الوالي نامق باشا جدد بناء الجامع. ونتيجة للدمار والخراب الذي أصاب الجامع أصدر السلطان عبد الحميد خان الثاني بن السلطان عبد المجيد أمره بإعادة بناء الجامع على أسسه القديمة، وكان ذلك سنة 1319هـ/1901م، واستمر العمل فيه حتى سنة

---

(1) كوك، ريجارد، بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، مطبعة شفيق، 1967، ج 1، ص 144.

(2) القصيري، د. اعتماد، مساجد بغداد خلال العهد العثماني، ج 1، ص 245.

(3) ابن حبيب الشاوي، محمود ابن سلطان، مخطوط ولاة بغداد، رقمه في دار المخطوطات : 10657، ص 79.

1320هـ/1902م كما هو مدون على واجهة مدخل الجامع. وهذه الكتابة تمثل أبياتاً من الشعر أنشدها الشاعر عبد القادر البغدادي في ذكرى الانتهاء من بناء الجامع، وفي آخر الأبيات دونت سنة (1321هـ/1903م).

الوصف المعماري للمبنى:

يعتبر جامع المرادية من أجمل وأشهر الجوامع التي أقيمت في تلك المرحلة التاريخي، ويعده الألوسي مفخرة لبغداد. ونظراً لجمال زخارفه، فهو يعتبر أحد عجائبها من حيث متانة البناء وارتفاعه. وهو جامع كبير يشغل مساحة مقدارها 1899 متراً مربعاً، يتألف من بيت الصلاة الذي يحتل قطعة من الأرض مستطيلة الشكل قياسها 10/51/40م. ويشتمل المصلى على أربعة أعمدة رخامية، قسمت بيت الصلاة إلى ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة، أوسعها البلاطة الوسطى التي بلغ عرضها 10م، في حين بلغ عرض البلاطة الجانبية 4م. يعلو هذه الأعمدة تيجان ذات شكل مخروطي ناقص، وهذا النوع من التيجان يعد من مميزات عمارة مساجد بغداد التي بنيت في تلك الحقبة، إذ نجدها في بناء جامع سيد سلطان علي، وجامع الخاصكي، وفوق هذه الأعمدة الأربعة تقوم ستة عقود مدببة قائمة بصورة عمودية على جدار القبلة. ولكي يتمكن المعمار من تحوير الجزء العلوي من المربع إلى مثمن لإقامة القبة، أقام عقداً آخرَ في الزوايا الأربع لبلاطة المحراب. تحصر هذه العقود بين أكتافها مثلثات كروية، وقد قسمت هذه المثلثات إلى صفوف من المقرنصات ذات مستويات مختلفة، يتوج كل مثلث من هذه المثلثات أنصاف المقرنص. ونتج عن إقامة هذه المثلثات تحويل الجزء العلوي المربع لبلاطة المحراب إلى مدور لإقامة الرقبة التي ترتكز عليها القبة. هذا فيما يتعلق بعقود ومراحل انتقال بلاطة المحراب، أما البلاطة الجانبية، فقد احتوت على صفين من العقود المدببة، قسمت البلاطة إلى ثلاثة أقسام مربعة، وأقيمت بين هذه العقود مثلثات كروية، قسمت إلى عدة صفوف من المقرنصات على غرار مقرنصات مثلثات بلاطة المحراب، وقد اختلفت أحجامها وعددها باختلاف حجم المسافة التي تقوم فيها القبة والمقرنصات.

التقبية:

لا شك أن تغطية بيت الصلاة في جامع المرادية تعد من أبرز الأمور العلمية التي نجح فيها المعمار إلى درجة كبيرة، إذ استخدم سبع قباب مختلفة الأحجام، أكبرها القبة الوسطى القائمة فوق بلاطة المحراب، سعتها عشرة أمتار، وارتفاعها 10.5متراً. وقد امتازت قبة بلاطة المحراب بكبر حجمها وشكلها النصف

كروي. والقبة نصف الكروية كانت معروفة في العمارة العراقية، إلا أنها تطورت خلال الحقبة التي تتحدث عنها، وذلك لاتساع القاعة الوسطى التي تتوسط المصلى. هذا فيما يتعلق بقبة بلاطة المحراب، أما البلاطة الجانبية، فقد نجح المعمار في تسقيف البلاطتين الجانبيتين لبلاطة المحراب، وذلك بإقامة ست قباب صغيرة من نوع القباب نصف الكروية، ثلاث فوق كل بلاطة، أكبرها القبة الوسطى، وكل قبة من هذه القباب تقوم على مثلثات قائمة بين أكتاف العقود كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ازدانت هذه المثلثات القائمة بين أكتاف العقود بأنها ذات مستويات مختلفة متوجة بأنصاف المقرنص يحيط بالقبة، مما جعل حافة محيطها مسننة الشكل تشبه تسنن حافة الصينية، ونتيجة لهذا التشابه فقد سميت بالقبة الصينية.

يحيط بيت الصلاة جدران سميكة عرضها 2.20م فتحت فيها نوافذ، بعضها أقيم في الجزء السفلي، وبعضها الآخر أقيم في الجزء العلوي لغرض الإنارة والتهوية. يتوسط جدار القبلة محراب مضلع ذو قطاع مخمس ينحرف عن اتجاه القبلة بمقدار أربع درجات، ومن المعتاد أن ينحرف المحراب في مساجد بغداد 17 درجة إلى الجنوب الغربي، وفيما يتعلق بتخطيطه نرى تخطيط محاريب مساجد بغداد في تلك الفترة تنقسم إلى نوعين من المحاريب المجوفة :

تجويف ذو قطاع مخمس، منها محراب الجامع الذي نحن بصدد الحديث عنه، ومحراب جامع الحيدر خانة، والأحمدي. وإلى يمين المحراب في جامع المرادية يقوم المنبر، وهو ملتصق بجدار القبلة، وقد استخدم في بنائه الآجر والجص، وغلف بألواح من الرخام. ومما لوحظ أن معظم منابر مساجد بغداد بنيت من الآجر، وغلفت ببلاطات خزفية فيما عدا منبر جامع الحيدر خانة الذي استخدم الرخام في تغليفه. وفي جدار مؤخرة بيت الصلاة باب يؤدي إلى سلالم قائمة في سمك الجدار توصلنا إلى المحفل، وهو عبارة عن شرفة تقوم فوق دهليز المدخل، وأحياناً تبرز عنه. يطل المحفل على بلاطة المحراب بسور من خشب الخرط، أما سقفه فقد اتبع المعمار طريقة جديدة لم تكن معروفة من قبل، إذ استخدم المعمار قبة صغيرة وعلى جانبها تقوم نصف قبة ترتكز على مثلثات كروية قائمة في الأركان.

الرواق :

يؤدي الدهليز الذي يتوسط جدار مؤخرة بيت الصلاة إلى باب يقوم على جانبيه الأيمن والأيسر بابان آخران. هذه الأبواب الثلاثة تطل على الرواق القائم

أمام المصلى. ولهذا الرواق فائدة معمارية، إذ يحمي المصلى من الظروف الجوية من جهة، ومن جهة أخرى يستخدم للصلاة فيه عندما يضيق بيت الصلاة بالمصلين. ويلاحظ احتواء الرواق في كل مساجد بغداد على محراب مجوف. والرواق عبارة عن مبنى مستطيل الشكل قياسه 4x25م وارتفاعه بارتفاع مبنى بيت الصلاة، واتبع في تسقيفه نفس الأسلوب المتبع في تسقيف البلاطة الجانبية القائمة في بيت الصلاة، حيث أقيمت خمس قباب أكبرها القبة الوسطى التي تقوم أمام الباب الأوسط للمصلى. ومما يلفت النظر في بناء الرواق هو أنه يطل على الفناء بثلاث فتحات واسعة وعميقة متوجة بعقود مدببة، واستخدم القبو في تسقيف الفتحة الجانبية، ونصف قبة مضلعة في تسقيف الفتحة التي تتوسط الواجهة.

إن هذا الطراز العماري لم يسبق مشاهدته من قبل في بناء مساجد بغداد، وبذلك يمكن القول إن جامع المرادية استخدم في بنائه هذا الطراز الجديد لكي يضفي على واجهة الرواق نوعاً من الأبهة والعظمة، ومن ثم نرى هذا الطراز شاع في بناء مساجد بغداد التي بنيت من قبل الولاة.

ومن المميزات العمارية للجامع، احتواء الجامع على مئذنة تقوم في الركن الشمالي الغربي من جدار الرواق المطل على فناء الجامع تقوم في سمك الجدار، وهي تشبه مآذن بغداد التي أقيمت خلال العصر العباسي، أي أن المئذنة البغدادية احتفظت بطرازها الخاص بها دون التأثر بطراز المآذن العثمانية التي تتكون من بدن أسطواني ينتهي بشرفة واحدة أو أكثر، أما قمة المئذنة، فهي ذات شكل مخروطي مدبب مكسوة بالرصاص. هذا الطراز شاع في معظم أقطار العالم الإسلامي والعربي فيما عدا العراق.

لقد امتازت مئذنة المرادية دون غيرها من مآذن بغداد بكساء بدنها الأسطواني ببلاطات خزفية ملونة ذات ألوان زاهية ازدانت بأشكال مختلفة تمثل زهريات وسلالاً تخرج منها باقات من الأغصان والأزهار (ورد الجوري). وقد تصدعت جدران هذه المئذنة أثر الحرب على العراق عام 1990، ولما أعيد بناء المئذنة بنيت بطراز مختلف عن طرازها الأول.

المدرسة :

كما قلنا سابقاً، يطل الرواق على فناء واسع يحيط به مجنبات. احتوت هذه المجنبات على مجموعة من الغرف والقاعات، ودورات المياه، ومحل للوضوء، وفي

أرضية هذه المباني سابقاً كانت تقوم مدرسة الجامع[1] التي خصصت لتدريس العلوم العقلية والفقهية. واستناداً إلى المصادر التاريخية، فقد بقيت هذه المدرسة قائمة فترة طويلة، وأن آخر من درس فيها العالم قاسم القيسي مفتي بغداد[2]، وهذه المدرسة هدمت مع بعض المباني الأخرى.

إن فكرة إقامة المدارس ضمن بناء الجامع جاءت نتيجة حتمية لكثرة بناء المساجد والجوامع في المدينة الواحدة. ولم تبق الحاجة إلى بناء مساجد كبرى، فصغرت مساحتها وأدخلت فيها المدارس، فأصبح الغرض من بناء المسجد مزدوجاً ؛ لأداء فريضة الصلاة والتعليم في آن واحد. ومن بين المساجد التي احتوت على مدرسة، جامع الوزير الخاصكي، والأحمدي، والحيدرخانه الذي احتوى على مدرستين هما المدرسة الداودية ومدرسة الحيدرخانه، وجامع الأصفية الذي احتوى هو الآخر على مدرستين أيضاً[3].

ومدرسة جامع المرادية التي نحن بصدد الحديث عنها أزيلت في فترة متأخرة، وذلك عند توسيع الشارع العام المؤدي إلى شارع الرشيد، وهذا أدى أيضاً إلى إزالة الباب الخارجي للجامع القائم قبالة مبنى وزارة الدفاع، فاستحدث باب حديث البناء.

وللجامع باب آخر أقيم في المجنبة الشرقية بني على غرار الباب سالف الذكر، وكسيت الواجهة العليا منه ببلاطات خزفية، ودون عليها أبيات من الشعر بخط الثلث تشير إلى تاريخ إعادة بناء الجامع من قبل السلطان عبد الحميد سنة (1901م)، ودون اسم السلطان عبد الحميد بخط الطغراء.

جامع الأحمدية : وهو يمثل الطراز المعماري الثاني

يتمثل هذا الطراز في بناء جامع الأحمدي وجامع الحيدرخانه الذي بناه الوالي داود باشا سنة (1242هـ/1826م)، ولما كان وجه الشبه كبيراً بينهما من حيث التخطيط الأرضي والعناصر العمارية، فقد اقتصر حديثنا على جامع الأحمدي.

---

(1) الألوسي، سالم، مخطوط أخبار بغداد وما جاورها من البلاد، رقمه في سجل دار المخطوطات 155، ج 1، ص 14.

(2) عبادة، عبد الحميد بن بكر، مخطوط العقد اللامع في ذكر بعض الآثار والمساجد والجوامع، رقمه في دار المخطوطات 2670، ص 41.

(3) المصدر السابق، ص 42.

عرف بجامع الميدان لأنه يطل على ساحة الميدان، ولوقوعه في محل الميدان، وهي من محلات مدينة بغداد القديمة، كما عرف بجامع الأحمدي نسبة إلى بانيه أحمد باشا كتخدا سليمان باشا الكبير الذي حكم العراق ما بين سنة (-1227 1193هـ). أمر أحمد باشا بإنشاء هذا الجامع عام (1210هـ/1795م)، ولم يكتمل البناء في عهده، وأكمله من بعده أخوه عبد الله آغا[1]. وقد مرت على المبنى أحداث كثيرة منها، قيام الوالي داود باشا بتجديد الكتابات والنقوش القائمة على واجهة المبنى سنة 1247هـ/1831م[2]. وفي عهد الوالي مدحت باشا هدمت غرف المدرسة وأضيفت أرضيتها إلى الشارع العام، كما جدد بناء بيت الصلاة سنة (137هـ/1893م) استناداً إلى كتابة مدونة على رقبة قبة بلاط المحراب، وفي العهد الملكي أمر الملك فيصل الأول أن يخصص هذا الجامع لصلاة الجمعة فقط[3] (شكل رقم 16).

يقوم مبنى الجامع على قطعة من الأرض مستطيلة الشكل تقدر مساحتها بـ (3344م)، تحتوي على بيت للصلاة مساحته 240م، أقيمت فيه أربع دعائم ضخمة، وضعت هذه الدعائم بحيث تشكل ثلاث بلاطات، أوسعها البلاطة الوسطى (القاعة الوسطى) بلغ عرضها 11م وعرض البلاطة الجانبية 3.7م، وبلغ ارتفاع هذه الدعامات من مستوى أرضية المصلى إلى أرضية المحفل المحيط ببلاطة المحراب أربعة أمتار، وتستمر هذه الدعائم في الارتفاع من فوق أرضية المحفل، وقد جعلت هذه الدعائم ضخمة لكي تقدر على تحمل القبة الضخمة التي ترتكز عليها. تعتبر هذه الدعائم أول مثال من نوعه في عمارة مساجد بغداد خلال هذه المرحلة التاريخية التي نتحدث عنها، إذ لم يسبق أن شاهدناها من قبل، إلا أن هذه الدعائم أوجدتها الضرورة العمارية نتيجة التطورات التي حدثت على تخطيط وعمارة مساجد بغداد، والتي سبق الحديث عنها عند شرح تخطيط جامع المرادية. هذه الدعائم تشبه دعائم جامع الحيدرخانه، وقد أدت إضافة هذه الدعائم إلى حدوث ممرات بينها، أقيم فوقها المحفل المحيط ببلاطة المحراب، وارتكزت على الدعائم عقود مدببة ربطت بين الدعائم وبين جدران بيت الصلاة، أقيم بعضها بشكل عمودي على جدار القبلة وبعضها الآخر موازياً له. ولإحداث التناظر والتناسق في البناء

---

(1) الألوسي، محمود شكري، مخطوط مختصر في ذكر تواريخ مساجد بغداد، رقمه في دار المخطوطات 30384، ج 3، ص 18.

(2) ملف جامع الأحمدي، محفوظ في ديوان وزارة الأوقاف رقمه 15.

(3) مخطوط العقد اللامع، ص 59.

جعل كل عقدين متقابلين متشابهين في الشكل والحجم. وفي مراحل انتقال القباب لوحظ استخدام طريقة: المثلثات الكروية في بناء مراحل انتقال قباب البلاطة الجانبية على غرار بناء سقف البلاطة الجانبية والرواق في جامع المرادية السالف الذكر.

أقيمت هذه الحنية في الأركان الأربعة لبلاطة المحراب (شكل رقم 17). تطل عقود هذه الحنايا على بلاطة المحراب بعقد مدبب على غرار العقود الأخرى القائمة فيها، ويعتبر هذا الأسلوب من البناء فريداً من نوعه في عمارة مساجد بغداد، وجعلت هذه الحنية باطنها خالية من الزخارف في جامع الأحمدي، في حين ازدان باطنها بصفوف من المقرنصات في بناء حنية جامع الحيدر خانة، وقد حصرت عقود هذه الحنايا والعقود الأخرى التي تقوم في بلاطة المحراب مثلثات ازدانت بصفوف من المقرنصات ذات مستويات مختلفة، وبواسطة هذه المثلثات تمكن المعمار من تحويل الجزء العلوي من بلاطة المحراب إلى مدور لإقامة رقبة القبة.

امتازت رقبة القبة بطولها، وقد قسمت إلى ثلاثة أشرطة، الأوسط منها فتحت فيه نوافذ، بعضها نافذة وبعضها غير نافذة توجت بعقود محلات، وهي بهذا اختلفت عن رقبة قبة جامع المرادية القصيرة. وترتكز فوق الرقبة قبة من نوع القباب المزدوجة، جعلت القبة الداخلية منخفضة ذات شكل نصف كروي، في حين جعلت القبة الداخلية ذات شكل بصلي، وقد امتازت هذه الأخيرة بالضخامة.

ومثلما أبدع المعمار في تغطية بلاطة المحراب بهذه القبة الضخمة، كذلك نجح في تسقيف البلاطتين المجاورتين لبلاطة المحراب بالقباب على غرار جامع المرادية، والاختلاف الوحيد بينهما هو أن القبة الوسطى احتوت على قبة بصلية ترتكز على رقبة أسطوانية قصيرة فتحت فيها نوافذ لغرض التهوية والإنارة، واحتوى المصلى على طابق ثان من البناء يعرف بالمحفل يمكن الوصول إليه من باب أقيم إلى يسار الداخل إلى المصلى، ويؤدي هذا الباب إلى سلالم قائمة في سمك جدار مؤخرة المصلى. يقوم هذا المحفل فوق جدار مؤخرة بيت الصلاة على شكل شرفة تبرز عن الجدار بمقدار المتر، وترتكز هذه الشرفة على ثلاثة صفوف من المقرنصات تطل على البلاطة بشرفة، وقد ارتبط هذا الجزء من المحفل مع الأجزاء الأخرى القائمة على جانبي بلاطة المحراب بمداخل قائمة في جسم الدعائم الأربعة، ويطل المحفل على المصلى بسور من الحديد. ومما يجذب الانتباه هو أن محفل جامع الأحمدي يحيط ببلاطة المحراب من الجهات الثلاث، وهذا النوع من المحافل

لم نعهده من قبل في مساجد بغداد وما وصلنا منها يقوم فقط في مؤخرة المصلى على غرار محفل جامع المرادية وجامع الخفافين وجامع قمرية من العصر العباسي.

إن محفل جامع الأحمدي يمثل صورة طبق الأصل من محفل جامع الحيدرخانة الذي احتفظ بجميع عناصره المعمارية، في حين ألغي بناء المحفل الجانبي في جامع الأحمدي.

وتطلبت العناصر المعمارية القائمة في بيت الصلاة، والتي سبق الحديث عنها، كالقبة الضخمة المزدوجة القائمة في بلاطة المحراب، والقباب الجانبية، وإقامة المحفل، وإقامة جدران سميكة تقدر على تحمل الثقل الواقع عليها، هذا من جهة، من وجهة أخرى، مراعاة الظروف المناخية لمدينة بغداد، لذا جعل سمك الجدران 2.5 متراً على غرار جدران جامع الحيدرخانة. كسيت جدران المصلى من الداخل، وعلى ارتفاع مترٍ من مستوى أرضية المصلى، بألواح رخامية، ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف أقيم داخل حنية مجوفة مضلعة تنحرف عن اتجاه القبلة بمقدار ثماني درجات فقط، قطاع تجويفه مخمس على غرار محراب جامع المرادية، ويتوج حنيته نصف قبة مضلعة تطل على المصلى بعقد مبروم. وكسيت واجهة العقد وباطنه ببلاطات خزفية ذات ألوان زاهية ازدانت بكتابات وزخارف نباتية، وإلى يسار المحراب أقيم المنبر، وهو يقوم على قاعدة مستطيلة الشكل تلتصق بجدار القبلة، وقد كسيت جدرانه بألواح من الرخام أزيلت مؤخراً واستبدلت بالآجر الجمهوري.

فتحت في جدران المصلى 24 نافذة موزعة على جدران المصلى، بعضها في الجزء السفلي وبعضها الآخر في الجزء العلوي منها، وزعت على الجدران بصورة متناظرة، هذا بالإضافة إلى النوافذ التي أقيمت في رقاب القباب. وتدل الصورة القديمة المحفوظة في أرشيف شعبة التصوير في الهيئة العامة للآثار على وجود ستائر خشبية (قمريات) ذات عقود مدببة تزدان بزخارف هندسية مفرغة على شكل أطباق نجمية نفذت بدقة متناهية، مما يدل على مدى المهارة الفنية التي يتمتع بها الفنان.

أما أبواب المصلى فقد فتحت في جدار مؤخرة بيت الصلاة وعددها ثلاثة، أوسعها الأوسط. بنيت على غرار جامع المرادي، وجامع الوزير، وجامع الحيدرخانه. تطل هذه الأبواب على الرواق القائم أمام المصلى، ويتوج الباب

الأوسط بعقد مقصوص جعل فصه العلوي موتوراً. يرتكز العقد على عضادتين من الرخام، وعلى جانبي الباب (نواصي) أقيم عمودان من نوع الأعمدة الحلزونية مصنوعة من قطعة واحدة من الرخام، ويتوج كل عمود بتاج مقرنص.

إن ظاهرة استخدام العقد المقصوص المصنوع من قطعة واحدة من الرخام وجدناه في بناء مدخل بيت الصلاة في جامع الحيدر خانة، وجامع الأحمدية، على غرار جامع المرادية، والوزير والخاصكي، والحيدر خانه. ويطل هذا الباب بهذه الواجهة على رواق أقيم أمام واجهة المصلى اتبع في تسقيفه نفس الأسلوب المتبع في تسقيف رواق الجامع المرادي والحيدر خانة، كما يطل الرواق على الفناء بثلاثة أواوين ضخمة، نافذة أكبرها الأوسط توجت بعقد مدبب مزدوج تم تسقيفه بنصف قبة مضلعة على غرار قبة جامع المرادية، واستخدمت قباب مثمنة في تسقيف الإيوان الجانبي. وعلى جانبي الإيوان تقوم دخلة غير نافذة، وبجوار كل منها إيوان، فالإيوان القائم إلى يسار الداخل إلى الرواق أقيمت فيه قبة ضريح عبد الله آغا مكمل بناء الجامع.

وفي الجانب الآخر من الإيوان، وفي سمك الجدار، تقوم مئذنة الجامع، وهي تختلف في الطراز العماري عن مئذنة جامع المرادي التي كسيت جدرانها ببلاطات خزفية، إلا أنها اختلفت عنها في الزخارف. وتعتبر مئذنة الأحمدي أطول المآذن البغدادية التي وصلت إلينا، وقد اختلفت عن مئذنة جامع المرادي، والوزير، والحيدرخانة، من حيث الطراز الزخرفي والنصوص الخطية المدونة عليها.

وفيما يتعلق بواجهات المصلى المطلة على الفناء، تطل الواجهة الشرقية الغربية منها بخمس دخلات متوجة بعقود مدببة على غرار واجهات مبنى جامع الحيدر خانة، ولهذه الدخلات وظيفة عمارية، إذ أنها تحجب دخول مياه الأمطار إلى بيت الصلاة، أما الوظيفة الثانية فهي زخرفية، هذا إلى جانب ما تحدثه هذه الدخلات من ظلال وانعكاس الضوء على الواجهة. تطل الواجهة الغربية لبيت الصلاة على المصلى الصيفي. إن ظاهرة إقامة المصلى الصيفي شاعت في بناء معظم مساجد بغداد التي بنيت في تلك الحقبة الزمنية، نذكر منها جامع المرادي، الوزير، الخاصكي، الأحمدي، الحيدر خانه. أما تلك التي تم ترميمها وإعادة بنائها، فنذكر منها جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني.

ومن ملحقات بناء الجامع المدرسة التي أقيمت في مجنبات الفناء الذي يطل عليه الرواق. وتؤكد لنا معظم المراجع أن المدرسة من إنشاء أحمد باشا، وليست من

الأبنية الملحقة بالمبنى[1]، وقد وصف لنا الألوسي هذه المدرسة بقوله : في جنوب المصلى من الجهة الجنوبية مدرسة بديعة الوضع، وهي ذات طابقين ؛ طابق علوي، وفيه غرف للمدرسة وأخرى للطلبة، ثم خزانة لكتبها التي اشتملت على كل فن. أما الطابق السفلي، فقد احتوى على حجرات يسكنها الفقراء والغرباء وطلاب العلم. ودرس في هذه المدرسة علماء أكفاء، وتخرج منها علماء فضلاء، ولها شهرة في تخرج الطلبة، وآخر من درس فيها محمود الوتري. ونتيجة لإهمال المبنى وعدم العناية به، فقد تهدمت معظم مواقعها. وكان هذا عام 1972[2]، مما أدى إلى اتساع مساحة الفناء الذي يطل عليه بيت الصلاة. وقد أحيط فناء الجامع، بما فيه المباني القائمة، بسور سمكه نصف متر وارتفاعه خمسة أمتار، وجميع هذه الأسوار تمثل الجدران الأولى التي أقيمت عند إنشاء الجامع، وقد فتحت فيها أبواب كبيرة الحجم بلغ عددها ثلاثة، أحدها يتوسط الضلع الجنوبي، والآخر الضلع الشمالي، والثالث في الضلع الغربي. وكل باب يقوم داخل دهليز مقبى. وقد تهدمت الواجهة الأصلية لهذه المداخل وأعيد بناءها من جديد في الآونة الأخيرة، نخص منها بالذكر واجهة المدخل المطل على مبنى وزارة الدفاع الذي بني سنة 1390[3].

(1) الألوسي، المصدر السابق، ص 6.

(2) العقد اللامع، ص 9.

(3) الديوة جي، جوامع الموصل، ص 163.

الفصل الثالث

المراقد والمشاهد والأضرحة

المبحث الأول

التربة ـ الضريح ـ المشهد

دعيت الأبنية المشيدة على قبور مشاهير الأمة وقاداتها في أمورها الدينية والدنيوية بأسماء مختلفة، كالمقامات، والمشاهد، والترب، والقباب، والروضات، والمراقد. وقد حاولنا إعطاء تعريف مختصر بهذه التسميات المتعددة منها.

المرقد

في اللغة تعني المضجع، أي محل النوم. ولما كان النوم أخا الموت جعل المرقد استعارة عن مضجع الميت[1]، قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ﴾[2] ؛ فالمرقد اسم من أسماء القبر يدل عليه، كما سميت بعضها بالمشهد.

المقام

المقام لغة، الموضع الذي تقيم فيه، وقيل المقام موضع قدم القائم ، والمقام بالضم مصدر قمت بالمكان مقاماً وإقامة. ومقام إبراهيم هو مسجد الحجر الذي فيه أثر قدميه، في اللغة[3].

والمقامات كثيرة، منها مقامات الأنبياء التي أقيمت على الأخص في مدينة الموصل، منها مقام إبراهيم، والإمام علي (ع). وفي العراق مقامات الإمام علي كثيرة، ويعزى ذلك إلى كثرة تنقله في العراق من مكان إلى آخر بسبب الحروب التي خاضها إبان خلافته، وشملت المقامات أبناءه أيضاً[4].

---

(1) الطبري، تفسير الطبري، ج 3، ص 35.

(2) سورة الجن، الآية 52.

(3) أبو حيان، أثير الدين محمد، التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط، مطبعة السعادة، 1940، ج 7، الهروي، علي بن أبي بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات، نشر معهد الدراسات العليا، دمشق، 1953، ص 7.

(4) ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 303.

أما الروضات أو المراقد فمما لاشك فيه، أن بعض هذه النعوت تشير إلى إحدى سمات المبنى المميزة ؛ فمثلاً دعيت بعضها بالقبة نسبة إلى قبة البناء التي ميزت هذه الأبنية في البداية[1].

إن هذا النوع من الأبنية قد ابتدأ في العصر العباسي الأول قبل بناء سامراء، إذ وردت إشارات تاريخية تشير إلى إقامة قباب فوق قبور سيدات فاضلات وخلفاء، وسميت تلك الهياكل بالقباب، وقد تهدمت معظم القباب التي أشار إليها المؤرخون ولم يصل إلينا منها سوى القبة المعروفة اليوم بالقبة الصليبية.

إن معظم القباب لم تتعرض للهدم المقصود إلا في حالات نادرة، كما حظيت بعناية وقدسية عند المسلمين، وغالباً ما يلحق بها مساجد أو مدارس، خصوصاً إذا استشهد مدرس المسجد أو عالم مدرسة حيث يدفن فيها، ويبنى على قبره قبة أو ضريح.

القبة

إن أقدم قبة تعود لضريح عرفناه لحد الآن هي القبة الصليبية في سامراء. تتبوأ هذه القبة مكانة مهمة وخاصة، ليس بين مشاهد العراق فحسب، بل بين مشاهد العالم الإسلامي أجمع. وتنبع هذه المكانة من كون القبة الصليبية هي أقدم المشاهد الشاخصة إلى الآن، وأن تخطيطها وتصميمها جديدان تماماً. وقد ساد وانتشر هذا النمط من التخطيط والتصميم في العراق، وظل مميزاً لهذا النوع من الأبنية ولفترات طويلة بعد بناء القبة الصليبية[2]. وهذا ما نشير إليه عند حديثنا عن مباني مدينة سامراء العباسية.

المشهد

المشهد كلمة مرادفة للتربة، وهي تسمية مقتصرة على مدافن الأئمة والعلماء والصالحين ومن له صلة بالدين، أما التربة فلم تقتصر عليهم، بل تعدتهم إلى الحكام وكل من لا صلة له بالدين. وإذا كان المشهد لا يشترط فيه أن يكون مدفناً، فإن التربة لابد أن تكون كذلك.

---

(1) العاني، علاء، القباب المخروطية في العراق، بغداد، مطبعة دار الحرية، ص 32.

(2) وفيات الأعيان، ج 4، ص 395.

قـال ابن خلكان عند حديثه عن وفـاة مـعز الدولة أحمـد بن بويه المـتوفى سنة 356هـ/967م : إنه دفن في داره ثم نقل إلى مشهد بني له في مقابر قريش، وعن موسى الكاظم قال : «وقبره هناك مشهود يزار وعليه مشهد».

أراد بالمشهد التربة، أي القبة مع مرافقها، وهذا من اصطلاحات أواسط القرن الخامس للهجرة. وكانت قباب المساجد والقصور تختلف في طرازها وطريقة بنائها عن القباب التي تغطي الأضرحة. وقد أصبحت قباب الأضرحة منذ منتصف القرن الخامس مخروطية الشكل في الغالب، وترتفع مسافة كبيرة للدلالة على أهمية المتوفى، كما أنها تشل في داخلها وخارجها مقرنصات تتقارب كلما ضاق المخروط، وبهذا صارت تشكل عنصراً عمارياً في غاية الروعة.

والقباب مخروطية الشكل التي أقيمت على الأضرحة انتشرت في العراق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن السابع. تقوم قبة الضريح على غرفة هي في الغالب منفردة عن البناء المجاور لها، أو ربما كانت ملحقة بالجامع، وتتميز عن البناء في زخرفتها وارتفاع قمتها. ويعتقد أن لارتفاعها أثراً نفسياً ودينياً يتعلق بشخصية المتوفى الذي يكون في الغالب إماماً أو ولياً. وغرف هذه الأضرحة تحتوي في الغالب على مدخل واحد، بعضها يحتوي محراباً واحداً وبعضها ألحق بها مصلى. ومن أشهر القباب المخروطية التي وصلت إلينا في مدينة بغداد قبة زمرد خاتون.

قبة زمرد خاتون

يقع هذا الضريح الذي يعرف بضريح السيدة زبيدة إلى الجنوب الغربي من جامع الشيخ معروف الكرخي في وسط المقبرة المعروفة باسمه في الجانب الغربي من بغداد. ويرجح أن هذا الضريح يعود إلى القرن السادس الهجري، وأن الناصر لدين الله هو الذي شيده، وأنه من أبنية السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيئ بأمر الله ،وأم ولده الناصر لدين الله المتوفى سنة (599هـ/1202م)[1]. تقوم قبة الضريح المخروطية على بدن مثمن الأضلاع، وهذه الأضلاع تساعد على

(1) د. غازي، العمارة العربية، ص 238.

قيام بناء مخروطي ارتفاعه 9,75م تقريباً من الخارج، و8,30م[1] من الداخل، وتتراوح أضلاعه الثمانية بين 2,88م إلى 2,91م من الداخل، و5,14م - 5,20م من الخارج. زينت جدران البناء بحنايا ذات عقود مدببة مطولة، اثنتان في كل ضلع يعلوها صف أشكال مستطيلة عددها اثنان في كل ضلع، تشغل هذه الأشكال تشكيلات زخرفية دقيقة محفورة بالآجر، أما جدران البدن من الداخل فخالية من أي تشكيلات معمارية أو زخرفية عدا حنية المحراب التي تقابل المدخل تماماً.

تقوم على البدن قبة مقرنصة مخروطية الشكل يبلغ ارتفاعها 13,30م، استخدم المعمار المقرنصات للحصول على الشكل المخروطي المقبب من الخارج والمكون من حنايا ذات عقود مدببة مائلة أو بارزة إلى الأمام من الداخل. ويبلغ عدد صفوف المقرنصات من الداخل اثني عشر صفاً، نفذت الثلاثة الأولى من الأسفل بتقنية خاصة حولت الشكل المثمن إلى ستة عشر ضلعاً، أما الصفوف التالية فيتألف كل صف منها من ستة عشر مقرنص أو حنية تميل إلى الداخل كلما ارتفعت وتنتهي بنجمة ترتفع فوقها قبة ثمانية أيضاً يتوجها رأس مخروطي مدبب، وهذه المقرنصات مغطاة بطبقة من الجص (شكل رقم 18).

إن المبنى الحالي رغم أنه تعرض إلى عمليات صيانة متكررة، إلا أنه حافظ على المخطط والعناصر العمارية الخاصة به.

وفي سنة (598هـ/1201م) دفنت في تربة زمرد خاتون ضرتها بنفشه، ثم دفن أبو الحسن علي بن الناصر لدين الله سنة 612هـ/1215م، ودفنت بها أيضاً عائشة زوجة الوالي حسن باشا والي بغداد سنة 1131هـ/1711م. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن القبة المخروطية قد عرفت عند العراقيين باسم الميل، والمقصود بالميل هو ما يبنى على القبر بشكل عمودي، ولا نعرف بالضبط متى استخدم هذا اللفظ الذي يطلق للدلالة على القبة المخروطية. ويذكر د. جواد علي عند حديثه عن الشيخ عمر السهروردي قائلاً : «لما توفي سنة 632هـ/1234م دفن قريباً من الباب الوسطاني داخل بغداد وعلى قبره ميل»[2].

---

(1) علاء، القباب المخروطية، ص 33.

(2) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة، 1932، ج 12، ص 109.

ضريح الحسن البصري

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري يقع ضريحه في مقبرة بلدة الزبير في محافظة البصرة خارج المربد في المقبرة المعروفة باسمه. والحسن البصري متصوف ولد بالمدينة سنة (21هـ/642م)، وقدم مع والديه إلى البصرة سنة (36هـ/656م) وبها دفن بعد وفاته سنة (110هـ/728م) بمقبرة بلدة الزبير.

كان الحسن سيد التابعين وإمام أهل البصرة وشيخها بلا منازع، عالماً وتقياً، زاهداً وورعاً. تربى الحسن في بيوت زوجات الرسولﷺ، وكان في الرابعة عشرة من عمره يحفظ القرآن، شارك في الفتوحات الإسلامية ما بين (53/43هـ) وذهب سنة 51هـ إلى خراسان بصحبة الربيع بن زياد، فكان كاتباً له ثم عاد إلى البصرة وعاش فيها حتى وفاته سنة 110هـ[1]، ودفن في هذه المقبرة التي عرفت باسمه (شكل رقم 19).

تقوم على قبر الحسن البصري قبة مخروطية الشكل مشابهة لقبة زمرد خاتون من حيث عدد حنايا صفوفها (16) كما هو حاصل في كلا القبتين.

يرجع تاريخ بناء القبة إلى ما بين (607-630هـ/1210-1232م).

يتألف بناء الضريح من أكثر من غرفة يظهر أنها شيدت في أوقات مختلفة، وأهمها تلك التي تضم القبر، وتمثل طراز المشاهد العراقية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري. والغرفة مربعة الشكل طول ضلعها 3 أمتار من الداخل يرتفع مدخلها في الضلع الشرقي، والبناء كله شيد بالآجر. ويعلو هذه الغرفة رقبة مثمنة لتحويل المربع إلى دائرة لإقامة القبة المخروطية.

تقوم القبة على بدن مربع الشكل يدخل إليه بواسطة مدخل يتوسط الضلع الشمالي، وتتقدمه مظلة بنيت في فترة متأخرة. تخلو الغرفة من أي نوع من أنواع الزخارف فيما عدا أشكال المقرنصات. ولتحويل المربع إلى مثمن لإقامة القبة المقرنصة، أقيمت حنايا في كل ركن من أركان المربع على ارتفاع 3 أمتار عن أرضية الغرفة، وتطل هذه الحنايا على عقد مدبب، بعد ذلك تتعاقب صفوف مقرنصات القبة الأحد عشر. كل صف منها يتألف من ست عشرة حنية ومقرنص، وهذه الحنايا مسطحة ومحددة بعقود مدببة. ويلي الصف الحادي عشر عنق أسطواني، حيث تنتصب عليه قمة القبة النصف كروية.

---

(1) وفيات الأعيان،ج 1، ص 354.

أما بناء القبة من الخارج فهو ذو طابع متميز، حيث تنتصب فوق بدن الضريح قاعدة مثمنة ترتفع حوالي متراً واحداً، تقوم فوقها القبة المخروطية المؤلفة من تتابع ستة صفوف من المقرنصات من الداخل والخارج ذات عقود مدببة وبطون مسطحة. وتبرز العقود هنا إلى الأمام بميلان واضح تراه لأول مرة في تشكيلة المقرنصات التي تختلف هنا عن نظائرها في قبة الدور وزمرد خاتون، ثم تبدأ بالتناقص التدريجي، كما أن هذه الصفوف تبرز عن الأولى بروزاً شديداً. ويبدأ هذا البروز بالتناقص التدريجي أيضاً، حيث تنتهي في الصف السادس الذي ترتكز عليه قبة نصف كروية. ولابد من الإشارة إلى أن الارتفاع الكلي للقبة من أسفل البدن وحتى قمتها حوالي 13متراً.

كسيت القبة من الداخل والخارج بمادة الجص، وللقبة فتحات بمثابة نوافذ لإدخال الضوء والهواء، أربع منها للداخل في الصف الأول من حنايا غطاء القبة وثلاث نوافذ تقوم في الصف السادس من الداخل، وخمس نوافذ أخرى في بدن القبة، إلا أن أعمال الصيانة الأخيرة قد عملت على إغلاق هذه النوافذ الموجودة في القبة لحماية القبة من الظروف الجوية، أما بالنسبة لقبر الحسن البصري وابن سيرين فقد امتدت إليهما يد التجديد بحيث لايمكن تمييزهما، والاعتماد في ذلك على ما هو شائع بين الناس، ومتعارف عليه بينهم.

مرقد ذي الكفل

وهو مرقد النبي مرقص الشهير بذي الكفل[1]. المشهد يعد من المزارات المقدسة لليهود والمسلمين في العراق على حد سواء. يقع المبنى في ناحية الكفل التابعة لمحافظة بابل، وكانت هذه البقعة تعرف باسم بر ملاحة[2] من قبل، إلا أن تسمية الكفل غلبت عليها.

وصف الرحالة بنيامين القبر قائلاً : «إن هذا القبر هو وراء الكنيس بين الفرات والخابور تحت قبة بناها الملك يكوينا، وفيه السفر الكريم الذي كتبه بيده (شكل رقم 20)[3].

(1) هو حسقيال الذي كفل أمته بالنجاة من أسر بابل وكفلها بمجيء المسيح لذلك يدعى بذي الكفل.

(2) الهروي، **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ص 76.

(3) الكرملي، "ذو الكفل"، مقالة نشرت في **مجلة المشرق**، سنة 1989، العدد 1، ص 64.

اختلفت الآراء حول تحديد تاريخ المرقد، ويعتقد د. علاء أن كلا القبتين الداخلية والخارجية يعود تاريخهما إلى سنة 703هـ/1303م، وهي السنة التي تولى فيها الجايتو الحكم، في حين يعتقد عطا صاحب كتاب القباب المخروطية استناداً إلى نص بنيامين الذي يؤكد وجود القبة في القرن السادس، كما أن ما تبقى من زخارفها يؤكد وجودها في ذلك القرن، وهي تمثل الطراز المغولي في العمارة الإسلامية.

ومما لوحظ على القباب المخروطية أن مبنيا ذي الكفل والسهروردي يعودان إلى فترة زمنية واحدة، وذوا طراز واحد وهو الطراز العراقي في بناء القباب المخروطية إبان السيطرة المغولية، حيث مر هذا الطراز بمرحلة تطور على المرحلة التي كان عليها أيام أواخر دولة بني العباس.

غرفة الضريح مستطيلة الشكل، ولتحويل المستطيل إلى مربع تم إقامة عقدين متتاليين، أحدهما عقد متفرج والآخر عقد مقصوص (مدني) أقيما على الجدارين الشرقي والغربي، وأقيمت الحنايا في مراحل انتقال. القبة تطل على الغرفة بعقود مدببة أقيمت فوقها ثلاثة صفوف من المقرنصات صغيرة الحجم متصلة ببعضها، وتتخلل هذه المقرنصات نوافذ قائمة في الجهات الأربع للبدن المربع.

وتقوم فوق هذه المقرنصات قبة مخروطية مقرنصة تتألف من عشرة صفوف عدا قمتها المضلعة، يتألف كل من الصفوف الستة الأولى من ستة عشر مقرنص مسطح شبيهة بتلك التي وجدناها قائمة في قبة الحسن البصري غير أنها أقل دقة وجمالاً منها، وتبرز قمة عقودها بروزاً شديداً عن الحنايا الباقية التي تتعاقب معها، وهذا البروز لاحظناه في مبنى زمرد خاتون والسهروردي، والهدف منه هو الانتقال من السطح المؤلف من ستة عشر رأساً إلى الشكل المثمن الذي يعقب الصف السادس ويستمر حتى الصف العاشر، وفي نهاية المقرنصات يقوم غطاء القبة النصف كروي وفي وسطه نجمة زخرفية ذات اثني عشر رأساً مزخرفاً بالحنايا، وتكون الزخرفة النابعة من العنصر الرئيس في زخارف هذه القبة، وهي بالتلوين، ومحلاة في بعض المناطق بالمرايا، أما القبة من الخارج فهي مخروطية الشكل مكونة من عشرة صفوف من المقرنصات عدا غطاء القبة. وتقوم المئذنة بالقرب من المرقد في أحد أركان الجامع من الداخل، وقد بنيت بالجص والآجر. وتتميز بضخامتها وعلوها الشاهق، إذ يبلغ ارتفاعها 24 متراً مثل مئذنة جامع الخلفاء. وللمئذنة قاعدة مربعة يقوم فوقها بدن أسطواني غليظ، يقوم بداخلها سلم حلزوني على غرار مآذن مدينة بغداد، وينتهي البدن الأسطواني بشرفة ترتكز على أربعة

صفوف من المقرنصات التي تميزت بتعقيد تركيبها وتناسقها، وزخرفة بواطن المقرنصات بزخارف نباتية نفذت على الآجر بطريقة الحفر العميق، على غرار زخارف مقرنصات مئذنة جامع الخلفاء، ورقبة المئذنة غليظة نسبياً إذا ما قورنت بمآذن بغداد التي بنيت في العصر العباسي.

مشهد النبي يونس

يقع هذا المشهد على السفح الغربي لتل النبي يونس أو تل التوبة أحد تلال مدينة نينوى الآشورية. ينسب هذا التل إلى النبي يونس صاحب الحوت الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وهو التل الذي وقف عليه قوم يونس لما أنذرهم وتابوا إلى الله[1]. يضم هذا التل في باطنه بقايا أبنية عديدة لقصور ومعابد من العهد الآشوري، وأخرى من العهود المتوالية. يذكر المؤرخون أن النصارى أقاموا عدة أديرة في الموصل، منها ديريونان أمتاي، وهو أحد أبناء إسرائيل المعروف عند المسلمين بيونس بن متى، ويعرف أيضاً بذي النون. وصار للتل حرمة عند المسلمين، فبنوا مسجداً فوق تل التوبة على أنقاض المعبد المجوسي بجانب دير يونان، وصار هذا الجامع يعرف بجامع النبي يونس، ثم أقيمت في القرون التالية عند هذا المسجد مباني عديدة بعضها للزهاد والنساك، وشيد الخليفة المعتضد بالله العباسي في الفترة 279-289هـ قصراً على هذا التل، وبقي هذا القصر إلى القرن الرابع الهجري. ثم صار مأوى للزهاد، وأخذ الناس يخرجون إليه[2]. وأشار المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم إلى وجود مسجد فوق تل التوبة، بنته جميلة بنت ناصر الدولة. عرف هذا الجامع على مر السنين أدواراً بنائية توسع خلالها، وأضيفت إليه مرافق عديدة حتى صار يضم دوراً وسقايات، وصار به محمل مقدس، وهو المحمل الذي وقف به النبي يونس، وهذا الموضع يخرج الناس إليه للصلاة والتبرك يوم الجمعة (شكل رقم 21)[3].

يحتوي المبنى على ضريح النبي يونس الذي ينزل إليه بدرجات، لكون الغرفة منخفضة عن مستوى المصلى، وهي مربعة الشكل يحيط بجدرانها الأربعة بلاطات خزفية ذات لون أزرق وذهبي يعلوها شريط كتبت عليه آية الكرسي، وفوق

---

(1) الديوه جي، جوامع الموصل، ص 73.

(2) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة ليدن، سنة 1893، ج 1، ص 133.

(3) الحديثي وعبد الخالق، عطا وهناء، القباب المخروطية، بغداد، دار الحرية للطباعة، ص 85.

هذا الشريط تبدأ الزخارف المزينة لباقي القبة المخروطية، والتي أرضيتها بيضاء، ثم تقوم فوقها مراحل انتقال القبة، والتي هي عبارة عن حنايا قائمة في الأركان الأربعة للغرفة، وهي بثلاثة صفوف من المقرنصات، وفوق هذه تقوم مقرنصات القبة البالغ عددها ثمانية صفوف عدا الغطاء المكون من نجمة ذات ثمانية رؤوس، وازدانت هذه المقرنصات بزخارف نباتية لونت باللون الأزرق على أرضية بيضاء وتكون هذه القبة المخروطية مضلعة من الخارج.

مشهد الإمام يحيى بن القاسم

يعود هذا المشهد لأحد الأشخاص من آل البيت هو يحيى بن الإمام قاسم بن الإمام الحسن بن الإمام علي وأمه بنت الإمام الحسين[1]. يقوم هذا المشهد على شاطئ نهر دجلة من فوق جرف مرتفع بمدينة الموصل بين قلعة باشطابيا وقصر بدر الدين لؤلؤ، شيده الملك بدر الدين لؤلؤ سنة 637هـ/1239م، وذلك استناداً إلى كتابة منقوشة على أحد الجدران الداخلية القائمة في هذا المشهد. ويرجح أن هذا الملك المتوفى سنة 657هـ/1258م هو الآخر دفن في هذا المشهد، كما يشير النص الكتابي المنقوش على الصندوق الخشبي الذي يغطي القبر. وكان بدر الدين يعنى بهذا المشهد لقربه من دور المملكة بجانب المدرسة البدرية، ويتردد إلى زيارته. وهناك اعتقاد أن هذا المشهد هو جزء من المدرسة البدرية التي أمر ببنائها بدر الدين لؤلؤ.

يعتبر هذا المشهد من أجمل المشاهد التي وصلت إلينا من العهد الأتابكي ومن أبدعها، سواء من حيث التصميم العماري أو العناصر الفنية المتنوعة، من زخارف وكتابات منقوشة على المرمر، أو الجبس، أو الآجر، أو الخشب. يحتوي المشهد على آثار عمرانية نفيسة تحير العقول بجمالها وزخارفها، خاصة الإبداع في بناء القبة المشيدة على مرقده.

تتكون بناية هذا المرقد من فناء صغير خارجي، ثم فناء داخلي واسع الأرجاء، شيدت في الجهة الغربية منه أروقة حديثة، وفي الجهة الشمالية الغربية غرفة مطلة على النهر، وهي حديثة أيضاً، وفي الجهة الجنوبية منه قاعة وأمامها رواق صغير، أما باب المرقد فيظهر أنه قد هدم وشيد حديثاً. يتكون المشهد من

(1) جمهرة أنساب العرب، ص 39.

غرفة مربعة الشكل من الداخل سميكة الجدران تعلوها قبة مخروطية مضلعة ذات نهاية مدببة، واثنا عشر ضلعاً مشيداً بالآجر المزجج يبلغ ارتفاعها 12متراً، أما الداخلية فهي عبارة عن تشكيلة من المقرنصات تتدرج إلى أعلى القبة، وفيها زخارف وكتابات متنوعة محفورة في المرمر والآجر. إن أهم ما يميز بناء المشهد عن غيره من المباني قبته المزدوجة الداخلية ذات المقرنصات الهندسية، وهي على شكل مسطحات مثلثة متراكبة على صفوف أقيمت فوق بعضها البعض لتنتهي في القمة بقبة نجمية صغيرة ثُمانية الرؤوس، أما القبة الثانية الخاجية، فهي بشكل هرم ذي اثني عشر وجهاً يرتكز على قاعدة مثمنة (شكل رقم 22). فمن خلال الشكل الهرمي والازدواجية في بناء قبة يحيى[1] يمكن تصنيفها ضمن مجموعة واحدة تضم ثلاث قباب من هذا النوع، هي قبة الجامع النوري، وقبة الإمام عون الدين في الموصل، وقبة مبنى المشهد في الحلة الذي نتحدث عنه.

قاعة المرقد منخفضة عن مستوى المرقد بنحو متر ونصف المتر ينزل إليها بأربع درجات من المرمر، ويقابل باب المرقد من الداخل القبر، وفوقه صندوق من الخشب على جوانبه آيات من القرآن الكريم. ولما كانت استقامة القبلة تقع في منتصف الزاوية التي قد حصلت من التقاء الجدار الغربي بالجدار الجنوبي، فقد شيد في هذه الزاوية محراب من المرمر بديع الشكل والصنع، ووزرت الغرفة بألواح من الرخام يتوجها شريطان حفرت على الأسفل منهما وحدات من الزخارف النباتية بصورة دقيقة، أما الشريط الثاني فيضم كتابات دونت بخط الثلث حفرت في المرمر وملئت بالجص فظهرت وكأنها مطعمة بمرمر أبيض. وتتضمن هذه الكتابة أسماء بعض الصحابة والأئمة، ومن قام بتجديد البناء سنة 719هـ/1310م.

من أهم المستندات التاريخية لإثبات قدم بناية هذا المرقد هي الكتابة المدونة على الجدار الذي يقع إلى يمين الداخل إلى قاعة المرقد، وهذا نصها : «قد تطوع بعمارتها لوجه الله تعالى العبد الفقير لؤلؤ بن عبد الله»، وكان ذلك سنة 637هـ/1229م. وهذا البناء حظي بسبب شكله المعماري الفريد، وتنوع الزخارف التي تزينه، وكثرة الكتابات التي نقشت فيه، باهتمام عدد من المختصين في الآثار الإسلامية، فهو في الواقع أروع مشهد بين مشاهد النصف الأول من القرن السابع

---

(1) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة، 1932، ج 13، ص 82.

الهجري، وليس له نظير في تشكيله المعماري وعناصره المعمارية والزخرفية، لذا اعتبر من أجمل الآثار الباقية من العهد الأتابكي.

وتعتبر قبته من أجمل القباب السلجوقية التي انتشرت في بلاد الجزيرة في القرنين السادس والسابع الهجريين.

ويمثل طراز هذا المشهد المعماري عدداً من المشاهد التي بنيت في مدينة الموصل وسنجار خلال النصف الاول من القرن السابع منها أيضاً مرقد الإمام الباهر، والشيخ فتحي، وابن الحنفية، وعلي الأصغر في الموصل، ومرقد زينب في سنجار، وجميعها ذات قباب مخروطية. وسيظل مشهد الإمام يحيى بن القاسم أروعها، مع العلم أن هذا النوع من القباب انتشر في المنطقة الشمالية فقط.

المبحث الثاني

المراقد القائمة في العراق

تعد مراقد الأولياء والعلماء في بغداد وخارجها على مر السنين والأعوام من أبرز المعالم التاريخية والآثارية للمدينة والمدن الأخرى. لقد صرف حكام المسلمين في مختلف العصور والأدوار، جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة لبناء أبنية فخمة لتكون مراقد للأئمة والأولياء الصالحين، ولم يألوا جهداً في إقامة المباني الضخمة، والصرف بكل سخاء لتجميلها وتزيينها. وقد صارت هذه الأضرحة أبنية رائعة الجمال ذات منظر بهيج يشرح الصدر ويقصدها الناس في مختلف المواسم والزيارات الخاصة والأعياد[1]، نخص منها بالذكر :

مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني

ولد الشيخ عبد القادر الجيلي (الكيلاني) سنة 470هـ/1077م وتوفي سنة 561هـ/1165م، وله من العمر 91 سنة. وكان مولده في مقاطعة جيلان قرب بحر قزوين (إيران اليوم)، قدم بغداد وهو في الثامنة عشرة من العمر. لبس الصوف وسرعان ما فاق أساتذته في التمسك بالفضل والزهد والمبدأ. عين خطيباً في إحدى المدارس التي تقع بالقرب من باب الشيخ / باب الازج قديماً وأصاب في ذلك نجاحاً، فعين مدرساً أول في المدرسة، ثم بنيت له مدرسة دينية ألحق بها رباط في موضع جامع الشيخ عبد القادر الجيلاني. بنى هذه المدرسة الفقيه الحنبلي أبو سعيد المبارك بن علي المخرمي المتوفي سنة 513هـ/1119م، وبعد وفاته جلس فيها تلميذه الشيخ عبد القادر، وأضاف لها بعض المباني بمساعدة وتبرع أغنياء أهل بغداد بأموالهم، وتبرع الفقراء بأنفسهم بالبناء[2]. وكان تاريخ توسيع بناء المدرسة سنة 561هـ/1165م وعندما توفي الشيخ عبد القادر دفن في رواقها ليلاً

---

(1) شريف، تاريخ فن العمارة، ص 457.

(2) الألوسي، محمود، مخطوط مساجد دار السلام وما جاورها من البلاد، رقمه في سجل دار المخطوطات 1903، ص 52.

وبنيت على قبره[1] (قبة مخروطية)، وبعد فترة وجيزة من وفاته اتخذت هذه المدرسة مسجداً لأداء الصلاة فيه، وسمي الجامع والمدرسة باسمه.

إن ضريح الشيخ هو واحد من أهم الأضرحة في بغداد، ويعد جامعه من أعظم جوامع بغداد، واسع المساحة[2]، على مصلاه قبة بديعة الشكل. وقد مر على بناء الجامع والضريح أحداث كثيرة منها على عهد السلطان سليمان القانوني سنة 941هـ/1534م، إذ أمر أن تقام قبة عالية عليه حيث هدم الميل الذي كان قائماً عليه وبنى قبة شاخصة[3]. وأضاف العزاوي أن الوالي سنان باشا، وبأمر من السلطان سليمان، أمر بإنشاء جامع لم يتم له إكماله، وإنما بنى مقدار ثلثه، وبعد مضي سنوات أكمله من بعده السلطان علي باشا والي بغداد. وفي العقد التاسع من المائة العاشرة ألحق رواقان أحدهما من جانب الغرب بجوار الجامع والآخر من جانب الشرق محاذٍ لقبة الشيخ[4].

وفي سنة 1048هـ/1167م ألحقت به ظلة أقيمت أمام بيت الصلاة والرواقين، وفي الجهات المحيطة بالصحن أقيمت أروقة تقوم بداخلها غرف يسكنها طلاب العلم والشيوخ القادمون لزيارة المرقد، أما المنارة فلم يكتمل بناؤها إلا في سنة 978هـ[5].

وأقيمت على المصلى قبة كبيرة لا يوازيها في الأقطار الإسلامية ما هو بعظمتها وسعتها وجمال بنائها، ولا تزال هذه القبة قائمة شاهدة لمعرفة قدرة بانيها.

احتوى الجامع على ريازة جيدة في العمارة، كما احتوى على جميع خطوط الخطاطين، وتعد هذه الخطوط نموذجاً رائعاً، هذا بالإضافة إلى الزخارف النباتية. وكان للجامع مئذنتان إحداهما تقوم عند المدخل الذي يقع في الضلع الغربي، وهذه المئذنة اختلفت عن مآذن المساجد السابقة الذكر، حيث استخدمت

---

(1) الراوي، بغداد مدينة السلام.

(2) الأعظمي، هاشم، تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ومدرسته العلمية، ص 120.

(3) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج 4، ص 33.

(4) زادة، مرتضى نظمي، كلشن خلفا، مطبعة الأدباء، بغداد، 1970، ص 61.

(5) البندنيجي، صفاء الدين القادري، جامع الأنوار في مناقب الأخيار، مخطوط رقمه في سجل دار المخطوطات 2627، ص 35.

البلاطات الخزفيـة في إقـامـة أشرطة حلزونية تدور حـول البـدن، وهذا النوع من التحلية لم يسبق مشاهدته من قبل في المآذن التي وصلت إلينا (شكل رقم 23).

أما المئذنة الثانية فهي تقع في المجنبة الشرقية، بنيت سنة 904هـ/1498م، وهي أسطوانيـة البـدن تقـوم على قـاعـدة مـربعـة الشكل بدنهـا خـال من التـحليـة الزخـرفيـة بيضـاء، وهي شبيهـة ببدن منارة جامع مرجـان ومعـروف الكرخي، في حين استخدمت البلاطات الخزفية في زخرفة بواطن مقرنصات قائمة أسفل حوضها (الشرفـة)، وكذلك بزخرفة السور المحيطة بالشرفة، حيث دونت كتـابات بخط كوفي على بلاطات خزفية.

واحتوى بناء الجامع على مدخلين أحدهما يقع في الميمنة الشرقية، وتقابله بوابة أخرى تقع على محـوره في المـيمـنة الغـربيـة، وهو ضـخـم ومـحلى بزخـارف آجرية.

ومـمـا لوحظ على بناء الجامع احتـواؤه على ضـريـح، وكما أشرنـا سابقـاً فإن إقامة الجامع من أجل الضـريح كان تخليداً لذكرى الشيخ، وهذا ما شاهدناه في بنـاء جـامع الإمـام الأعظم، وجـامع الشيخ مـعـروف، وجـامع الكاظمـيـة، والسـهـروردي، وجامع سيد سلطان علي والأمثلة كثيرة في مدينة بغداد.

مرقد الإمام أبي حنيفة

أبو حنيفة هو الإمام النعمـان بن ثابت الكوفي، العربي المولد والمنشأ، عاش والده في الكوفـة سنة 580هـ/701م في أيام الخليفـة علي بن أبي طالب (ع)، وكـان يتاجر بالخزر، وخلف هذه التجارة إلى ولده النعمان، و قد كني بأبي حنيفة وعرف بهـذه الكنيـة. نشـأ النعمـان في الكوفـة، وكـانت يومئذ مـقـراً لرواد علـوم القـرآن والحديث وموطن اللغة العربية وعلومها، وفي صغره رأى ما يقارب من سبعة رجـال من صحـابة رسول الله ﷺ منهم أنس بن مالك، وخـالط عدداً من رجال الفقه والدين من التابعين وانتفع بعلمهم كثيراً.

امتلك أبو حنيفة عقلاً واسعاً أهله لأن يستنبط ويجتهد ويقيس[1]، فكان إماماً في الفقه والتشريع، معروفاً باجتهاداته المتوازنة التي نـالت إعجـاب أولي العلم

---

(1) جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص 47.

والبصيرة، مما جعل المنصور يختاره واحداً من الرجال الأربعة الذين خططوا لبناء بغداد.

درس على يد أبي حنيفة ثلة من علماء العصر العباسي الفقه والحديث، منهم ابنه محمد، وإبراهيم بن طهمان، وأبو يوسف الأنصاري، ومن كتبه المسند في الخليقة والحديث، والمخارج في الفقه، والفقه الأكبر.

وفي سنة 150هـ/767م توفي الإمام الأعظم ودفن في المقبرة التي دفنت فيها الخيزران أم الرشيد وزوجة الخليفة المهدي والياقوتة ابنة المهدي. وقد صلى عليه الخليفة المنصور، وقال حين وقف على قبره : من يعزيني في أبي حنيفة حياً أو ميتاً. وبعد دفنه في هذا الموضع سميت المحلة القائمة حول الضريح والجامع باسمه، ولكن طغى على المنطقة اسم الأعظمية، من كلمة الأعظم، وهو اللقب الذي أعطي للإمام.

ونكر المقدسي أن أبا جعفر أنشأ صُفَّة للعلماء عند مرقد الإمام أبي حنيفة، وكانوا يقيمون فيها الصلاة. ومن هذا يظهر لنا أن المسجد كان له أصل فاضيف له الرواق.

وقال سبط ابن الجوزي أن أبا سعد أقام في سنة 459هـ على قبر أبي حنيفة قبة عالية وكانت بيضاء على غرار قبة السهروردي وبنى رواقاً وصحناً وجعله مشهداً كبيراً وعمل بإزائه مدرسة لأصحاب أبي حنيفة وعين له مدرساً[1]. وتعتبر مدرسة الإمام هذه أول مدرسة عراقية للحنفية يسكن فيها الطلاب، وهي بهذا سبقت افتتاح المدرسة النظامية بما لايقل عن خمسة أشهر[2].

ظل البناء قائماً والمدرسة مفتوحة تدرس فيها العلوم ردحاً من الزمن، غير أن السنين أثرت عليه، إذ تم تهديم البناء، وقام السلطان سليمان القانوني سنة 941هـ/1534م بإعادة بناء ما تهدم من المسجد والمشهد، وبنى منارة له وحلاها بالذهب[3]. وتوالت أعمال الصيانة والإعمار خلال الأعوام اللاحقة، إذ أمر السلطان

---

(1) ابن الجوزي، شمس الدين بن المظفر يوسف الشهير بسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الطبعة الأولى، حيدر آباد، 1950، ج 6، ص 109.

(2) دليل خارطة بغداد، المصدر السابق، ص 166.

(3) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج 3، ص 31.

سليمـان بإقامة قبة عـالية على قبر الإمام وهدم القبـة القديمـة لتصدع جدرانها[1]، كما أمر السلطان مراد الرابع في سنة 1048هـ/1638م بتعمير مـا هدمته الحرب من مبنى الإمـام. وأقام على مصلاه قبة عظيمـة أقيمت على أعمدة من الرخام، وحولها رواقان في الجهتين الشرقية والشمالية.

وفي سنة 1255هـ/1839م أمر السلطان عبد الحميد بإصلاح ما يلزم إصلاحه من بناء المرقد والجامع.

وفي سنة 1288هـ/1871م أجرت عليه والدة السلطان عبد العزيز خان عملية توسيع، إلا أن قبة الضريح بقيت على ما كانت عليه سابقاً[2]، ولم تهدم وإنما هدمت قبة بيت الصلاة، وأحد الأروقة القائمة في الجانب الشرقي والغربي من بيت الصلاة، وأسند سقفه على أعمدة رخامية، كما تم توسيع صحن الجامع. وأقيمت فيه مدرسة على يمين المصلى جعلت من طابقين وخصص لها مدرستان لتدريس العلوم العقلية، واحتوى صحن الجامع على حجرات ملتصقة بالجدران المحيطة بالمبنى. أعدت هذه الحجرات للطلبة وكان الانتهاء من هذ الأعمال سنة 1293هـ/1876م. وفي عهد السلطان عبد الحميد دون على واجهة الرواقين القائمين في الجانبين الشمالي والشرقي من مبنى الجامع سورة الفتح، في نهايتها ذكر تاريخ البناء، وكان ذلك في ألف وثلاثمائة وإحدى وعشرين من الهجرة النبوية الشريفة.

يقع مشهد أبي حنيفة في الجهة الشرقية من الجامع ويتصل بالمصلى، كما أن فيه باباً على يسار المستقبل له، يقوم المرقد في وسط الغرفة وعليه صندوق من الخشب الصاج فيه مشبك صنع من الفضة، وكتب على الصندوق : هذا مرقد الإمام الأعظم المجهم الأقدم أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي. ويعلو التابوت مظلة من المخمل الأخضر، وفوقها قناديل من الفضة والذهب، وإلى جانبه شمعدانان من الفضة، وقد أهديا سنة 1271هـ.

وتقوم في الجهة الشرقية غرف ذات طابق واحد ومنارة وقبتان مجاورتان لقبة الضريح تتصلان بدهليز فيه باب يؤدي إلى الضريح.

---

(1) العمري، ياسين خير الله، زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، مطبعة النجف، 1947 ، ص 149.

(2) الألوسي، مخطوط أخبار بغداد وما جاورها من البلاد، رقمه في سجل دار المخطوطات 6287، ج 1، ص 149.

وفي سنة 1979م تم وضع الساعة التي صنعها عبد الرزاق محسوب الأعظمي في موضعها الحالي. وفي سنة 1391هـ/1971م جرى توسيع بناء الجامع، وجعلت مساحته ضعف مساحته الأولى. وكان لبنائه القديم قبتان في الجهة الشرقية إحداهما فوق الحرم والثانية فوق الضريح. وقبة الضريح شبيهة بقباب الأضرحة القائمة في بغداد امتازت برقبتها الطويلة وتغليفها بالبلاطات الخزفية الزرقاء. ويعرف هذا النوع من القباب بالقباب السمرقندية دونت عليها أسماء الله الحسنى. وفي سنة 1971 أضيفت قبتان أخريان ومنارة من الجهة الغربية، كما جدد السياج الخارجي، وقد بني بالآجر المطعم ببلاطات خزفية زرقاء.

وفي الجهة الشرقية من بناء الجامع يقع الباب الرئيسي للجامع، وهو بشكل مستطيل بني بالآجر الأصفر المجور تحيط به زخارف نباتية، وهي في غاية من الدقة والجمال. وبجانب الباب في الجهة الشمالية ساعة تقوم على برج ذي الوجوه الأربعة، وقد تعرض برج هذه الساعة ومبنى ضريح الإمام إلى أضرار بليغة بسبب الحرب العدوانية التي شنتها الحكومة الأمريكية والبريطانية على العراق سنة 2000، إلا أن أهالي منطقة الأعظمية سارعوا بجمع الأموال من سكان المنطقة وجرت صيانتها وفق طرزها القديمة.

مشهد الكاظمية

يقع مشهد الكاظمية في إحدى ضواحي مدينة بغداد، وهو الآن أشهر ضريح في بغداد. قبل تأسيس مدينة بغداد كان موقع الكاظمية يعرف بالشهنزية ويبدو أنه كان مقبرة واسعة، وعلى كل حال فإن الخطيب البغدادي يحدثنا عن مقبرتين أي الشهينزية الصغيرة والشهينزية الكبيرة[1]. وبعد تأسيس بغداد جعل المنصور الشهينزية الصغيرة مقبرة للخلفاء وبقية أعضاء الأسرة القريشية سماها مقابر قريش، كما سميت مقابر بني هاشم، ولابد أنها كانت مجموعة بديعة من الأبنية.

إن أول خليفة دفن في هذه المقبرة هو جعفر الأكبر أبو جعفر المنصور سنة 150هـ/767م. يذكر لنا ياقوت الحموي بقوله : «إنه كان أول قبر شيد مرتفعاً»، ويقول أما الإمام الكاظم (ع) فقد دفن خارج القبة، وهذا يعني أنه كان هناك مبنى

(1) الحموي، معجم البلدان، ج 8، ص 107.

واحد في ذلك الوقت، ثم دفن فيها الهيثم بن معاوية سنة 156هـ، ثم توالى الدفن بها، حيث دفنت أم جعفر والسيدة زبيدة أم الأمين فيها أيضاً[1]. كما دفن فيها قاضي الدولة العباسية أبو يوسف يعقوب الأنصاري الحنفي سنة 182هـ/798م. وعندما توفي الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عام 183هـ دفن في المقبرة خارج القبة، وكذلك دفن إلى جواره حفيده الإمام محمد بن الجواد (ع) عام 220هـ/835م. وبمرور السنين اشتهر مدفن الإمام باسم مشهد باب التبن، ومشهد موسى بن جعفر، وأصبحت المنطقة مهوى أفئدة المؤمنين ومحط أنظارهم، ثم بدأ السكن فيها يزداد مع مر الأيام، ونسبت المنطقة المحيطة بالمشهد إلى الإمام الكاظم فعرفت بالكاظمية[2]. ولاشك أن العمارة الأولى التي دفن فيها الإمام كانت في بداية البناء عبارة عن غرفة تغطيها قبة استناداً إلى مسكويه، ثم اهتم بها بنو بويه اهتماماً كبيراً. ولعل أول عمارة كبيرة شيدت عليها سنة 947م، إذ تم إعادة تشييد المزار الكاظمي من جديد، ووضعت على القبرين قبتان من خشب الصاج، وبني حولهما حائط كالسور. وفي آخر العهد البويهي كانت عمارة المشهد قد بلغت غاية فخامتها وروعة زخارفها.

وعندما احترق سنة 443هـ/1051م قام البساسيري بتشييده مجدداً، إذ تم بناء المبنى بما فيه البناء والسياج والقبة، وجعل إلى جانب الضريح مسجداً ومئذنة، وذلك سنة 450هـ/1058م، وشمل المبنى بأعمال الترميم والتوسيع والإعمار في فترات متلاحقة، إلى أن أصبح بالشكل الذي نراه الآن. ففي سنة (914هـ/1508م) أمر السلطان أويس بقلع العمارة من أساسها وتجديدها وفق الأسس القديمة، وتوسيع الروضة، وتبليط الأروقة بالرخام، وتزيين الحرم وأطرافه الخارجية بالقراميد ذات الزخارف النباتية والآيات القرآنية. وأمر أن تكون المآذن أربعاً بعد أن كانت اثنتين، وأمر بتشييد مسجد كبير في الجهة الشمالية للحرم متصل به. وقد تم تشييد هيكل الحرم والروضة، وهو الهيكل القائم اليوم، كما تم كساء الواجهات بالقراميد بما فيها من كتابات من القرآن الكريم. وقد تم الانتهاء من هذه الأعمال العمرانية عام 936هـ/1529م[3]، وتم كساء جدران الرواق الشرقي المقابل للصحن بالقراميد.

---

(1) دليل خارطة بغداد، ص 98.

(2) شريف، المصدر السابق، ص 461.

(3) آل ياسين، محمد حسن، تاريخ المشهد الكاظمي، مطبعة المعارف، بغداد، 1967، ص 125.

وفي أثناء حكم إسماعيل الصفوي تم بناء حي كبير في الجانب الشمالي من الضريح، وهكذا اتخذ الضريح الشكل الذي هو عليه في الوقت الحاضر.

كما تم بناء المنارة الشمالية الشرقية سنة 978هـ/1570م التي لم يكملها الصفويون، وتمت عمارتها سنة 1032م، وتم وضع ضريح من الفولاذ فوق القبر، كما تم إحكام بناء المآذن الكبيرة وتصغير المآذن الأربعة الصغيرة.

وفي عام 1207هـ/1796م تم إنشاء المآذن الثلاث الكبرى وتسقيف شرفاتها، كما شيد سقف للمئذنة الرابعة حيث كانت بدون سقف، وتمت إقامة صحن واسع يحيط بالحرم من جهاته الثلاثة، ويرى أنه كان يدور حول هذا الصحن الجديد سور يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار يطل على الفناء بأواوين صغيرة[1].

وخلال عام 1211هـ تم نقش باطن القبتين بماء الذهب والميناء وقطع الفسيفساء الزجاجية، كما تم تزيين جدران الروضة كلها وتذهيب القبتين والمآذن الصغيرة الأربعة، وقد انتهى العمل عام 1229هـ. وفي عام 1281هـ تمت تغشية الجدران الخارجية بالقراميد ذات الزخارف البديعة من حيث الشكل وتناسق الألوان، وإقامة طارمة يرتكز سقفها على 22عموداً خشبياً أمام الحرم تسمى طارمة باب المراد، كما تم تذهيب الإيوان الكبير الواقع في وسط الطارمة المشرفة عليه.

امتازت هذه الطارمة بالأعمدة الخشبية ذات التيجان المقرنصة، وكسيت سقفها وواجهاتها بألواح من الخشب ذات زخارف هندسية ونباتية وكتابات نفذت بدقة متناهية، تدل على مدى براعة ودقة صانعيها. ونفذت معظم زخارفها بالتطعيم وبألوان مختلفة.

وفي عام 1284هـ/1867م تم تشييد طارمة أخرى يستند سقفها على 14 عموداً من الخشب ذات تيجان مقرنصة للدكة الجنوبية، وقد تم الانتهاء من العمل بها سنة 1285هـ/1868م.

وفي سنة 1284هـ/1867م تمت زخرفة طارمة باب المراد بالمرايا الزجاجية، كما تم تذهيب المآذن الأربعة الكبرى بالذهب، وتشييد سور مرتفع للصحن يتكون من طابقين : الأرضي يشتمل على غرف وإيوانات صغيرة مطلية بالرخام ومزينة جدرانها بالقراميد، وفي أعلى هذه الواجهات كتابة تدور حول الصحن كله تمثل آيات من القرآن الكريم.

---

(1) شريف، المصدر السابق، ص 471.

كما تم تأسيس قاعدتين في سطح الطابق الثاني من الصحن فوق البابين الرئيسيين في الجانبين الشرقي والجنوبي لنصب ساعتين كبيرتين، إحداهما نصبت سنة 1301هـ/1883م من الجهة الشرقية، والأخرى سنة 1303هـ/1885م أقيمت في باب القبلة.

في عام 1314هـ/1896م زين الرواق الجنوبي بالزجاج الجميل المركب على الخشب المقطع بأشكال هندسية دقيقة الصنع، وقد تم تزيين الرواق الشرقي بمثل هذه الزخارف في عام1321هـ/1903م، والرواق الشمالي الغربي عام 1326هـ/1908م.

واستمرت العناية به خلال العصر العثماني، ولا تزال العناية مستمرة به حتى الوقت الحاضر، حيث أجريت ترميمات على واجهات الأواوين والمداخل وتحويل محل الوضوء إلى خارج المبنى، وهذا الاهتمام بالمبنى جاء من أهمية الشخصية الدينية المدفونة فيه.

كان الإمام موسى الكاظم الملقب بالعالم والصابر أكثر أهل زمانه تعبداً وأفقههم وأكثرهم حفظاً لكتاب الله، وكان أجل الناس شأناً وأعلاهم في الدين مكاناً، وأفصحهم لساناً كما كان أشجعهم وأسخاهم، وكان آية في العلم والفضل بالرغم من صغر سنه، وقد بلغ في العلم والحكمة والأدب وكمال العقل ما لم يبلغه أحد من مشايخ زمانه.

الوصف المعماري:

يشغل الضريح قطعة من الأرض مستطيلة الشكل قياسها 125x14م. يتألف البناء من المرقد والمسجد المتصل به ويحيطهما صحن من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية، ويحيط الصحن سور ضخم وسميك تتصل به عدة أواوين تحتوي على غرف وحجرات، كما فتحت ثلاثة أبواب رئيسية تتوسط الجدران تقريباً.
لا يختلف تخطيط هذه الروضة كثيراً عن تخطيط الروضة الحسينية والروضة العباسية في الجوهر والطراز، تتكون الحضرة من غرفتين متجاورتين متصلتين مع بعضهما ورواق يحيط بهما من جميع الجهات، وثلاث سقائف تطل على الصحن من الجهات الجنوبية والشرقية والغربية، ويتصل بالحضرة الجامع الصفوي من الناحية الشمالية، وكسيت معظم واجهات المبنى بالقراميد القاشانية والمرايا والذهب والجص (شكل رقم 25).

يتوسط القبران المكان الذي يفصل بين الغرفتين، ويظهر أن المعمار قد تخلص من سمك جدران هذا الجزء من الحضرة وبطريقة فنية، لذا جعل الجدران من الخارج بهيئة أواوين فخمة تنفتح على الرواق وتخترق ستة منها أبواب تصل بين الرواق وغرفتي الحضرة، وهذه الظاهرة غير موجودة في الروضة الحيدرية وروضة الإمام الحسين والعباس (ع)، إلا أن هناك صفات مشتركة بينها وبين تخطيط الروضة الكاظمية في أشياء أخرى.

وتغطي كل غرفة قبة مزدوجة من الداخل جعلت على شكل قبة نصف كروية، ومن الخارج جعلت على غرار القباب السمرقندية. هذا الطراز من القباب شاعت إقامته على مباني الأضرحة في سمرقند ومصر والعراق، ولقد امتازت كل قبة برقبتها الطويلة على غرار قباب الأضرحة التي أقيمت في العراق. طليت كلا القبتين بالذهب من الخارج ونقشت بالمرايا من الداخل مع رقابها، و لكي يزيد من جمال هذه القباب أقام المعمار أربع مآذن صغيرة أسطوانية أقيمت في الأركان الأربعة لهذا البناء، ميزته عن بقية الأضرحة القائمة في العراق.

يحيط بغرفتي الضريح رواق من جميع الجهات وثلاث سقائف، مقبى بقباب تطل على الصحن من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية، وتميز مبنى الكاظم بثلاث سقائف فوق أواوين الأضلاع الشرقية والغربية والجنوبية من المرقد. وتتميز سقيفة جدار القبلة عن البقية بارتفاعها، وبضخامة الأعمدة التي تحملها، ويتصل الرواق بغرفتي الضريح بستة أبواب، كما يتصل الصحن بعدد من الأبواب تتوزع خمسة من الجهة الشرقية، وخمسة من الجهة الغربية، وواحدة من الجهة الشمالية والتي تؤدي إلى الجامع الصفوي، وواحد من الجهة الجنوبية، وهو من الأبواب الرئيسية للحضرة، ويتوسط جدار القبلة إيوان ضخم مرتفع يخترقه الباب الرئيسي ويدعى بباب القبلة. ازدانت باطن حنية الإيوان بمقرنصات مغلفة بالذهب والمرايا والميناء. أروع ما في هذا الإيوان هو الباب النفيس المغشى بتشكيلات زخرفية منفذة على الذهب ومطعمة بالميناء نفذت بدقة وإتقان، كما تفنن المعمار في تكسية المآذن الأربعة القائمة في الأركان الأربعة للمبنى في رصف الآجر والقراميد، مما أدى إلى إحداث زخارف وكتابات دقيقة تمثل أشكالاً هندسية ونباتية، أما رقاب المآذن وطاقيتها فقد كسيت بألواح مطلية بالذهب.

ومن مميزات هذا المبنى احتواء الحضرة، ولأول مرة، على أربع مآذن (شكل رقم 26)، كما تميز بناء الحضرة باحتوائه على ثلاث سقائف تتقدم

الأواوين وترتكز على أعمدة ذات تيجان مقرنصة، أضخمها السقيفة القائمة في جدار القبلة. امتازت هذه السقيفة بارتفاعها ومتانة أعمدتها وزخارفها البديعة والدقيقة.

ومما يزيد من جمال الحضرة وروعتها، التشكيلات الزخرفية التي تغطي الجدران والسقوف من الداخل والخارج، بعضها ذات أشكال هندسية وتصاميم نباتية منها الرقش العربي الذي نفذ على البلاطات والقراميد والخشب، كما تعتبر أبواب الحضرة تحفة فنية رائعة تزيد من جمال المبنى، هذا إضافة إلى عنصر المقرنصات وأنواع العقود وأشكال الطيور.

بالإضافة إلى القمريات القائمة على نوافذ المبنى، آذان كل قمرية تختلف عن الأخرى من حيث الزخارف التي تزينها، ومعظمها منفذة على البلاطات الخزفية، وجعلت مخرمة لغرض التهوية والإنارة.

فالحضرة في الواقع تعتبر متحفاً فنياً يضم تحف ونفائس الخط والزخرفة والعناصر العمارية المتنوعة، وتعتبر مدرسة في الخط العربي والفارسي والتركي يجمع أنفس الأساليب والطرائق والمناهج في العمارة والتخطيط، كما تعتبر إحدى العمائر الفريدة في العالم، إذ التقى فيها الإتقان والجمال والكمال، وظهرت فيها البراعة والعبقرية في تنفيذ ما فيه من وحدات زخرفية ونصوص خطية.

الروضة الحيدرية في النجف

تعد مدينة النجف من أشهر الحواضر من حيث الموقع الممتاز، وما أضفاه عليها التاريخ من عراقة. تقع هذه المدينة على بعد 10كم من مدينة الكوفة القديمة، وعلى مسافة 160كم إلى الجنوب الغربي لمدينة بغداد، ويقع بحر النجف عند جهتها الغربية. تحتضن مدينة النجف المشهد الحيدري الذي يضم قبر الإمام علي (ع)، والعديد من المشاهد والمزارات والمدارس ودور العلم. ويعتبر المشهد الحيدري من أضخم وأبرز المراقد المقدسة في العراق، وتتوسط الروضة الحيدرية مدينة النجف. وتذكر الكتب التاريخية أن الخليفة هارون الرشيد الذي حكم ما بين (170-193هـ/786-809م)، كان من أوائل الخلفاء الذين اهتموا بقبر الإمام علي بن أبي طالب (ع)، حيث أمر بتشييد بنيان عليه بالآجر الأبيض، وبنيت فوقه قبة بنيت

من طين أحمر وطرح على رأسها جرة خضراء[1]، وهي اليوم من موجودات خزانة الهدايا الخاصة بهذا المشهد .

احترق هذا البناء سنة 353هـ/964م، لذا جدد البناء من قبل البويهيين. وفي أواسط القرن الثالث الهجري أضيفت إلى المبنى قبة وحائط وسور فيه سبعون طاقاً. وفي عهد الخليفة المنتصر قام بزيارة القبر، وأمر بتشييد الضريح الشريف كما جدد المبنى أيام المعتضد، ومنذ ذلك التاريخ شمل المشهد بأعمال العمران والبناء وتوسيعات كثيرة في المرافق الملحقة به، حيث أقيمت حوله العديد من المدارس والزوايا والأروقة، كما أحيط بالمشهد سور ضخم يفصله عن منشآت المدينة، وشملته أعمال الترميم والتوسيع والإعمار في فترات متلاحقة إلى أن أصبح بالشكل الذي نراه اليوم. علماً أن عناصره العمارية المهمة معظمها يرجع إلى أواخر النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري.

وتتألف أبنية الروضة الحيدرية، وكما هو الأمر في أبنية الروضة العباسية والحسينية والكاظمية، من صحن فسيح وجدران ضخمة تلتصق بها أواوين تحتوي على غرف صغيرة، ومداخل ضخمة نافذة في السور. وتمثل غرفة القبر مركز الحضرة، وتتميز هذه الغرفة بارتفاع جدرانها وقبتها العالية. والروضة الحيدرية اليوم بناء مربع الشكل طول ضلعه 110 أمتار، وأرضيتها مفروشة بالرخام الجيد، وكذلك الجدران بارتفاع مترين، وما يعلو ذلك، فقد كسي بالمرايا الملونة والفسيفساء والزخارف. وتمثل غرفة القبر مركز الحضرة التي تتميز بارتفاع جدرانها وقبتها العالية، وهي مربعة الشكل طول ضلعها 13متراً من الخارج، وتتصف بسمك جدرانها البالغة 3,5 م، أما ارتفاعها فعشرة أمتار. وترتكز على هذه الجدران قبة الحضرة، وهي من نوع القباب المزدوجة على غرار قبتي الروضة الكاظمية، قطر القبة الداخلية 16 متراً، وشكلها نصف كروي، أما الخارجية فشكلها بصلي. وتشتهر القبة بارتفاعها، حيث ترتفع قمتها 35 متراً عن مستوى سطح الأرض.

ترتكز هذه القبة على رقبة أسطوانية طويلة على غرار قبة الإمام الكاظم، فتحت فيها نوافذ لغرض التهوية، وطليت هذه القبة والرقبة من الخارج بالذهب، ومن الداخل بفصوص الفسيفساء الخزفية ذات الألوان البراقة، وفي داخل الروضة، وعلى يسار الداخل، تقع الخزانة التي تضم الأحجار الكريمة والهدايا النفيسة.

---

(1) مهدي، علي، مدينة النجف الأشرف، بغداد، 1986، ص 128.

وكسيت أرضية الضريح، وعلى ارتفاع مترين، بمرمر إيطالي أخضر مجزع يقوم فوقها شريط من الكتابة دونت بخط الثلث تمثل آيات من القرآن الكريم بلون أبيض على أرضية زرقاء، أما بواطن الحنايا والعقود، فقد غطيت بزخارف نباتية وهندسية نفذت بدقة متناهية، هذا بالإضافة إلى قطع الفسيفساء المصنوعة من المرايا والذهب، وقد استخدمت تشكيلات بالمرايا في كساء الجزء العلوي من المبنى.

وفوق هذه التشكيلات أقيم شريط آخر من الكتابة يدور حول رقبة القبة، وفي الجزء العلوي من الرقبة أقيم شريط آخر، وهذا الشريط يضم أسماء الأئمة الإثني عشر.

وفي وسط الحضرة صندوق من الخشب المرصع بالعاج، أحيط بسورين أحدهما من الفولاذ والآخر من الفضة. وللروضة ستة أبواب بعضها مصنوع من الذهب وبعضها من الفضة، أهمها الباب الأول الذي يقع في وسط الإيوان الذهبي. وهي بوابة ذهبية مطعمة بالميناء والأحجار الكريمة. ويحيط بغرفة الضريح رواق، ارتفاع جدرانه بارتفاع جدران غرفة القبر. تغطي الرواق قباب نصف كروية وأقبية نصف أسطوانية، أما جدران الأروقة الخارجية، فهي ضخمة طولها عشرون متراً وعرضها خمسة أمتار ؛ أي بعرض الرواق نفسه. وقد حول المعمار هذا العرض إلى مجموعة من الحنايا والأواوين والمداخل من الداخل والخارج، وهذه الصفة متبعة أيضاً في بناء الحضرة الكاظمية. ويتصل الرواق بالصحن بواسطة خمسة أبواب أشهرها ثلاثة بهيئة أواوين تخترق الجدران الجنوبية والشمالية والشرقية. وهذا الإيوان فسيح وشاهق يعلوه عقد مدبب، وعلى جانبه تقوم مئذنتان مذهبتان، هذا بالإضافة إلى الأشرطة التي تحيط بها، فقد دونت بخط متقن، كما أن جميع واجهات هذا الإيوان مطلية بالذهب ومطعمة بالميناء ومزدانة بزخارف من الرقش العربي ونصوص خطية دونت بخط الثلث، وشغل الجزء العلوي من الأبواب بصفوف من المقرنصات مكسية جميعاً بالذهب الخالص. ومما يجلب الانتباه أن واجهات جدران الحضرة من الداخل والخارج ازدانت بتشكيلات متنوعة من الزخارف الدقيقة والألوان البراقة، منفذة معظمها على البلاطات الخزفية وبعضها على المرايا، وقد استخدم كل من الذهب والفضة والمينا في تشكيل وإكساء هذه الزخارف.

تطل الروضة على صحن فسيح مستطيل الشكل قياسه 74x85م، وفيه خمسة أبواب أهمها الباب الكبير الكائن قبالة سوق النجف الشهير، يتوج الأواوين القائمة

فيها مجموعة من العقود تزدان واجهتها وبواطنها بفسيفساء متقنة من الخزف نتج من تصنيعها إحداث زخارف نباتية وهندسية نفذت بدقة[1].

وتحف بهذا الصحن من الداخل مجموعة من الأواوين البعض منها من طابقين تطل بعقود مدببة، ويتقدم الأواوين حجرات صغيرة بلغ عددها في الطابق العلوي 78غرفة، وبلغ مجموعها 27 في الطابق الأرضي، خصص بعضها لطلاب العلوم الدينية أو لدفن بعض الشخصيات البارزة. ازدانت واجهات هذه الأواوين بزخارف نباتية وآيات من القران الكريم على شكل شريط يحيط بالواجهات، وإلى جانب ذلك نجد عناصر عمارية وزخرفة نفذت بشكل دقيق وبديع على واجهات نوافذ الحجرات القائمة في الأواوين. ومما يلفت الانتباه أنها غير متشابهة من حيث التكوينات الزخرفية، مع أنها نفذت جميعها بطريقة التفريغ (مخرمة) (شكل رقم 27).

ولا تزال بلاطات الخزف التي تعود إلى فترة الحكم العثماني تغطي مساحات واسعة من جدران الضريح والصحن، الأمر الذي يدل على مدى عناية العالم الإسلامي واهتمامه بهذه الحضرة الشريفة. لقد توالت الترميمات والتجديدات عليها في كل العصور وما تزال مستمرة إلى يومنا هذا، إذ تمت إعادة ترميم وإعادة تذهيب مرافقها، ولأول مرة تم تذهيب الشباك الذي يعلو القبر بعد أن كان من الفضة، هذا إلى جانب الأعمال العمرانية الشاملة، وإقامة أجنحة جديدة ملحقة بالمشهد، منها مكتبة ضخمة، ودار للمخطوطات، إضافة إلى دار للضيافة خاصة بزوار المشهد.

الروضة الحسينية

تقع الروضة الحسينية في المنطقة المعروفة بالحاير في مدينة كربلاء على بعد 105كم إلى الجنوب الغربي من بغداد. وقد برزت كربلاء على مسرح الأحداث بعد معركة الطف، لأن الحياة في بلاد الرافدين اعتادت أن تنمو حيث تتوزع قبور الشهداء، وهكذا بدأت كربلاء تتدرج في النمو والازدهار حتى أصبحت مدينة مهمة.

تحتضن مدينة كربلاء مرقدي الإمام الحسين وأخيه العباس ورفات سبعة عشر من شهداء واقعة كربلاء المشهورة[2] سنة 61هـ/680م. والمعروف أنه تم

---

(1) د. غازي، العمارات العربية، ص 419.

(2) د. عيسى، العمارات العربية، ج 2، ص 141. وعلي مهدي، مدينة كربلاء، إصدار وزارة الثقافة سنة 1986، ص 6.

تأسيس عمارته على قبور الشهداء سنة 65هـ/684م، وشهدت الروضة تغييرات وتطورات عمرانية عديدة منذ بدأ تشييدها. ويذكر المؤرخون أن المختار بن عبيد هو الذي شيد الضريح، وأسس قرية صغيرة حوله. وقد بقي المزار في عهد بني أمية معموراً، ثم أعاد المأمون بناء المزار وبعده حفيده المنتصر، إلا أن البناية التي شيدها المنتصر تداعت، فقام بتجديدها محمد بن زيد القائم بطبرستان. وفي سنة 379هـ/980م جرى ترميم عام في المشهد، وفي عهد علي باشا والي بغداد جدد بناء القبة، ثم توالت الترميمات بعد ذلك من قبل الصفويين والعثمانيين، ثم تمت صيانة وتجديد المبنى من قبل الأوقاف فيما بعد.

أما العمارة والتخطيط الحالي للمبنى، فهي ما أمر به السلطان أويس الجلائري عام 767هـ/1365م، وقد استغرق البناء حوالي 11سنة، حيث أكمل عام 786هـ/1384م (د. عيسى : العمارات العربية الإسلامية، 141). ويعتقد د. غازي أن التخطيط الحالي للمبنى يرجع في أصوله إلى القرن الثامن الهجري، وهو يمثل طرازاً ساد في تخطيط عدد من الأضرحة اللاحقة.

واهتم الصفويون بمشهد الإمام الحسين بن علي، وبذلوا الأموال الطائلة لتزيينه وطلاء قبته ومئذنته وإيوانه بالذهب والفضة والمرايا والمينا، وكان ذلك عام 932هـ/1525م، كما تم توسيع الصحن وبناء برج الساعة[1].

كما ساهم العثمانيون في تجديد وإضافة مباني ومرافق جديدة إليه، إذ أمر السلطان سليمان العثماني سنة 941هـ/1534م بتجديد القبة والمئذنتين، وقد سجلت جميع هذه الترميمات والتجديدات بكتابات دونت على جدران المبنى.

وبناء الضريح مستطيل الشكل قياسه 95x125 متراً، وأما أبنية الحضرة فهي تتكون من الضريح وصحن واسع، ومن سور يحيط بهذه الأبنية، ويفصلها عن المباني المحيطة بها (شكل رقم 28).

وبناء الروضة مبني ومشيد بالآجر والجص، ومكسو بأروع القراميد الخزفية والتحليات الزخرفية العمولة من الذهب ومرايا وقراميد مزججة وميناء. وتمثل أبنية الحضرة قلب العمارة، وشكلها مستطيل قياسها 55x45 متراً. ويتوسط قبر الحسين غرفة القلب في هذه البناية، وهي عبارة عن قاعة مربعة الشكل تغطيها

(1) علي، المصدر السابق، ص 7.

قبة مرتفعة ترتكز على أربع دعامات ضخمة يبلغ ارتفاع هذه القبة 27 متراً عن مستوى سطح الأرض، وهي بصلية الشكل ذات رقبة طويلة فتحت فيها نوافذ لغرض الإنارة والتهوية. وطراز هذه القبة يشبه قبة الروضة الحيدرية، وبناء قبة جامع الأحمدية، والحيدرخانة في بغداد. وأقيمت الحنايا في مراحل انتقال القبة، وداخل هذه الحنايا أقيمت صفوف من المقرنصات كسيت بطونها بمرايا غاية في الجودة والدقة والإتقان، كما كسيت واجهات كوشات العقود وبطونها بمرايا، وتمتد هذه لتشمل المسافة القائمة ما بين النوافذ، هذا بالإضافة إلى أشرطة من الكتابات تمثل آيات من القرآن الكريم أقيمت في رقبة القبة على غرار قبة الروضة الحيدرية.

وأجمل ما نراه في غرفة الضريح هو التشكيلات الزخرفية الحلزونية التي تشغل باطن القبة من الداخل، وهي مغطاة بالمرايا تماماً من الداخل. وأقيم فوق القبر صندوق صنع من الفضة تعلوه صفائح من الذهب ترتفع في أركانه رمانات ذهبية، وهذا الصندوق يغلف صندوقين أحدهما معمول من خشب مطعم بالعاج، وثانيهما مصنوع من الفولاذ، ويحيط بذلك شباك من الفضة مطعم بالذهب، والميناء تعلوه صفائح من الذهب. وقد جدد الشباك وصنع القسم العلوي منه من الذهب مؤخراً، وللحضرة عدة أبواب من الذهب والفضة تفضي إلى رواق.

طليت القبة والرقبة بالذهب من الخارج عدا الشريط الذي يعلو الرقبة، فهو يزدان بقراميد خزفية ذات نصوص خطية دونت بخط الثلث تمثل آيات من القرآن الكريم، دونت بلون أبيض على أرضية زرقاء، وزينت القبة من الداخل بألواح خزفية جميلة وقطع المرايا الصغيرة متعددة الأشكال نفذت بدقة متناهية.

وعلى جانبي القبة مئذنتان شاهقتان مكسوتان بالذهب الخالص تتجلى فيهما الريازة العربية الإسلامية، وهما تتميزان بضخامة بدنهما. وتستند شرفة المؤذن على صفوف من المقرنصات الجميلة، ويغطيها سقف يستند على أعمدة على غرار شرفة مئذنة الروضة الحيدرية في النجف، ومآذن ضريح الإمام الكاظم في بغداد.

وهذا الطراز وجدناه في بناء مآذن الأضرحة فقط في العراق، ولم نجده في بقية المآذن الأخرى التي وصلت إلينا في العراق. وهذا الطراز أصوله عراقية، إذ وجدناه في بناء ملوية سامراء، إلا أن شرفة هذه المئذنة سقطت بسبب الظروف الجوية، ولأن سرعة تلف مادة الخشب التي صنعت منها هذه السقيفة حال دون وصولها إلينا، فكل ما تبقى منها هو فقط الحفر القائمة حول بدن قمة المئذنة. وهذا يفند الرأي القائل بأن هذا الطراز أخذ من بناء مآذن إيران.

يحيط بالحرم من ثلاث جهات رواق عريض ضخم، يجعل القسم الشمالي منه بهيئة مسجد تقام فيه الصلاة قياسه 10x25م، وفي منتصف جزئه الشمالي يتصل بالرواق الثاني، وصفوف هذه الأروقة مقببة ومحلاة بعقود وحنايا قائمة في مراحل انتقال القباب، ازدان معظم واجهاتها بالمرايا والزخارف الهندسية الجميلة، وفتحت فيها سبعة أبواب تؤدي إلى الحرم الذي يضم قبر الحسين. كما تطل الروضة على الصحن من الجهة الجنوبية على طارمة واسعة تتقدم هذا القسم من الحضرة، ويرتفع سقف هذه الطارمة بمستوى أعلى من بقية أجزاء هذا البناء عدا القبة والمئذنتين، ويستند سقفها على أعمدة خشبية ذات تيجان مقرنصة، ويتوسط هذه الطارمة إيوان مرتفع يؤدي إلى الرواق، ومنه إلى القبر مباشرة. ويعرف هذا الإيوان بإيوان الذهب، حيث تغطي المقرنصات المدلات التي تشغل حنية عقده المذهبة، وكذلك جوانبه. وهذا الطراز من الطارمة وجدناه في بناء ضريح الإمام الكاظم.

يطل الحرم والأروقة المحيطة به على صحن فسيح تفصله عن الشوارع التي يحيط بها جدران عالية تخترقها مداخل، منها مدخل باب القبلة الذي يقوم داخل إيوان ضخم ومرتفع تزين واجهته بلاطات خزفية في غاية الدقة، ومنها باب قاضي الحاجات، كما يطل على الصحن سلسلة من الغرف الصغيرة يبلغ عددها 65 غرفة.

لقد امتازت هذه الروضة بسعة قبتها وكثرة أواوينها الجميلة المزخرفة بالقاشاني والفسيفساء. يبلغ طول الصحن 95x75 متراً، وله عشرة أبواب، ولكل باب عقد مدبب يطل بواجهة مزخرفة بالفسيفساء المصنوعة من الآجر المزجج البديع الشكل، ويحيط بالروضة 65 إيواناً، وفي كل إيوان حجرة زينت جدرانها من الداخل والخارج بالقراميد الخزفية ذات زخارف نباتية وأزهار نفذت بألوان براقة أعدت هذه الغرف كسكن لطلاب العلم، كما أعد بعضها مقابر للسلاطين والملوك الكبار ورجال الدين.

ومن المظاهر المعمارية البارزة في هذا الضريح، المآذن المزدوجة القائمة على جانبي المدخل الرئيسي للمرقد. وامتاز المبنى بالمداخل الضخمة القائمة في جدرانه، وبالقبة البصلية التي تغطي المرقد، إضافة إلى المقرنصات التي استخدمت عنصراً عمارياً وزخرفياً، وهي مغطاة بالذهب وقطع المرايا والبلاطات الخزفية.

الروضة العباسية

تقوم هذه الروضة إلى الشمال من الروضة الحسينية بمسافة 350م، وهي على غرار الروضة الحسينية، وكان الاهتمام بقبر العباس منذ البداية كبيراً[1]. وقد تولى تشييدها وتعميرها كل من تولى تعمير الروضة الحسينية في الأدوار المتعاقبة. والإمام العباس هو أخو الإمام الحسين، واستشهد معه في موقعة الطف في 10محرم سنة 61هـ/680م. تبلغ مساحة الروضة 370 متراً مربعاً، وتخطيط هذه الروضة يختلف في الأساس عن تخطيط الروضة الحسينية إلا في عدد الأروقة التي تحيط بغرفة الضريح. يتألف تخطيط الروضة من صحن فسيح يحيط به مجموعة من الأواوين والحجرات الصغيرة، وله ثمانية أبواب، وفي وسط هذا الصحن تقوم الروضة العباسية، وتعلوها قبة ذهبية ضخمة قطرها 12متراً، وهي تشبه قبة جامع المهدي في سامراء من حيث الشكل والزخارف. ازدانت رقبتها بآيات قرآنية وزخارف مطعمة بالميناء، وعلى جانبيها مئذنتان شاهقتان، استخدمت البلاطات الخزفية في كساء البدن، وهي ذات زخارف نباتية وألوان براقة، وعليها كتابات دونت بخط كوفي. ويستند الحوض على صفوف من المقرنصات تقوم فوقها شرفة يغطيها سقف يستند على أعمدة خشبية قائمة على حافة الحوض، على غرار قباب الأضرحة السالفة الذكر في النجف، وكربلاء، وضريح الإمام الكاظم في بغداد. ويتوج رقبة المئذنة قبة نصف كروية مضلعة، وهذا الجزء العلوي الذي يأتي بعد الشرفة مكسو بالذهب الخالص.

وبناء الروضة متين ذو مظهر ضخم وكساء جميل بالقراميد الخزفية ذات ألوان براقة نفذت بدقة، وتتوزع الأبنية حول غرفة القبر التي تمثل القلب فيها وتنفتح على الرواق الذي يطوقها. والأبواب تتوسط كل منها جدران الغرفة الأربعة، أما القبر، فهو مغطى بصندوق فضي مشبك ضخم، وتنفتح غرفة القبر من الناحية الشمالية على مسجد الحضرة، كما يطوق المسجد وغرفة الضريح من ثلاث جهات رواق بعرض أربعة أمتار تطل عليه عدد من الأواوين والغرف. وسقف الرواق مقبب، وفي مراحل انتقال القباب أقيمت مقرنصات مغلفة بقطع من المرايا.

يقود الرواق الجنوبي إلى إيوان ضخم يتوسط الجدار، وهو يمتاز بارتفاعه، تحف به مئذنتان تندمج قاعدتاهما بهذا الجدار، وتشبهان في موقعهما إيوان مئذنتي الروضة الحسينية.

---

(1) د. عيسى، المصدر السابق، ج 2، ص 156.

وتتقدم الضلع الجنوبي من المبنى سقيفة (طارمة) صممت بطريقة معينة، بحيث يرتفع القسم الوسطي منها بتناسق مع ارتفاع الإيوان. يستند سقف هذه الشرفة على أعمدة خشبية ذات تيجان مقرنصة، وزينت جدران هذه الطارمة وسقفها بزخارف هندسية ونباتية وبألوان براقة على بلاطات خزفية، هذا بالإضافة إلى عنصر الخط الذي لعب دوراً مهماً في تدوين النصوص القائمة على واجهات المبنى والتي تمثل معظمها آيات من القرآن الكريم.

وكما قلنا، يطل بناء الضريح على صحن فسيح يمكن الدخول إليه بواسطة خمسة أبواب بالإضافة إلى المدخل الرئيسي، أطلق على بعضها أسماء، منها باب صاحب الزمان، وباب الرضا، وباب الدرة، وقد كسيت جميع هذه المداخل والمباني المطلة على الصحن بقراميد خزفية ذات تشكيلات زخرفية تمثل زخارف من الرقش العربي، هذا بالإضافة إلى أنواع من الأزهار، منها وردة الجوري تخرج منها زهرات. وهذا النوع من الزخارف وجدناه بصورة عامة يزين معظم هذه الأضرحة القائمة في العراق، و هذا يؤكد أصالة العناصر الزخرفية.

وقد شملت مدينة كربلاء بما فيها الأضرحة المقدسة بمشاريع ضخمة ضمن منهاج التنمية والرعاية تتفق مع قيمتها التاريخية والحضارية.

الفصل الرابع

المؤسسات التعليمية في العراق

المبحث الأول

المؤسسات التعليمية في العراق قبل فترة الحكم العثماني

المدرسة النظامية

بغداد أم المدارس ومجمع دور العلم وموضع خزائن الحكمة ودور الحكمة، قامت فيها مدرسة أبي حنيفة، والمدرسة النظامية أم المدارس، والمدرسة المستنصرية سيدة المدارس، وازدحمت فيها خزائن الكتب، وحوانيت الوراقين، ودكاكين الكتب والمكتبات[1].

لقد عرفت بغداد بكثرة مدارسها حتى قيل إنها تجاوزت الثلاثين مدرسة ومعهداً علمياً، لكل منها مكتبة غنية بالمجلدات والكتب النفيسة في كل فن، إلا أن معظم تلك الآثار العظيمة لم يبق منها إلا القليل، لأن عوامل الزمن ويد الإنسان العاصفة قد تضافرت على تدميرها. ومن هذه المباني، المدرسة النظامية التي تعتبر أشهر وأقدم مدرسة قائمة في مدينة بغداد، وأول مدرسة في العالم الإسلامي[2]، شيدها ببغداد الوزير نظام الملك، الوزير السلجوقي الذي يعد أول من فكر في تأسيس المدارس، كما أنه يعد أول من أسس المدارس بالشكل الحكومي الرسمي. وعلى نهج النظامية بدأ الخلفاء والأمراء إنشاء المدارس.

ابتدأ بناء المدرسة سنة (457هـ/1064م)، وتم افتتاحها في سنة (459هـ/1066م) في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله. ومما يؤسف له أن بناء هذه المدرسة قد اندثر ولم يبق منه سوى إيوان يطل على بناء المدرسة المستنصرية.

---

(1) معروف، د. بشار عواد، "التربية والتعليم"، مبحث نشر في كتاب **حضارة العراق**، ج 8، بغداد، 1980، ص 7.

(2) حيدر، كامل محمد، **المدارس العباسية القائمة في العراق**، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1986، ص 32.

ومما تجدر ملاحظته أن نظام الملك إنما قام بإنشاء هذه المدارس العظيمة في حدود متقاربة من أجل علماء مخصوصين يعينهم، فأينما وجد عالماً متميزاً يمثل منزلة مرموقة عند الجماهير بنى له مدرسة.

تقع النظامية في محلة الحظائر في السوق المعروف بسوق الخفافين إلى الجنوب من المدرسة المستنصرية، إلا أن آثارها اندثرت مع غيرها من المباني الأخرى، وكل ما تبقى منها غرفة صغيرة على شكل إيوان تطل على واجهة المدرسة المستنصرية.

كان إنشاء النظامية ومدرسة أبي حنيفة فاتحة إنشاء عدد كبير من المدارس على نمطها في الحقبة الثالثة، فانتشرت في بغداد العديد من المدارس ورد ذكرها في المصادر التاريخية والمراجع، إلا أن هذه المدارس هدمت، لذا سوف يقتصر كلامنا على المتبقي منها.

المدرسة المستنصرية

حظيت بغداد منذ أواسط القرن الخامس الهجري بإقامة العديد من المعاهد العلمية والمدارس التاريخية مستقلة عن بناء الجوامع، منها المدرسة النظامية[1] والمدرسة التاجية والكمالية[2]. وكانت هذه المدارس بازدياد مستمرحتى سقوط بغداد على يد هولاكو (656هـ/1258م).

المدرسة المستنصرية أعظم جامعة علمية أقيمت في بغداد في أواخر الدولة العباسية، كما وتعتبر أول جامعة إسلامية نظمت على غرار المدرسة النظامية، حيث جمعت فيها الدراسات الفقهية إلى جانب المذاهب الإسلامية الأربعة في بناية واحدة. وهي بذلك كانت مدرسة الفقه الإسلامي، كما درست فيها علوم القرآن والدين واللغة والطب والرياضيات، ولذلك تعتبر أقدم جامعة في العالم نظراً لتنوع موادها. ويرجح أنها كانت أول معهد ديني درس فيه فقه المذاهب الإسلامية، وقد نظمت على غرار المدرسة النظامية، وجهزت بالأقسام الداخلية والمطابخ والحمامات، وألحقت بها دار كتب ضخمة ومستشفى للتطبيب والتدريس[3]. وقد جعل المستنصر لمدرسته

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 396.

(2) معروف، ناجي، مقدمة في تاريخ المدرسة المستنصرية وعلمائها، بغداد، ص 120.

(3) باقر، طه، موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية، بغداد، 1976، ص 182.

ميزة أخرى على المدارس الإسلامية حينما أضاف لها دار القرآن ودار السنة[1]. وبذلك يمكننا أن نقول إن المستنصر هو أول خليفة في العالم الإسلامي جمع في آن واحد المذاهب الأربعة، وعلوم القرآن والسنة، وعلوم الطب، والعربية والرياضيات، وجعلها في مكان واحد أطلق عليه اسم المدرسة المستنصرية، ولم تكن المدارس التي أقيمت قبل المستنصرية كذلك[2].

شرع الخليفة المستنصر بالله العباسي في بنائها سنة (625هـ/1227م) على الجانب الشرقي لنهر دجلة بين جامع الأصفية والخفافين، وحشد لها البنائين والفنيين، فدام العمل فيها بجد ونشاط قرابة ست سنوات. وقد بلغت النفقة عليها آنذاك بحيث كان أعلى موظف فيها يتقاضى اثني عشر ديناراً، وقد تولى عمارتها أستاذ الدار مؤيد الدين أبو طالب محمد[3].

وافتتحت في الخامس من شهر رجب سنة (631هـ/1233م) ؛ أي قبل إتمام مرافقها بسنتين، وكان هذا التاريخ بداية التدريس فيها. وتدل الكتابات المدونة على واجهة صحن المدرسة، منها كتابات دونت في واجهة المدخل، على تاريخ البدء في البناء، وكان هذا سنة 630هـ.

وكتابات أخرى قائمة في واجهة المبنى المطل على شاطئ دجلة تشير إلى أن بناء الجزء الأكبر من المدرسة تم في سنة (630هـ)، في حين تؤكد المراجع العربية والمصادر الأجنبية أنها تمت سنة (631هـ/1234م). واستمر العمل في إكمال المباني التابعة لها حتى سنة (633هـ/1236م)، حيث اكتمل الجناح الخاص بالطب[4].

في سنة (633هـ/1235م) اكتمل بناء الإيوان الذي أنشئ مقابل بوابة المدرسة، وعمل تحتها صُفة يجلس فيها الطبيب، وعنده جماعته الذين يشتغلون معه بشؤون الطب، ويقصده المرضى للتداوي. واشترط أن يكون في المدرسة طبيب مرخص يشتغل معه عشرة أشخاص يجيدون مهنة الطب، وأن يعطى لهم من

---

(1) الأربلي، عبد الرحمن، **خلاصة الذهب المسبوك**، بيروت، ص 92.

(2) معروف، المصدر السابق، ص 85.

(3) بن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل الشيباني، **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، تحقيق مصطفى جواد، سنة 1932، ص 56.

(4) القصيري، اعتماد، **الأحداث وأعمال الصيانة التي جرت على المدرسة المستنصرية**، إصدار الجامعة المستنصرية، سنة 1984، ص 56.

الجرايات مثلما يعطى لغيرهم من العاملين في هذه المدرسة، وتعطى للمريض ما يوصف له من أدوية وأشربة من صيدلية المدرسة.

ساعة المستنصرية

كان في المدرسة المستنصرية ساعة مائية عجيبة الصنع، دقيقة في ضبط الوقت، وهي من طرائف الآلات الروحانية (الميكانيك) التي صنعها العرب. ومما يؤسف له أن هذه الساعة لم تصل إلينا، وإنما جاء وصفها في كتب التاريخ. وفي الوقت الذي لم تصل إلينا هذه الساعة، إلا أننا حصلنا على المزولة التي كانت قائمة في الإيوان الشرقي من بناء المدرسة، وهذه المزولة كانت تحدد أوقات الصلاة.

دار القرآن

من المباني المهمة التابعة للمدرسة دار القرآن التي ذكرها ابن الفوطي، فأشار إلى أن المستنصر اشترط أن يكون في هذا الدار ثلاثون صبياً من الأيتام يتلقون القرآن من قبل مقرئ متقن صالح، ولهم من المصروفات والتعهدات ما للمشتغلين في المدرسة بعلم الحديث. وظلت المدرسة تؤدي واجبها التعليمي سنين طويلة، وتولى التدريس فيها فطاحل المدرسين من كبار العلماء والأدباء، وأدت رسالتها الثقافية بصورة مرضية بالرغم من وفاة مؤسسها المستنصر بالله سنة (640هـ/1242م)، حيث رعاها من بعده الخليفة العباسي المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس[1].

ظلت المدرسة عامرة زاهرة بطلابها وأساتذتها مدة طويلة، ثم انتابتها المحن، فأصبحت حصناً، ثم ثكنة للجيش، ثم خاناً فداء المكوس، ومخزناً لملابس الجند. وبعدها اتخذت مخزناً لدائرة الآثار والتراث، وهي اليوم محجة للباحثين والزائرين. وبناية المدرسة تدل على عظمة وروعة العمارة العباسية.

والمدرسة مستطيلة الشكل قياسها (104/80م)، وعرضها من الجهة الشمالية (20/40م^2) ومن الجهة الجنوبية (48/80م)، وبذلك تكون مساحتها (4836م)، وكان لها مسناة لحمايتها من مياه دجلة.

وقد روعي في بناء المدرسة المستنصرية أن تكون الحجرات والغرف والقاعات والأواوين والأروقة محيطة بصحنها الفسيح (شكل رقم 29). تتألف المدرسة من طابقين، في كل طابق منها مجموعة كبيرة من الغرف والقاعات

(1) أمين حسين، **المدرسة المستنصرية**، ص 105.

والأواوين. وكان ارتفاع الأواوين الأربعة بارتفاع الطابقين معاً، وقد خصص كل إيوان منها لمذهب من المذاهب الأربعة. وقد بولغ في إتقان بناء المستنصرية وزينت واجهاتها بالزخارف الهندسية والنباتية (الرقش العربي)، مما يدل على إبداع منقطع النظير في هذا الفن الجميل، ومهارة فائقة في صنعة الحفر والريازة.

وكان بناء المدرسة يستوعب كل مستلزمات المدرسة كالمسجد، والمخازن والحمام، وحجرات الدرس، والنوم، والطعام، وخزانة الكتب، والبيمارستان، والصيدلية، والساعة، ومخازن الطعام، ولا تزال جميع هذه المباني قائمة. ومن ملحقات هذه المدرسة دار الحديث، وقد بقي منها إيوان فائق الزخرفة، ودار القرآن. كما تضم المدرسة في الإيوان الجنوبي، المسجد ومحراب المصلى والحجرات، وعددها لا يقل عن مائة حجرة بنيت بأحجام مختلفة كبيرة وصغيرة ومتوسطة.

المكتبة

ألحقت بالمدرسة مكتبة ضخمة ما زالت قائمة، كانت تحتوي على كتب ثمينة. وللمكتبة خازن ومشرف ومناول. ومن أشهر خزنة مكتبة المستنصرية المؤرخ البغدادي ابن الساعي وابن الفوطي. وكان للمكتبة ناظر، أما هيئة التدريس، فهي تتألف من المدرسين والمعيدين، وكان الطلاب يعيشون في المدرسة ويزودون بالملابس والطعام، وكانوا يفدون عليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

لقد خطت المدرسة خطوات كبيرة فى منهجها العلمي والأدبي، إذ أدخلت دراسة علوم الطب لأول مرة في مدارس بغداد، والعلوم الأدبية، والعلوم الرياضية. كما درست فيها العلوم العقلية، مثل المنطق، وعلم الكلام، والأصول، وشملت العلوم الطبيعية الطب والصيدلة وعلم الحيوان.

وكان الطالب هو الذي يختار المادة التي يدرسها، كل حسب ميله واختصاصه، والمدرس هو الذي يختار مادة الدرس، وهو الذي يمنح الطلبة الشهادة.

استمرت المستنصرية تؤدي واجبها الثقافي حتى داهم المغول بغداد سنة (656هـ/1258م) ، فتوقفت عن التدريس، وتعطل التدريس فيها مدة من الزمن، ثم افتتحت لاستكمال رسالتها الحضارية، لكن أخبار هذه المدرسة انقطعت بسبب وقوع بغداد بأيدي الطامعين من مغول وجلائريين وتركمان وفرس. وقد أسيء استخدامها، ونهبت كتبها، واقتطعت بعض أجزائها، فاستحوذ الطامعون على أوقافها وأملاكها. ومنذ ذلك التاريخ تقلبت بها الأحوال فاتخذت لغير ما بنيت من

أجله، حتى تمكنت الهيئة العامة للآثار أن تضع يدها على هذا الصرح الثقافي الذي كان أيام العباسيين يشع بأنوار المعرفة والعلم. وفي سنة 1945 شرعت دائرة الآثار في صيانة المبنى وإصلاح ما تبقى منه، ليظهر بالصورة التي يعيد فيها إلى المدرسة سالف فخامتها وبهائها، ويكفل لها البقاء، ويعود بها إلى سالف مجدها الذي تجلت فيه روعة فن العمارة والزخارف البديعة التي تزين واجهاتها أقواساً بمختلف الأشكال الهندسية والنباتية، وهذه الزخارف نفذت محفورة على الآجر بدقة بمختلف الأحجام والمستويات.

وبغية الاستفادة من هذه البناية الفريدة من نوعها، وفتحها للجمهور بصورة دائمة، فقد اتخذت من بعض قاعاتها وغرفها معارض فنية.

المدرسة الشرابية في بغداد

شيدت في العراق خلال القرن السادس الهجري عدد من المدارس المستقلة كان لها الدور الكبير في نشر الثقافة والعلوم بأنواعها المختلفة. ومن المدارس المستقلة التي أقيمت في بغداد المدرسة الشرابية ؛ سميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها شرف الدين إقبال الشرابي الذي عرف بحبه للعلم، فأنشأ ثلاث مدارس للشافعية، الأولى بناها ببغداد في عهد الخليفة المستنصر بالله واكتمل بناؤها في شوال سنة (628هـ/1230م)، وبنيت الثانية بمدينة واسط، والثالثة بمكة المكرمة. وقد زالت الشرابية التي بمكة، ولم يبق من آثار مدرسة واسط سوى باب شاهق على جانبيه مئذنتان وخلفه بقايا لأسس وجدارن، أما شرابية بغداد فهي لا تزال قائمة.

سميت هذه المدرسة بالمدرسة الشرفية أو الإقبالية نسبة إلى منشئها شرف الدين إقبال كما عرفت بالمدرسة الشرابية. عندما تولى المستنصر بالله الخلافة قرب الشرابي منه وجعله قائداً لجيوشه العباسية[1]، وأصبح من ذوي الشأن في الدولة، فقام بأعمال جليلة من بينها بناء هذه المدرسة. تقع هذه المدرسة في البقعة المحصورة بين باب المعظم ومحلة الميدان، وتعرف هذه المدرسة اليوم بالقصر العباسي.

تباينت الآراء حول نسبة بناية القصر أو المدرسة، فهناك من أطلق عليه إيوان القلعة، أو قصر القلعة، أو دار المسنات، أو المدرسة الشرابية. ويرجح أن

(1) الحوادث الجامعة، ص 56.

تكون هذه البناية مدرسة، مقارنة مع تخطيط المدارس المتبقية من العصر العباسي، وخصوصاً المدرسة المستنصرية.

إن أحدث الدراسات ترجح كونها مدرسة وليست قصراً. وهي المدرسة الشرابية التي أنشأها في بغداد شرف الدين إقبال الشرابي لتدريس المذهب الشافعي.

تعد بناية المدرسة من روائع فن العمارة والريازة العربية الإسلامية في العصر الإسلامي حيث اكتمل بناؤها سنة (628هـ/1220م)[1].

تقع هذه المدرسة على ضفة نهر دجلة وتعد مبانيها من المباني الجميلة الرائعة في العمارة العربية الإسلامية، تخطيطاً وبناء وزخرفة. وقد تولى الإشراف على بنائها شمس الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد وكيل الخليفة المستنصر. ويذكر أن الشرابي صرف عليها الأموال الطائلة، وأوقف لها الأوقاف المدرة.

يحتل بناء المدرسة مساحة من الأرض مستطيلة الشكل يتوسطها فناء مكشوف، يحيط به مجموعة من القاعات والغرف مختلفة الأحجام تتوزع في طابقين. ولهذه المدرسة مدخل يقع في الواجهة الجنوبية المطلة على نهر دجلة، ومدخل آخر يؤدي إلى ساحة وزارة الدفاع المجاورة له.

استمرت الدراسة فيها في عهد المغول، إذ درس في تلك الفترة القاضي نجم الدين عبد سنة (676هـ).

وصف المبنى :

يتألف المبنى من فناء فسيح يحيط به رواق من طابقين، وتشرف على الرواق مجموعة حجرات، وعددها سبع، فوقها سبع غرف صغيرة الحجم. في القسم الشمالي الشرقي منه يقوم إيوان مهيب يعد من أجمل أقسام المبنى بناء وزخرفة، ارتفاعه أكثر من تسعة أمتار، ويرتفع عقده بمستوى طابقين، سقفه بيضاوي ازدان بزخارف جميلة قوامها زخارف هندسية ونباتية جميعها نفذت على الآجر بدقة متناهية.

ويقوم خلف الغرف السبع دهليز طويل قياسه (26/70م)، وعرضه (1/28م)، وارتفاعه بارتفاع المبنى. يشرف هذا الدهليز (شكل رقم 30) على أربع قاعات كبيرة، وللدهليز خمسة منافذ تفضي إلى قاعات كبيرة. والمنفذ الواقع في الجهة

(1) معروف، المدارس الشرابية، ص 120.

الغربية يفضي إلى مدخل المبنى الرئيسي المطل على نهر دجلة، وهذا المدخل يؤدي إلى مجاز يتكون من إيوان صغير ذي زخارف آجرية بديعة يوصل إلى دهليز طويل متعامد يؤدي إلى مشتملات المدرسة. وداخل المدرسة صحن مكشوف مربع الشكل تحيط به مشتملات البناء من جميع الجهات، وتتكون من غرف صغيرة وأروقة تقوم في الجهات الشرقية والغربية، ويتوسطها إيوان كبير في الجهة الشمالية، تشغلها قاعة كبيرة مفتوحة على الصحن بثلاث فتحات تمثل المسجد. والمدخل الرئيسي لهذا المبنى يقع في الجهة الغربية. ويتوسط الصحن نافورة تتكون من قطعة واحدة من الحجر يقال إنها جلبت من صحن جامع المتوكل في سامراء[1]. ومن العناصر العمارية الزخرفية البارزة في هذه المدرسة، المقرنصات التي نراها تزين إيوان المدخل وسقوف وعقود الأروقة المطلة على الصحن، وهي من أجمل الزخارف الموجودة في هذه المدرسة، وقد تجلت المقرنصات بزخارفها النباتية الدقيقة، وتنوع زخرفتها، ودقة تنفيذها، والإبداع في حفرها. في مجال الزخرفة نجد أوجه الشبه بينها وبين زخارف المستنصرية، إلا أنها تختلف من حيث التنوع و الإبداع في تصميم الأشكال الهندسية والنباتية، ومن حيث تنفيذها.

لقد لوحظ أن التخطيط العام لهذا المبنى يتوافق تماماً مع تخطيط المدارس الإسلامية التي تعود للفترة العباسية، إذ نجد مشتملات المبنى شبيهة إلى حد كبير بمشتملات جميع المدارس العباسية، وخاصة المدرسة المستنصرية التي تحدثنا عنها سابقاً. ولاحظنا مدى التشابه الكبير بين هذين المبنيين من ناحيتي التخطيط والعمارة، بالإضافة إلى ذلك، فقد عثر بين أنقاض هذه المدرسة على قطعة من الآجر دون عليها (ذلك في)، والملاحظ أن المسلمين كانوا يؤرخون الأبنية العامة دون الخاصة، وذلك تخليداً لذكرى بناء تلك الأبنية التي تعود بالفائدة على كل الناس.

كانت المدرسة مخصصة لاستيعاب خمسة وعشرين طالباً من طلبة الفقه الشافعي، وقد رتبت لهم مستلزمات الدراسة والسكن والطعام والدواء، وخصصت مكتبة لها يديرها خازن مسؤول عنها، وعين الشيخ تاج الدين محمد بن الحسن مدرساً (635هـ/1355م).

---

(1) غازي، المصدر السابق، ص 22.

المدرسة الشرابية في واسط

نشطت الحركة الفكرية في واسط التي أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفي في الربع الأخير من القرن الأول الهجري إثر ضعف هذه الحركة الفكرية في كل من البصرة والكوفة بعد القرن الثالث الهجري، مما أدى إلى هجرة عدد من علمائها، ولاسيما علماء البصرة إثر حركة الزنج سنة (282هـ/895م)[1]. وأخذ هذا النشاط يزداد وينمو في القرون التالي،ة إذ شهدت واسط نشاطاً علمياً واسعاً، ولاسيما في علوم القرآن حيث كانت تعد من أبرز المراكز الفكرية في العراق في هذه العلوم، يقصدها كثير من طلبة العلم. وقد ذكرت كتب التراجم أعداداً من العلماء الواسطيين في العصور العباسية المتأخرة أمثال جمال الدين الدبيثي الواسطي (558-638هـ/1162-1239م)، مما يدل على ازدهار الحركة الفكرية فيها.

والمدرسة الشرابية (632هـ/1234م) المنسوبة إلى شرف الدين إقبال بن عبد الله الشرابي تـ (653هـ/1255م) مؤسس شرابية بغداد السالفة الذكر، ويقال لها الشرفية[2]. أسست هذه المدرسة بواسط لتدريس المذهب الشافعي كغيرها من المدارس الشرابية. وقد أوقف الشرابي على مدرسة واسط الأوقاف الجليلة ورتب لها مدرساً ومعيدين اثنين وعشرين فقيهاً، وأول من درس فيها هو أحمد بن نجا الواسطي وكان معه معيدان[3]، ومن مدرسيها قاضي واسط عماد الدين القزويني.

تقع هذه المدرسة بالجانب الشرقي من واسط، تطل على نهر دجلة ومجاورة لجامع كان متهدماً فأمر الشرابي بتجديد عمارته[4]، وكان المتولي لعمارتها أبو حفص عمر بن أبي بكر إسحق الدورقي الذي كان يتولى أمور الشرابي، ومن أعماله العمرانية بناء المدرسة الشرابية.

لقد ذكرنا أن المدرسة الشرابية والعمارات الأخرى تقع في الجانب الشرقي من واسط، ولا نجد في هذا الجانب سوى باباً قائماً وخلفه بقايا الجدارن لبناء المدرسة. وتعرف خرائب هذا الباب بمنارة واسط الأثرية، بسبب وجود المنارة

---

(1) بجشل، أسلم ابن سهل بن أسلم بن حبيب الواسطي، تاريخ واسط، 1967، ص 47.

(2) حضارة العراق، ج 8، ص 128.

(3) الحوادث الجامعة، ص 76.

(4) المصدر نفسه، ص 76.

القائمة شطر المدينة بالجانب الشرقي منها، وهذا الجزء هو الوحيد من خرائب واسط لم يكن مطموراً تحت الأرض، ويقع في الطرف الشمالي من بناء واسط الشرقي. وتؤلف الآثار المتبقية هذه باباً واسعاً يرتفع فوقه عقد مدبب، وعلى جانبي هذا الباب منارتان، المنارة القائمة على يسار الداخل أكثر ارتفاعاً وضخامة، إذ بلغ ارتفاعها (11م)، وهي جوفاء تزدان بزخارف آجرية، أما المنارة الثانية فهي صماء، كما أنها خالية من الزخارف الآجرية (شكل رقم 31).

تشغل البناية الواقعة خلف باب المدرسة مساحة من الأرض قياسها (52x24م) تقريباً، مخططها غير منتظم ويتجه محورها الطولي نحو الشمال الغربي، وعند اجتياز الباب يظهر دهليز قصير على جانبيه حجرتان، وهو يفضي إلى فناء واسع، وخلف هذا الفناء بقايا جدران قبة مثمنة الشكل، وفي هذه الفسحة حجرات عديدة. ويعتقد الدكتور ناجي معروف أن هذه البناية كانت المدرسة الشرابية التي تم افتتاحها سنة (634هـ/1236م)، وهذا ما تؤيده التنقيبات الأثرية التي أجرتها الهيئة العامة للآثار عام 1941.

وعند مقارنة باب هذه المدرسة، من حيث الطراز والتخطيط والزخرفة، بأبواب المدارس التي أقيمت في بغداد، ومنها المدرسة المستنصرية، والمرجانية، يتبين لنا أنها مشابهة لها إلى حد كبير من حيث التخطيط مع مدارس بغداد. ويحتمل أن تكون بوابة واسط هي بوابة المدرسة المستنصرية. ومما يؤكد هذا القول ما أشار إليه الدكتور ناجي معروف بأنه قد ورد ذكر افتتاح هذه المدرسة في واسط استناداً إلى كتاب الحوادث الجامعة (حوادث سنة 632هـ/1234م). ولعل مرافق المدرسة قد تحولت مع الزمن إلى رباط أو ملجأ للفقراء، مما أدى إلى حدوث بعض الإضافات والتحويرات في أقسام هذه المدرسة، والتي لا تعتبر من البناء الأصلي لوجود قبور ومحراب ومصلى يرجع تاريخها إلى سنة (750هـ/1349م)، بحسب تاريخ شواهد القبور التي عثر عليها من قبل هيئة الآثار عام 1941.

المدرسة المرجانية

منذ عام 656هـ/1258م، إلى عام 914هـ/1508م، حكمت بغداد الأسر المغولية، والأيلخانية والجلائرية. خلال العصر الجلائري، عندما تمكن حسن الصغير من استغلال ضعف الدولة المغولية الأيلخانية التي لم يمض عليها قرن من الزمان والتي أسسها هولاكو، أن يعلن استقلاله في سنة (740هـ/1340م). وتمكن

من تأسيس الدولة الجلائرية التي شملت العراق وطبرستان وديار بكر، وأصبحت بغداد عاصمة لهذه الدولة، وقد استمر الشيخ حسن في الحكم حتى سنة (757هـ/1357م)[1]، حيث توفي تاركاً لابنه السلطان أويس مسؤولية الحكم حيث حكم مدة طويلة حظيت بغداد خلالها ببعض الرعاية، وبني في بغداد خلال هذه المرحلة أبنية متعددة لم يصل إلينا منها سوى أثران مهمان، هما المدرسة المرجانية، وخان مرجان، أما الأبنية الأخرى فقد ضاعت معالمها، و لم يبق منها إلا أسماء بعضها، وإشارات وردت في كتب المؤرخين والرحالة.

من الآثار القيمة والجميلة، المدرسة المرجانية، والمعروفة اليوم بجامع مرجان بناها أمين الدين مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن الأولجتابي السطاني، استنابه السلطان أويس الجلائري على بغداد، وكانت مدة ولايته فترة رعاية للعلم والنهوض به والعناية بصحة الناس عامةً. وكان قد أنشأ لتحقيق ذلك معاهد خيرية تتولى القيام بهذه المهمة. ومن تلك المعاهد كانت المدرسة المرجانية التي تهدمت في هذا القرن، وأقيم في مكانها المسجد المعروف الآن بجامع مرجان، ولا تزال بعض من مبانيها قائمة، منها المدخل الجميل وإحدى منارتيها إلى جانب المسجد.

تطل المدرسة المرجانية على شارع الرشيد عند التقائه بسوق الشورجة الحالي، وقد بنيت في حارة العلم التي كانت قريبة منها المدرسة المستنصرية والنظامية، وقد جاءت مدرسة مرجان لتحل محل المدرسة النظامية التي مضى عليها ثلاثة قرون، ولم يقو كاهلها على احتمال وطأة الزمن لضعفها، فتداعت وصارت أثراً بعد عين.

سميت المدرسة بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها أمين الدين مرجان كما قلنا سابقاً، وقد كملت في سنة (758هـ/1357م)، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة لضمان دوامها والعناية بها، وقد سجلت الأوقاف التي أوقفها مرجان على جدران المدرسة.

خصصت هذه المدرسة لتدريس المذهبين الحنفي والشافعي والعلوم الدينية الأخرى.

وقد أجريت على هذه المدرسة بعض التعديلات، ومع هذا فقد تبقى منها بعض العناصر العمارية حتى سنة 1945، حيث هدم معظمها لغرض توسيع شارع الرشيد

(1) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج 1، ص 534.

ولم يبق منها سوى مدخلها والمئذنة الملاصقة له، وقد بني بعد ذلك مسجد صغير بجوار المدخل، وزينت جدرانه بالزخارف والكتابات الأصيلة التي كانت قائمة في المصلى القديم للمدرسة. ولأهمية هذه الزخارف من الناحية الفنية، قامت الهيئة العامة للآثار بالحفاظ عليها خلال العصور التاريخية المختلفة، منها قيام سليمان باشا الكبير والي بغداد سنة (1200هـ/1285م) بتوسيع المصلى، ثم طليت بالجص في عهد الوالي مدحت باشا سنة (1288هـ/1871م)، وفي سنة (1354هـ/1926م) اهتم الوزير الشيخ محمد أمين علي باشا برفع أرضية المصلى، واستحداث الطارمة أمام بيت الصلاة، ووسع أبواب المصلى الثلاثة، وطليت جدرانه بالأصباغ، ورممت كتابات واجهة المدخل الخارجي.

تخطيط المدرسة :

بنيت المدرسة على أسس فنية رصينة، ولكنها أصغر من المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وكانت مبانيها منسقة وذات هندسة جميلة.

تشغل بناية المدرسة قطعة أرض مربعة الشكل مساحتها (31x33م) تقريباً، ما عدا زاويتها الشمالية فهي مبتورة. ويقال إنها كانت باب سوق كانت عليه قبة عظيمة[1]. المدخل الرئيس للمدرسة مدرج أكبر فتحته الأولى (3.5م)، والفتحة الثانية (3,3م)، والثالثة (3م)، والفتحة الصغرى (2.5م). يفتح المدخل على ممر صغير مستطيل الشكل، ثم يفتح على ممر آخر أوسع منه، والأخير يؤدي إلى إيوان يطل على صحن المدرسة، وهو مربع الشكل طول ضلعه (17.90م). ويتوسط الضلع القبلي المصلى، وشكله مستطيل مساحته (5.30x12.30م)، وهو بارتفاع طابقي البناء، وقد تكون من ثلاث بلاطات، وبلاطة المحراب أوسع من الجانبيتين. وقد سقف المصلى بثلاث قباب أكبرها القبة الوسطى، ويقابل المصلى إيوان ويقابل المدخل الرئيس غرفة تحتوي على مرقد باني المدرسة.

والمدرسة تتألف من طابقين كل طابق يحتوي على عدد من الغرف، غرف الطابق العلوي خصصت للتدريس، ويمكن الوصول إلى الطابق العلوي من غرف المدرسة بواسطة أربعة سلالم تقع في زوايا المدرسة، وكانت تزين واجهات مباني المدرسة زخارف هندسية وكتابات، وقد أتلف معظمها.

---

(1) "المدرسة المرجانية"، مبحث نشر في مجلة سومر، م 2، سنة 1946، ص 31.

المدخل:

وهو بارتفاع طابقي البناء وغني بالزخارف يتكون من مستطيل يضم في داخله ثلاثة عقود متتالية، العقد الخارجي مدبب مبروم، وعلى خاصرتي عقده زخارف هندسية ونباتية، وهذا العقد يحيط بعقد آخر مقفل ويحيط به أيضاً عقد مدبب، وهذا يحيط بأحد عشر سطراً من الكتابة النسخية مدونة بخط الثلث قائمة على أرضية مملوءة بالزخارف النباتية تشير إلى باني المدرسة. أما المئذنة فهي متصلة بالمدخل من الجانب الأيسر للداخل إلى المدرسة. والمئذنة بنيت من آجر خال من الزخرفة وبدنها أسطواني، ومحل اتصال حوض المئذنة بالبدن تقوم صفوف من المقرنصات متدرجة تشبه أسنان المنشار (شكل رقم 32).

وقد صف الآجر بصورة مائلة بحيث يكوّن هذا الشكل الزخرفي، ويحيط بهذا الحوض (شرفة المئذنة) سور زين بشريط من الآجر المزجج، أما رأس المئذنة فهو خال من الزخارف، وأغلب الظن أنها كانت مغلفة ببلاطات خرفية على غرار مآذن بغداد العباسية، ويقابل المدخل الرئيسي للمدرسة غرفة مرقد مرجان، والغرفة خالية من الزخارف والكتابات، وسقف الغرفة تغطيه قبة تقوم على بدن أسطواني مضلع. زينت رقبة القبة بزخارف هندسية، نفذت على بلاطات خزفية ملونة. ويعتقد أن مرجان قد خصص هذه الغرفة مرقداً له، وعندما توفي سنة (747هـ/1372م) دفن في هذه الغرفة وأقيمت عليها قبة.

المبحث الثاني

التعليم والثقافة خلال فترة الحكم العثماني

إلى جانب المدارس القائمة في المساجد والجوامع، أقيمت كتاتيب تدرس فيها علوم الدين واللغة. وكانت هذه الظاهرة منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكان عدد هذه الكتاتيب قليلاً لا يتناسب مع عدد سكان المدينة، ومع هذا كان الناس يتهافتون لإرسال أولادهم إليها[1]. ويبدو أن الكتاب كان قائماً منذ العصر العباسي الأول لتعليم الصبيان القراءة والكتابة، وحذر الإمام مالك من إقامة الكتاتيب في المساجد، لأن الأطفال لا يخلون من النجاسة، وبالرغم من هذا فقد اتخذت للكتاتيب زوايا في المساجد أو غرفاً مستقلة وملتصقة بها، هذا بالإضافة إلى كتاتيب أقيمت في بيوت مستقلة بعيدة عن المساجد في المحلات وفي أطراف الأسواق. إلا أن الكتاتيب التي أقيمت في فترة الحكم العثماني كانت امتداداً لأسلوب الكتاتيب القديمة، إذ كانت تسير بنفس الأسلوب وتتبع نفس المنهج الدراسي.

وكانت هذه الكتاتيب تعتبر معاهد للدراسة الابتدائية، وهي المدارس الوحيدة التي كانت قائمة في العراق قبل إنشاء المدارس في المساجد، وقد بلغ عدد هذه الكتاتيب 34 كانت منتشرة في أكثر مساجد بغداد.

من هنا نرى أن الكتاتيب كانت المرحلة الدراسية الوحيدة لتعلم الصبيان خلال الحقبة التي نتحدث عنها، قبل أن تقوم الدولة العثمانية باتباع أسلوب التعليم الحديث، وذلك في أوائل القرن التاسع عشر. وفي أوائل هذا القرن قامت الدولة بفتح مدارس حلت محل الكتاتيب والمدارس القائمة في الجوامع، وهذا النظام في العراق جاء متأخراً عن استانبول. ونذكر من هذه المدارس المدرسة القمرية أو المدرسة العمرية التي بناها عمر باشا بجوار جامع قمرية الكائن في جانب الكرخ من مدينة

---

(1) الماروني، نزل العباد في مدينة بغداد، ص 4.

بغداد سنة 1762م. خصصت هذه المدرسة لتدريس علوم القرآن والسنة، وقد تهدمت هذه المدرسة وأعيد بناؤها في فترة لاحقة.

المدرسة العلية

تعتبر المدرسة العلية من أجمل المدارس التي كانت قائمة في جانب الرصافة في مدينة بغداد، تقع على ضفة نهر دجلة، شيدها الوالي علي باشا كتخدا سنة 1176هـ/1762م، ولذلك عرفت باسمه، وكانت تدرس فيها علوم القرآن والسنة. بناء هذه المدرسة يعكس التطور الحاصل في نظام تخطيط المدارس فبدلاً من الإيوان الذي كان موضع جلوس الأستاذ وتلاميذه، أعدت فيها قاعة واسعة خاصة للتدريس (شكل رقم 33). مبنى المدرسة يتكون من طابقين، خصص الطابق العلوي للمدرسين وأرباب الفضل، والسفلي لطلاب العلم، واحتوى على قاعة واسعة خاصة للتدريس ومصلى للصلاة، وحمام للاغتسال، ومطعم، ومستشفى صغير لعلاج الطلاب، ومرافق أخرى[1].

استمرت هذه المدرسة قائمة تؤدي واجبها حتى قدوم الوالي مدحت باشا سنة 1285هـ/1268م الذي أدخل في بغداد خصوصاً، وفي العراق عموماً، العديد من الإصلاحات والمشاريع الخيرية والمؤسسات الاجتماعية. ومن المشاريع التي أنجزها خلال مدة ثلاث سنين قضاها في الحكم إنشاء عدة معاهد علمية، حيث وجد كثرة في المدارس الدينية القائمة في بغداد، والتي تخلو من أية مدرسة يتدرب فيها الطلاب على بعض الحرف والصناعات التي تعينهم على كسب قوتهم عن طريق العمل، لذلك قرر إنشاء مدرسة تهتم بنشر الثقافة الفنية فوقع اختياره على المدرسة العلية.

ولم تلق هذه المدرسة في بنائها القديم وأسلوب تدريسها هوى في نفسه، لذا أمر بهدمها ودرس ما وجد فيها من قبور، منها قبر علي باشا، وشيد في موضعها بناية جديدة على طراز آخر يغاير النمط القديم، وجعلها مدرسة خاصة للصنائع يدرس فيها الأيتام الذين لا أهل لهم، والبالغ عمرهم من العاشرة إلى الخامسة عشرة، يتعلمون صناعة التجارة والحدادة والنسيج.

---

(1) الألوسي، تاريخ مساجد بغداد، ص 8-27، العلاف عبد الكريم، بغداد القديمة، مطبعة المعارف، 1961، ص 22.

وبعد هذا التغير الذي أحدثه الوالي مدحت باشا في بناء المدرسة ونظامها التدريسي تغيرت تسميتها، وأصبحت تعرف بمدرسة الصنائع، بدلاً من المدرسة العلية، ومدة الدراسة فيها خمس سنوات يقبل فيها الطالب الذي أنهى الدراسة الابتدائية أو ما يعادلها آنذاك، وكان تدرس فيها العلوم النظرية، والجبر، والحساب، والهندسة، والتاريخ، والجغرافية، والعقائد الدينية، واللغتان العربية والفرنسية، أما الدروس العملية، فكانت تشتمل على الفروع التالية، الحدادة، والبرادة، والميكانيك، وصناعة النسيج، والسجاد، والنجارة، والأحذية.

بقيت المدرسة العلية خلال حكم مدحت باشا تسير بانتظام، وبعد موته كان نصيبها نصيب غيرها من المدارس الأخرى، حيث أصابها الإهمال، وقل عدد طلابها إلى أن جاء الوالي نامق باشا سنة 1317هـ/1899م الذي اهتم بعمارتها، وأضاف إلى أقسامها قسماً خاصاً بالتجارة، لأنه كان مولعاً بها، كما أدخل تدريس الموسيقى فيها وعين المدرسين لها، فزاد عدد طلابها، وزاد الإقبال عليها مرة أخرى حتى بلغ عدد طلابها 130 طالباً[1].

وبعد إعلان المشروطية زادت العناية بها، وكان عدد طلابها سنة 1906 لا يتجاوز 70 طالباً. استمرت المدرسة تؤدي مهمتها العلمية على أتم وجه إلى قيام الحرب العالمية الأولى (1914م)، حيث توقف التدريس فيها. وظلت المدرسة قائمة حتى سنة 1917، حيث تم دخول العراق تحت الاحتلال البريطاني، وفي أثناء احتلالهم استعملها الإنجليز كثكنة عسكرية للجند، وبعدها استخدمت معملاً لإصلاح السيارات والأدوات الميكانيكية، إلى جانب ذلك اختصت بصناعة النسيج والجلود[2].

وفي أثناء الحكم الملكي اتخذت مقراً لسكنى الملك فيصل الأول، كما اتخذت مقراً للبرلمان أي مجلس الأعيان والنواب ومجلس الأمة الملكي إلى قيام ثورة 14 تموز سنة 1958، حيث تحولت البناية إلى (المتحف الحربي)، وإلى محكمة الشعب، وأخيراً جرت صيانتها وترميمها من قبل دائرة الآثار سنة 1972، وتحولت إلى قصر الثقافة والفنون. ويشغل البناية حالياً بيت الحكمة، تيمناً بذلك البيت الذي اشتهر بالعلم والترجمة خلال العصر العباسي. وخلال حرب سنة 2002 على العراق من قبل

---

(1) الهلالي، عبد الرزاق، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني، شركة الطباعة والنشر الأهلية، بغداد، 1957، ص 168.

(2) ثامر، التطور الفيزياوي للقشلة وسراي، بغداد من 1889 إلى 1891، رسالة ماجستير، بغداد، 1978، ص 55.

القوات الأمريكية والبريطانية أشعلت النار في هذه الدار، مما أدى إلى دمار المبنى وحرق المكتبة وكل ما يحتوي من أثاث، ولم يبق منه سوى المبنى. وتسعى اللجنة المشرفة على إعمار المباني إلى صيانة هذا المبنى لأهميته الثقافية.

الوصف الحالي للمبنى:

تحتل المدرسة قطعة من الأرض تكاد تكون مستطيلة الشكل (قياس 64x29م). في الواجهة الجنوبية يقوم مدخل المدرسة، يؤدي المدخل إلى مجاز مقبب بقبة نصف كروية، ويؤدي هذا المجاز إلى يمين الداخل إلى غرفة (الاستعلامات) حالياً، استخدمت من قبل إدارة المبنى، وإلى اليسار تقوم خمس قاعات تطل هذه القاعات على رواق يطل على الحديقة الداخلية.

ويؤدي المدخل في الوقت نفسه إلى رواق طوله 39 متراً، على اليمين منه سلالم تؤدي إلى الجزء العلوي من المبنى، وبعد السلالم تأتي بنايات، منها قاعة واسعة استخدمت حالياً للعرض، ويفصل بينها وبين القاعة الثانية القائمة بجوارها مجاز، وفي نهاية الرواق إلى اليمين منه سلالم تؤدي إلى فسحة مربعة الشكل تنتهي بقاعة واسعة كانت سابقاً تستخدم من قبل مجلس الأعيان والنواب ومجلس الأمة، وحالياً تستخدم من قبل بيت الحكمة لإقامة الندوات والمحاضرات والمؤتمرات العلمية. وفي نهاية الرواق السالف الذكر سلالم تؤدي إلى الطابق العلوي الذي يحتوي على مجموعة من الغرف والقاعات. وتشير بعض المصادر إلى أن هذا الطابق كان خاصاً بسكنى العائلة المالكة. وجميع هذه الوحدات البنائية تطل على حديقة داخلية تحتوي على أشجار باسقة تطل على نهر دجلة. ومبنى هذه المدرسة لا يزال قائماً شامخاً كي تؤدي دورها العلمي على مر العصور.

المدرسة الرشيدية

من المعروف أن الحكومة العثمانية لم تهتم في بداية حكمها للعراق بإنشاء المدارس الابتدائية، وذلك لعدم توفر الحرية اللازمة لنشر التعليم من جهة، ومن جهة أخرى لعدم توفر الكادر التدريسي، لذا قامت الدولة بإنشاء المدرسة الرشيدية، والتي ضمت أيضاً صفوفاً لمرحلة الدراسة الابتدائية. لم يباشر بإنشاء المدارس الحديثة إلا في عهد الوالي مدحت باشا، حيث أقام مدرسة رشيدية واحدة في بغداد، وكانت هذه أول المدارس التي أقيمت في العراق أسسها سنة 1287هـ/1870م، أي بعد مرور ثلاثين سنة من تأسيسها في استانبول والولايات

العربية الأخرى. ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات بعد الدراسة في الكتاتيب، وهذه المدرسة على الرغم من أنها لا تحمل مقومات المدرسة بالمعنى الصحيح، إلا أنها تعتبر نقطة انطلاق لنشر مثل هذه المدارس في المدن الأخرى في العراق.

بقيت هذه المدرسة قائمة حتى إعلان الدستور سنة 1324هـ/1906م، ثم شغلت بناية المدرسة من قبل كلية الحقوق[1]، وبعد الاحتلال البريطاني شغلت البناية من قبل متصرفية لواء بغداد. والمدرسة كانت بحالة جيدة، إلا أن أحداث الحرب الأخيرة أدت إلى تهدم هذه البناية، ولم يبق منها إلا القليل، وتسعى دائرة الآثار حالياً للعمل على إعادة بنائها.

لم يكن اهتمام الحكومة بإنشاء المدارس الابتدائية الرشيدية فحسب، بل أولت اهتماماً أيضاً بنشر التعليم العسكري، وذلك بإقامة مدارس عسكرية في العراق[2] والولايات الأخرى التي خضعت لحكم الدولة العثمانية، لذا أنشأت المدرسة الرشيدية العسكرية، والإعدادية العسكرية، بالإضافة إلى مدرسة تدريب نواب الضباط[3] ليتسنى لطلاب هذه المدارس إكمال دراساتهم في الكليات العسكرية القائمة في اسطانبول وتنشئة طلابها تنشئة عسكرية بمختلف صنوف الأسلحة من بحرية، ومشاة، وخيالة، ومدفعية. واستعانت الدولة في تطوير هذه الدراسة بالخبراء الأجانب، وبصورة خاصة على إنشاء المدارس العسكرية في الولايات التي تتمركز فيها الجيوش العثمانية، لذا كان العراق في مقدمة الولايات التي أقيمت فيها هذه المدارس العسكرية، منها المدرسة الرشدية العسكرية، والمدرسة الإعدادية العسكرية.

المدارس العسكرية

أ) المدرسة الرشيدية العسكرية:

تقع هذه المدرسة في جانب الرصافة من مدينة بغداد بجوار القشلة، تطل واجهاتها على نهر دجلة أمر بإنشائها الوالي مدحت باشا، إلا أن البناء لم يكتمل فأكمله من بعده المشير فوزي باشا، وبعد الانتهاء من البناء أرخ هذا العمل بأبيات من الشعر دونت على رخامة بيضاء، وضعت على واجهة مدخل المدرسة الخارجي تنص

---

(1) المصدر نفسه، ص 56.

(2) الأعظمي، علي ظريف، **مختصر تاريخ بغداد**، مطبعة الفرات، 1920، ص 225.

(3) الخطاب، رجاء، **تأسيس الجيش العراقي وتطوره ودوره السياسي**، دار الحرية، 1970، ص 22.

على أن المشير فوزي باشا هو الذي قام بإنشاء البناء سنة 1296هـ. وكانت هذه المدرسة أول مدرسة حديثة للتحصيل العلمي، وإن كان التدريس فيها يقتصر على تهيئة الطلاب للقبول في المدرسة الإعدادية العسكرية، وكان معظم طلابها من أبناء الضباط الذين يقيمون خارج مدينة بغداد، كما كان الهدف من إقامتها أيضاً أن تضم الأيتام والغرباء، وكان يقبل قسم من طلابها على نفقة الدولة ؛ أي في المدرسة الداخلية، أما الطلاب من سكان مدينة بغداد، فكانوا ينصرفون بعد الدراسة إلى منازلهم.

مدة الدراسة فيها أربع سنوات تدرس فيها مواد مختلفة منها الجبر والهندسة والجغرافية والتاريخ واللغة الفرنسية والمثلثات والعقائد والدين والمحادثة والنحو والقراءة، جميع هذه المواد كانت تدرس باللغة التركية، لأن معظم المدرسين فيها هم من الضباط الأتراك. وبعد إنشاء دار المعلمين في الولايات العراقية أصبح كادر التدريس وملاك المدرسة كلهم عراقيون. ملاك المدرسة كان لا يزيد عن ثلاثة فقط من المعلمين. في عام 1309هـ/1891م كان مدير المدرسة أمين فيضي، وكان مدير المدرسة والمأمور والانضباط كلهم من الضباط، أما أساتذة النحو وعلوم الدين واللغة الفرنسية، فكانوا يشتغلون براتب شهري، ومن شروط القبول فيها هو أن يكون الطالب خريج الكتاب. وبعد تأسيس المدارس الابتدائية أصبح القبول فيها لمن انتهى من الدراسة الابتدائية، وعلى الطالب المتقدم للقبول في هذه المدرسة أن يجتاز الامتحان في القرآن الكريم، وأن يجيد اللغة التركية كتابة وقراءة، ويجري الطالب خلال السنة امتحاناً واحداً للصف الأول، وامتحانان للصف الثاني، وثلاثة للثالث، وأربعة للرابع. كان يغلب على المدرسة الطابع العسكري، وكانت الصلاة فيها اختيارية، والدوام بها في موسم الصيف ساعتان فقط، والعطلة السنوية تكون في شهر رمضان فقط، وبعد عيد الفطر تستأنف الدراسة فيها من جديد. ومن طلاب هذه المدرسة المؤرخ محمد رؤوف الشيخلي والمؤرخ سليمان فيضي، ونوري السعيد، وطه الهاشمي[1].

ب) المدرسة الإعدادية العسكرية :

أسست هذه المدرسة سنة 1296هـ/1879م[2] من قبل الوالي عبد الرحمن باشا، أنشئت هذه المدرسة لتنفيذ الخطة التي وضعت لنشر التعليم العسكري والحصول

(1) الفيضي، سليمان، في غمرة النضال العربي، مذكرات سليمان، بغداد، 1945، ص 59.
(2) الهلالي، المصدر السابق، ص 95.

على طلاب يكملون دراستهم في إسطانبول يتخرج الطالب بعدها ضابطاً في الجيش، مدة الدراسة ثلاث سنوات تدرس خلالها مختلف الدروس. وشروط القبول فيها أن يكون الطالب قد تخرج من المدرسة الرشدية العسكرية، ودراستها تعادل خريج المدارس المتوسطة. وكل المصادر تؤكد لنا أن هذه المدرسة كانت تقوم في بناية المدرسة الرشدية السالفة الذكر، واستناداً إلى ما رواه الشيخلي كان قد شيد للمدرسة الرشدية العسكرية بناية خاصة بها تقع في محلة الميدان مقابل دائرة البريد والبرق موقع المدرسة الإعدادية المركزية حالياً)، وبعد دوامه بالمدرسة عام 1891 بأسبوع صدر الأمر السلطاني بانتقال المدرسة الرشدية كلها إلى البناية، وبقيت الإعدادية العسكرية في بنايتها القديمة (المحاكم المدنية سابقاً).

كان طلاب المدرسة من الفقراء والأيتام وأبناء الضباط الذين يؤدون الخدمة العسكرية في الجيش خارج مدينة بغداد، والمدرسة داخلية لا يسمح للطلاب بالتغيب لأي سبب من الأسباب، والمصروفات فيها على نفقة الدولة التي تتكفل بإكسائهم وإعاشتهم. وبعد تخرج الطالب من المدرسة يرسل على حساب الحكومة إلى إستانبول لمن يريد الالتحاق بالكلية الحربية، حيث يدرس في هذه الكلية مدة ثلاث سنوات يتخرج منها الطالب ضابطاً في الجيش[1].

في عام 1899 كان عدد طلاب المدرسة 122 طالباً وعدد المدرسين 17 مدرساً. ومعظم المدرسين من الضباط الأتراك، وعلى الأخص مدرسو المواضيع العلمية والعسكرية، ومدير المدرسة نفسه مدير المدرسة الرشدية العسكرية أمين فيضي.

ولما كان إكمال الدراسة في إستانبول على نفقة الدولة، لذلك كان نصيب العراق من خريجي الكلية العسكرية كبيراً. ويذكر أن الحكم الوطني عندما تشكل في العراق عام 1921 كان في العراق عدد لا بأس به من ذوي الثقافة العسكرية، إذ كان معظم الوزراء والنواب والأعيان من خريجي هذه المدرسة.

إن أول دورة تخرجت منها سنة 1299هـ/1881م، وكان عدد طلابها ثلاثة عشر متخرجاً، ثم تتابعت دفعات المتخرجين، وآخر دورة كانت عام 1914 بعدها توقفت المدرسة عن التدريس لاندلاع الحرب العالمية الأولى. وظلت بناية المدرسة قائمة حتى عام 1917، بعدها اتخذت مستشفى، وبعد الاحتلال البريطاني عام 1921

(1) المصدر نفسه، ص 164.

اتخذت دوائر حكومية لوزارة العدلية، و الأوقاف، ومحاكم التمييز، والتمييز الشرعي، والمحكمة الشرعية، ثم محكمة الاستئناف، والمحاكم المدنية، وقد ظلت هذه المحاكم قائمة فيها حتى عام 1981[1].

لقد قدمت هذه المدرسة أعداداً كثيرة من الضباط نالوا مناصب عالية في الدولة العراقية عند تشكيل الحكومة العراقية، في مقدمتهم ياسين الهاشمي، ونوري السعيد، وجعفر العسكري، وعبد المحسن السعدون، وجميل المدفعي، ومولود مخلص، وجميل الراوي، ورشيد الخوجة.

الوصف العماري للمبنى :

تحتل بناية المدرسة قطعة من الأرض مستطيلة الشكل قياسها (58x76متراً)، تتوسطها ساحة يطل عليها بناء يتكون من طابقين، الطابق السفلي يحتوي علي مجموعة من الحجرات والقاعات تقوم أمامها بائكة تطل على الفناء بعقود نصف دائرية ترتكز على دعامات ضخمة على غرار عقود بناية القشلة (قشلة بغداد). والطابق العلوي على غرار الطابق السفلي من حيث احتواؤه على الغرف والقاعات، تقوم أمامها بائكة يرتكز سقفها على أعمدة خشبية. ومدخل المدرسة الرئيسي يقوم في منتصف الضلع الشمالي، وهو يواجه الباب الجانبي لمبنى القشلة، يؤدي الباب إلى دهليز عريض نسبياً، وإلى يسار الداخل غرفة خصصت لضباط الداخلية (ضباط الإدارة). وخصصت الحجرة القائمة بجوار الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي للصف الثالث، وعلى يمين الداخل تقوم غرفة خصصت لاستقبال ضيوف المدرسة وأولياء الطلبة، أما الغرف الأخرى المجاورة لها، فقد خصصت واحدة منها مخزناً للكتب ومخزناً للألبسة ونادي للطلاب، وجعلت القاعة القائمة في الركن للصفين الأول والثاني، وكانت تحتوي على دواليب حديدية لوضع كتب الطلاب وملابسهم، حيث كان لكل طالب دولاب خاص به، وكانت تسمى حجرة الإيضاح، أي زيادة إيضاح المادة من قبل الأساتذة بعد الانتهاء من الدروس ؛ أي أنها تقوم مقام غرفة التقاء الطلاب مع الأساتذة حالياً.

والضلع الجنوبي من المبنى، والمطل على نهر دجلة، خصصت قاعاته للدراسة فقط، أما الضلع الشرقي فقد احتوى على قاعة كبيرة (مطعم لطلاب

---

(1) فيضي، المصدر السابق، ص 207.

المدرسة) وحجرة لبيت المؤونة ومخزن ومطبخ، في حين شغل الضلع الغربي من المبنى والموازي لسوق المكتبات بقاعات وحجرات، منها سجن لمن يخالف أوامر المدرسة، وحمام وغرف للخدم وحراس المدرسة، وحانوت لبيع المواد الغذائية.

ويرتبط الطابق السفلي من المدرسة بالطابق العلوي بواسطة سلالم، أحدها في الزاوية الشمالية الشرقية، والثاني في الزاوية الجنوبية الشمالية. وخصصت غرف الطابق العلوي من المدرسة لنوم طلاب المدرسة فيما عدا الغرف القائمة فوق واجهة المدخل للمدرسة، حيث خصصت غرفة للأساتذة والمدرسين، وخصصت الغرفة القائمة في الركن ما بين الضلع الشرقي والضلع الشمالي للمشير، وخصصت غرف الضلع الشرقي للطبيب والجراح يوسف أفندي، وبجواره قاعة تحتوي على ثلاثة أسرة أعدت لمعالجة الطلاب الذين يصابون بوعكة صحية بسيطة، وفي حالة إصابتهم بمرض شديد يرسلون إلى مستشفى المجيدية (مدينة الطب حالياً) لعلاجهم على نفقة الدولة[1].

ومما يلفت الانتباه في بناء هذه المدرسة استخدام القصب في كساء الواجهات من الداخل، ثم طلاؤها بالجص كمادة عازلة للحرارة والبرودة. وهذه الطريقة وجدناها في بناء معظم جدران مبنى السراي والقشلة، كما وجدنا معظم سقوف القاعات، وغرف المدرسة حالياً مستوية. استخدمت الحصران وجذوع الأشجار في عملية التسقيف فيما عدا المجنبة الغربية، حيث استخدمت الأقبية في تسقيفها على غرار غرف المدرسة العلية وأقبية الخانات التي بنيت في بغداد وخارجها من تلك الحقبة الزمنية. إن ظاهرة استخدام الأقبية في بناء المدارس عرفت منذ العصر العباسي، حيث استخدمت في بناء غرف المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله.

ولما كانت هذه المدرسة من المباني التراثية، وللحفاظ عليها من الانهيار، قامت الهيئة العامة للآثار والتراث منذ عام 1992 بأعمال صيانة المبنى.

(1) القصيري، اعتماد، "المدرسة الإعدادية العسكرية"، مبحث نشر في مجلة سومر، العدد 47، ص 120.

الفصل الخامس

العمائر الاجتماعية

المبحث الأول

القصور

القصر الأموي في الشعيبة

أظهرت التنقيبات الأثرية بعض القصور العراقية التي يرجع تاريخها إلى العصر الأموي، وهي قصر أم عريف في الكوفة، وقصر أسكاف بني جنيد في ديالى، وقصر الشعيبة في البصرة.

يقع هذا القصر على بعد (7 كم) شمال غربي قضاء الزبير، وإلى الغرب من مدينة البصرة بنحو (30 كم). و قد حمل القصر و التلول المكتظة اسم الشعيبة، وهو يشير إلى المنطقة التي يقع فيها[1]. حيث نشر في كتاب الشعيبة على أنها إحدى المناطق الأثرية في محافظة البصرة، وقد قامت الهيئة العامة للآثار بتحريات التربة في المنطقة عام 1970، وكشفت التنقيبات الأثرية عن سبعة تلول وعدد من الدور والقصور التي يرجع تاريخها إلى العصرين الأموي والعباسي، والتي يعتبر اكتشافها مهماً في تاريخ الحضارة العربية أمكن من خلالها التعرف على مخططات الأرضية وطراز عمارتها، والزخارف الجصية التي كانت تزينها، كما ظهر الطراز الحيري واضحاً في بناء بعض مبانيها.

وتزين أعالي الأبواب والفتحات تماثيل عثر عليها في بعض القصور التي ترجع إلى العصر الأموي، وعلى وجه الخصوص قصر الحير الغربي، إضافة إلى أن الفخار الذي عثر عليه في هذا الموضع مماثل للفخار الذي يعود إلى العصر الإسلامي المبكر، لذا فإن بعض الباحثين يرجع تاريخه إلى العصر الأموي المبكر.

---

(1) العميد، طاهر، العمارات المدنية، القصور، مبحث نشر في كتاب حضارة العراق، بغداد، 1985، ج 9، ص 145.

وبعض القطع الجصية زخارفها تشبه الطراز الثاني من طراز سامراء الجصية، لذا يرجع بناء هذا القصر إلى نهاية القرن الثالث الهجري[1].

أما بالنسبة إلى تخطيط القصر، فقد كان على هيئة مستطيل قياسه (69م x 58م) (شكل رقم 34)، تطل مرافقه على فناء مكشوف، وتتوزع على الفناء بصورة متناظرة في كل من الجهتين الشرقية والغربية، حيث يتكون كل منها من إيوان يتوسط الضلع. وعلى جانبيه تقوم الغرف وتطل بمداخلها على الصحن ويتقدمها رواق. والضلع الشمالي يشابه من حيث التخطيط والعمران ما وجدناه في الضلعين السابقين، باستثناء وجود المدخل الرئيس للقصر، وتشغل المباني القائمة في الجهة الجنوبية مساحة واسعة، وتتكون من ثلاث وحدات تشرف على فناء وسطي مكشوف، وتناظر المباني القائمة على الجانب الأيمن والأيسر من هذا الضلع، وتتميز بوجود رواق تطل عليه. كما أحيطت جميع هذه المباني بسور ضخم مبني باللبن ومدعم من الخارج بأبراج نصف أسطوانية، وأقيمت أبراج ضخمة في أركان سور القصر.

لقد تميز القصر باحتوائه على الإيوان الذي تحف به الغرف من الجانبين بصورة متناظرة ويشرف على الفناء، وهذا النوع من النظام الهندسي عرف بالنظام الثلاثي ثم تطور في قصور المناذرة في الحيرة، ثم وجدناه في بعض البيوت المكشوفة في الكوفة وواسط واسكاف بني جنيد، وتكاملت معانيه في قصر الشعيبة ثم تطور في الوحدات البنائية لحصن الأخيضر[2].

إن هذا التصميم الذي وجدناه في بناء قصر الشعيبة يدل على مدى معالجة المعمار للظروف المناخية في منطقة البصرة، وهذا النمط من التخطيط وجدناه في بناء بعض بيوت سامراء الأثرية وامتد إلى البيوت التراثية للأسباب نفسها[3]، وفيما يتعلق بالمواد الإنشائية التي استخدمت في بنائه، كان المعمار موفقاً في اعتماده المواد الإنشائية في منطقة ذات أجواء مناخية قاسية وتنعدم فيها الحجارة، فقد استخدم اللبن في البناء والطين كمادة رابطة، ثم طليت الجدران بمادة سميكة من الجص من الداخل ومن الخارج. وزيادة في تحمل تلك المادة للظروف المناخية أكثر، تم خلط الطين بالرمل الأحمر والحصى، مما زاد من سمك الجدران وسمك الطلاء.

---

(1) جمعة، أحمد قاسم، "القصر الأموي في الشعيبة في منطقة البصرة"، مبحث نشر في كتاب دور البصرة في التراث العلمي العربي، إصدار مركز إحياء التراث العلمي العربي، 1991، ص 150.

(2) الطباطبائي، فريال مصطفى، البيت العربي في العصر الإسلامي، بغداد، 1928، ص 22.

(3) جمعة، المصدر السابق، ص 477.

ولقد عثرت الهيئة العامة للآثار على ألواح جصية مزخرفة كانت تزين جدران بعض الغرف القائمة في الأجنحة الخاصة بالعائلة والقائمة في الجهة الجنوبية، لا يتعدى ارتفاع هذه الزخارف أربعة أمتار عن مستوى أرضية المبنى، وبعض الزخارف الجصية كانت تزين أعالي الأبواب والفتحات، أما هوية القصر واستخداماته، فيرجح أنه أحد القصور التي استخدمت للنزهة والصيد. في الواقع إن قصر الشعيبة يمثل نمطاً متطوراً في مجال العمارة العراقية استمد أصوله من الطرز المحلية العراقية السابقة، غير أن المعمار العراقي تجاوز الاقتباس إلى مرحلة التطور والابتكار.

قصر الجوسق الخاقاني (باب العامة)

من أبرز المباني التي أقامها المعتصم والتي ما تزال آثار بعضها قائمة إلى الوقت الحاضر، دار الخلافة. تعرف هذه الدار باسم دار السلطان تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة في أجمل بقعة من المدينة وأهمها. وتعد آثارها العمارية من أكثر البقايا شخوصاً في سامراء لأهميتها السياسية، ولاتساع مساحتها حيث تقدر بـ (210 ألف م^2)، وشكلها التخطيطي وعناصرها العمارية وما فيها من زخارف جدارية. وكان لهذه الدار عدة مداخل تتصل من خلالها بقصور الخليفة منها قصر الجوسق، العمري، الوزيري، أما مدخلها الذي تتصل منه الرعية بالسلطة فقد عرف بباب العامة[1] (شكل رقم 35). هذا أحد مداخل قصر الجوسق من ناحية النهر الذي كان يخرج منه المعتصم للنزهة في نهر دجلة، كما كان قصر السلطة العليا الدينية والدنيوية والمالية والاقتصادية. ومن أبرز ما يتميز به تخطيط هذا القصر وجود محور وسطي تتوزع على طرفيه الوحدات السكنية وأماكن اللهو. ومن أجمل ما يلفت النظر فيما تبقى منه هو الأواوين الثلاثة التي تؤدي إلى سلسلة من الغرف والقاعات، منها قاعة العرش التي تقع على محور المدخل، وهي قاعة مربعة الشكل محاطة بأربع قاعات، وعلى الأرجح كانت هذه القاعة مسقفة بقبة. وفي المجنبة الجنوبية تقوم قاعة الحريم وعلى جانبيها تقوم مجموعة من الغرف مزودة بأنابيب المياه، وبعض هذه الأنابيب موصولة بأنابيب خزفية أو فخارية تم العثور عليها خلال عام 1986م، وإلى جانب هذه الغرف هناك غرف أخرى للغسيل.

---

(1) اليعقوبي، البلدان، ص 258.

الحير

وفي المحور الرئيسي لمدخل قصر الخلافة شرقي باب العامة تقع بناية عرفت بالحير، وقد دلت التنقيبات الأثرية التي جرت عام 1982 على أنه بناء منخفض مربع الشكل طول ضلعه (35م) ينزل عن مستوى سطح الأرض بعمق (11م). والبناء على هيئة سرداب ينزل إليه بواسطة سردابين أحدهما يقوم في الزاوية الشمالية والآخر في الزاوية الجنوبية. يتكون البناء من أربع واجهات كل واجهة تضم ثلاثة أواوين كسيت جدرانها إلى ارتفاع متر من مستوى أرضية التبليط بزخارف جصية تمثل الطراز الثاني، وتتصل هذه الأواوين ببعضها بواسطة ممر يمتد في مؤخرة كل جانب، وتطل الأواوين على ساحة مكشوفة مربعة الشكل قياسها (21x21م) يتوسطها حوض مربع الشكل طول ضلعه (20م) وعمقه (3م) يملأ هذا الحوض بالماء بواسطة كهريز يقوم في الإيوان الأوسط للواجهة الجنوبية وكهريز ثالث في الواجهة الغربية يأخذ الماء من الحوض ليوصله إلى داخل ساحة قصر الخلافة، وقد جرى تنظيف الكهريز وساحة الحير وتبليط أرضية الحوض من قبل هيئة الصيانة عام 1982[1] (شكل رقم 36).

وبالرغم مما شاع بين عامة الناس من أن هذا المبنى كان حيراً للوحوش، إلا أن طراز البناء والاهتمام بزخرفة جدرانه ووجود حوض السباحة يدل على أن هذا البناء اتخذه الخليفة سرداباً للراحة والاستجمام.

البركة

وهي من محتويات دار الخلافة، أشار إليها الرحالة الفرنسي فيولة في كتابه عن سامراء وسماها بالملعب، وتبدو هذه البركة على هيئة منخفض أرضي. وخلال تنقيبات عامي 1987 و1988 قامت دائرة الآثار بإجراء تنقيبات في هذا الموقع دلت الأجزاء المستظهرة منها على أنها بركة ماء دائرية الشكل قطرها (62م) وعمقها (2م) يحيط بها بناء مربع الشكل مدعم بأبراج نصف أسطوانية تتخللها أربعة مداخل رئيسية وثمانية فرعية، شكل المبنى هندسي متعدد الأضلاع، عدد أضلاعها عشرون يتحول هذا الشكل من الداخل إلى شكل دائري (شكل رقم 37). يحتوي المبنى على أواوين زينت جدرانها بزخارف جصية تمثل طراز سامراء وقاعات بلغ عددها (20)

(1) الحياني، حافظ حسين، "حمام البركة"، مبحث نشر في مجلة سومر، ج 1-2، م 51، عام 2002، ص 309.

قاعة، في زواياها حمامات مختلفة القياسات ومرافق صحية. وتصريف مياه البركة يتم بواسطة كهريز يبدأ من حافة البركة وينتهي عند نهر دجلة، ولمنع تسرب المياه جعل في أنابيب فخارية متصلة بعضها ببعض بطول (31.5م) ينحصر في وسط الجدار الغربي للمبنى، ومما لوحظ أن بناء البركة بعضها أقيمت على مستوى سطح الأرض، أما القسم الآخر الذي يحتوي على الحوض والقاعات والأواوين والحمامات فهي قاعة في باطن الأرض بعمق (13م)[1] (شكل رقم 38). في الزاوية الجنوبية الشرقية من البركة يقع حمام الخليفة حيث تم اكتشافه خلال تنقيبات عام 1985 من قبل المنقبين حافظ الحياني وحسين كاظم، وهو بناء غير منتظم تبلغ مساحته (760م^2)، وهذه المساحة أكبر مساحة يقوم عليها حمام مكتشف لحد الآن خاص بالخليفة العباسي وملحق بقصره، أي ليس قائماً بحد ذاته، يحتوي مبنى الحمام على :

1. ثلاث حجرات مختلفة القياسات للجو العادي.
2. حجرات للاغتسال.
3. خزان مياه.
4. مخزن للوقود.

والحمام يفتح على الممر الداخلي للغرفة بخمس مداخل. ومما يلفت الانتباه في بناء حجرة الاغتسال إقامة حنايا تتوجها عقود مفصصة واستخدام الحنية الركنية في بناء مراحل انتقال قبة حجرة الاغتسال.

قصر الحويصلات (قصر الجص) في سامراء

لما انتهى المعتصم من بناء الجانب الشرقي من مدينة سامراء عقد جسراً إلى الجانب الغربي، فأنشأ العمارات والبساتين، وحفر الأنهار، وحمل النخيل إليها من بغداد والبصرة (اليعقوبي، البلدان/37). ومن أهم المباني التي أقامها المعتصم في هذا الجانب على نهر الإسحاقي هو قصر الحويصلات (قصر الجص)، وهو أحد قصور المعتصم التي بناها للنزهة، وسمي بالحويصلات نسبة إلى اسم محلي لموقع تل الحويصلات الذي يقع في الجهة الغربية من نهر دجلة على بعد 17 كيلومتراً شمال محطة قطار سامراء. يتكون القصر من بناية مربعة الشكل طول ضلعها 140 متراً

---

(1) القصيري، اعتماد، "التراث الحضاري لمدينة سامراء"، مبحث نشر في **مجلة كلية المأمون الجامعة**، السنة الأولى، العدد الأول، بغداد عام 2000، ص 125. **وحفريات سامراء**، إصدار الهيئة العامة للآثار، ص 9.

مربعاً ومساحة القصر مع حديقته وسوره الخارجي تزيد على مائة وثلاثين ألف متر مربع، ويحيط بالقصر سور مدعم بأبراج. وقد جرفت مياه الأمطار الزاوية الشمالية الغربية من القصر ولم يبق من السور الخارجي لهذا القصر إلا ربعه الجنوبي[1] فقط. تتوسط القصر قاعة مربعة الشكل تحيط بها أربع قاعات، ويتصل بكل قاعة إيوان مستطيل الشكل، و في طرفي كل إيوان من الأواوين الأربعة غرفتان، أما المجنبة الشرقية من القصر فقد أقيمت فيها عشرة أفنية صغيرة، وكذلك الحال بالنسبة إلى المجنبة الجنوبية الغربية. معظم جدران القصر زينت بزخارف جصية تمثل زخارف طراز سامراء الذي تميزت به هذه المدينة، وفيما يتعلق بتارخ بناء القصر لم يعثر في القصر على كتابات تدل على اسم بانيه وتاريخ البناء، إلا أن المؤرخ سهراب أشار في كتابه عجائب الأقاليم السبعة إلى أن نهر الأسحاقي كان يمر بقصر المعتصم المعروف بقصر الجص، وجدران القصر كلها مطلية بطبقة من الجبس، غير أن بعض الأقسام منها مزخرفة بزخارف جصية ولذلك عرف بقصر الجص.

القصر الهاروني

ومن القصور التي أقيمت خلال المرحلة الأولى من بناء مدينة سامراء، القصر الهاروني، سمي بهذا الاسم نسبة إلى الواثق الذي بويع في نفس اليوم الذي توفي فيه والده المعتصم واسمه هارون الواثق، وكان يكنى بجعفر، ولم يمكث الواثق في قصر الجوسق الخاقاني، وإنما الواضح من بعض الروايات التاريخية أنه بنى قصراً أسماه الهاروني. يقع هذا القصر في الجانب الغربي من دار الخلافة على الضفة الشرقية من نهر دجلة في الموقع المعروف (الكوير)، وهو يقوم أمام الجسر الذي أقامه المعتصم على دجلة، ويقابله في الجانب الغربي من النهر قصر المعشوق الذي بناه المعتمد بإشراف المهندس إبراهيم رباح.

والظاهر أن المدة التي حكم فيها الواثق سنة (227-232هـ/ 481-6-846م) كانت من الناحية السياسية فترة هادئة إذا ما قيست بعهد المعتصم، ولم يُضف فيها شيء كثير إلى ما هو موجود من عمائر سامراء[2].

وأشار الطبري إلى أن الواثق لما توفي سنة (232هـ/846م) دفن فيه[3].

---

(1) سهراب، عجائب الأقاليم السبعة، فينا، مطبعة أدولف، هولندة، 1929، ص 11.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 171.

(3) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 3، ص 125.

قصر المعشوق

يقع قصر المعشوق على الضفة الغربية لنهر دجلة على بعد 15كم شمال مدينة سامراء الحالية، أنشئ زمن الخليفة المعتمد على الله سنة 263هـ/876م وأكمل بناؤه قبل سنة 296هـ/882م.

وقد أجمع المؤرخون على أن هذا القصر امتاز بحسن البناء وجمال المنظر[1].

وفيما يتعلق بتسمية القصر، فقد أشارت معظم النصوص التاريخية إلى أن هذا القصر كان يعرف بالمعشوق، منهم اليعقوبي إذ قال: «إن المعتمد لما ارتقى عرش الخلافة أقام بسر من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ثم انتقل إلى الجانب الغربي بسر من رأى فبنى قصراً موصوفاً بالحسن، سماه المعشوق، وتناقله الناس في العقود المتأخرة باسم العاشق، كما أشار إليه الرحالة ابن جبير وابن بطوطة في رحلتيهما وأسمياه بالمعشوق»[2]. واعتبر القصر حصناً لوجود الأبراج الضخمة فيه، كما أشار البحتري في أبياته الشعرية إلى أن هذا القصر كان يعرف بالمعشوق.

أشرف على بناء القصر محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان[3]، إلا أنه لم يستمر طويلاً في العمل، إذ عين المعتمد بدله علي بن يحيى المنجم المتوفى سنة 275هـ الذي بنى أكثره قبل وفاته.

حظي القصر باهتمام المؤرخين والرحالة العرب والأجانب كما حظي باهتمام علماء الآثار، وأولته دائرة الآثار عناية خاصة وأجرت فيه عدة عمليات صيانة وتنقيب منذ عام 1963، وما زالت الأعمال جارية فيه إلى وقت إعداد هذا البحث.

يحتل بناء القصر قطعة أرض مستطيلة الشكل أبعادها 90x136 متراً، تقوم على مصطبة مرتفعة ويحيط به سور عرضه 2,60 متراً وارتفاعه 20 متراً مدعم بأبراج ضخمة نصف أسطوانية، قائمة في الأركان الأربعة للقصر قطرها 4,20 أمتار أما الأبراج الستة عشر فقد بلغ قطرها 3,20 أمتار وزعت على سور القصر،

---

(1) المصدر السابق، ج 9، ص 540.

(2) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة، المطبعة الأميرية، مصر، 1934، ج 1، ص 253.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 253.

في الجدارين الشرقي والغربي أقيمت ستة أبراج فقط، وكل دعامتين من هذه الدعامات تحصر بينها ثلاث حنايا، مجوفة غير نافذه متوجة بعقد مفصص الغرض من إقامتها زخرفي بحت حيث تظفي مسحة جمالية تحلي الواجهة بما تحدثه من نور وظل تساعد على تنوع السطح وإعطاء الإحساس بارتفاع البناء وتخفيف الوزن.

ومدخل القصر في الواجهة الشمالية الشرقية هو بهيئة سلم منحدر، شيد بالآجر والجص على دفن من الأتربة، يسير الداخل مسافة 4 أمتار ثم ينعطف نحو اليسار، وبعد مسافة 11متراً ينعطف مرة أخرى إلى اليسار مشكلاً ممراً، ويستمر هذا السلم في الانعطاف، حتى ينتهي بمدخل متوج بعقد مدبب يؤدي إلى مرافق القصر. ولتهوية وإنارة الممر، فتحت فيه نوافذ في الجدار الشرقي تطل مباشرة على الطريق العام، الذي يربط بغداد بالموصل، وبالإضافة إلى هذا المدخل فهناك مداخل أخرى خدمية فتحت في جداره استخدمت لنقل المواد البنائية أثناء البناء، وبعد الانتهاء منها أغلقت[1].

وعملت الهيئة العامة للآثار والتراث على إعادة بناء ما تبقى من مرافق القصر، ورفع بعض أسس مرافقه، منها رفع أسس المرافق في مقدمة القصر، والخاصة بالحراس والمستخدمين، وإلى الجنوب منها أقيمت مجموعة من المباني تقوم على يمين ويسار الداخل إليها، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف تنتهي هذه المباني في الجزء المركزي لها بقاعة مربعة الشكل تعرف بقاعة العرش طول ضلعها 10,5 أمتار وسمكها 1,60 متراً. وقد تم رفع أسس هذه القاعة إلى ارتفاع أربعة أمتار، كما تم رفع أسس المباني القائمة على يمينها ويسارها، وأقيم على جانبي الجزء الوسطي من بناء هذا القصر نفق أرضي مسقف بقبو مدبب يربط الجناح الشمالي من القصر بالقسم الجنوبي (شكل رقم 36)، وفي مؤخرة القصر تقوم المرافق منها الحمام، ومرافق صحية. وقد تم العثور في هذا الجانب من القصر على أنابيب من الفخار المزجج لتصريف المياه[2].

ويأخذ القصر مياهه من قناة جوفية تنحدر من العيون التي كانت في أراضي الجزيرة الغربية المرتفعة، حيث تفضي إلى الخندق المحيط بالقصر الذي كان

(1) العبيدي، عباس فاضل، قصر المعشوق، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة بغداد، قسم الآثار، سنة 1987، ص 86.

(2) القصيري، المصدر السابق، ص 53.

مرتفعاً بالنسبة إلى منسوب مياه نهر الإسحاقي. إن ما تبقى من بناء القصر وتحصيناته تشير إلى أن المعتمد كان يهدف إلى بناء قلعة حصينة توفر الحماية الكافية له ولحاشيته ولأهله.

ولم يبق المعتمد في سامراء، بل هجرها وانتقل إلى بغداد بعد مرور أربعة وخمسين عاماً من إنشائها، إلا أن قصر المعشوق لم يهجر بعد عودة الخلافة إلى بغداد، بل استخدم لأغراض عسكرية، وأضيفت إليه بعض المباني من قبل الذين استقروا فيه، وهذا ما يؤكد لنا وجود بعض المباني المضافة إلى المبنى الأصلي. وتشير النصوص التاريخية إلى أن معز الدولة هدم أكثر مباني هذا القصر في سنة 350هـ، وحمل آجره إلى بغداد ليبني به داره ومرافقها بالشماسية، كما أن المعركة التي حدثت بين المسترشد بالله العباسي وعماد الدين زنكي الأتابكي سنة 526هـ وقعت عند هذا القصر، وفي القرنين السادس والسابع الهجريين كان القصر مأوى لأمراء عبادة.

بيت الوالي ـ السراي ـ

كلمة تركية تعني القصر ثم أخذت تطلق فيما بعد على مقر الحكم، وفي أوائل الحكم العثماني عرف السراي بدفتر خانة.

أنشئ هذا البناء في النصف الأول من القرن السادس عشر، وهو يقوم جنوب القشلة يطل على شاطئ دجلة، وكان قصر الوالي وأتباعه، وهو مجمع لدور الحكام ودوائر الدولة. وكان واسع المسافة يضم مرافق كثيرة من الميادين بعضها شغلت من قبل أسر المماليك من الولاة، والبعض الآخر استخدمت دوائر حكومية، ويتخلل مباني الدوائر حدائق ترويها قنوات تأخذ مياهها من نهر دجلة.

وصف السراي من قبل الرحالة العرب والأجانب، منهم الرحالة بكنغهام الذي شاهد السراي ووصفه بقوله : «يتألف من بناية واسعة تقع في الجانب الشمالي الغربي من المدينة يبعد عن نهر دجلة، ويضم بداخله الدواوين العامة ذات المرافق الواسعة أعد بعضها لحاشية الباشا». وفيه غرف للموظفين والخدم والحرس وإصطبل جياده وقد جرى على بناء السراي أحداث كثيرة كان أعظمها تلك التي جرت في ولاية الوالي داود باشا (1231-1247هـ/1817-1831م) الذي كان يرمي للنهوض بالعراق، ولما كان السراي المقر الرئيس الذي تدار فيه شؤون البلاد، وكان الخراب قد حل بأقسامه، لذا أمر داود بتعميره، فهدم بابه المقابل لجامع السراي لتضعضع

أركانه وانخفاضه وأعاد تشييده وجعل على يساره برجاً، كما جدد أقساماً كثيرة من أبنية السراي واهتم بنقشه وتزيينه، وفرش القاعات الرئيسية بأفخر الفرش، وزخرف السقوف والجدران بقطع الخشب المحفورة بأشكال الزخارف المطعمة بالذهب، فجاء كله بعمائره وزخرفته تحفة عظيمة لا تقدر بثمن[1]. كما اهتم بلباس الخدم والموظفين القائمين على خدمته ولهذا فقد باهى البغداديين بسراي يضاهي من حيث العظمة أي سراي عرفوه من قبل، وتم افتتاحه بعد الانتهاء من بنائه وتأثيثه باحتفال مهيب حضره الوالي نفسه وكبار رجال الدولة.

في أواخر عهد الوالي داود باشا ونتيجة للفتنة، تعرض بناء السراي إلى الحرق والنهب واشتعلت النار فيه فهدم القسم الأعظم من المبنى وأحرق ما تبقى من خزائن داود باشا وأثاث منزله. وفي عهد الوالي ناظم باشا الثاني بني باب رئيسي للسراي، كما أعيد بناء السراي والثكنة المجاورة له في عهد الوالي نامق باشا، ولكنه لم يكتمل حيث أتمه من بعده الوالي مدحت باشا (1285-1289هـ/1868-1872م)[2].

وما تبقى من أبنية السراي يعود إلى عهد الوالي نامق باشا. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر هجر الولاة السراي وسكنوا في قصور قائمة خارج حدوده، ومما يؤيد ذلك ما قاله الرحالة وليم فوك عند زيارته لبغداد سنة (1289هـ/1874م) : «والي بغداد يسكن في قصر أنيق يبعد ميلين شمال السراي». وذكر أيضاً أن بناية السراي لم تعد ضخمة ومع هذا فقد اتخذ السراي من قبل بعض الولاة المتأخرين لحكم العراق لا سيما القسم الغربي منه، وآخر من سكن في هذا الجانب رجب باشا (1320-1326هـ/1903-1908م)، وعرف قصره بالمشيرة ثم اتخذ فيما بعد في العهد الملكي بلاطاً ملكياً.

وآخر عمليات أعمال الصيانة التي جرت على المبنى تمت سنة (1327هـ/1909م)، على مدخله المعروف بالطاق سجل تاريخ تجديده على زوج من طغراء السلطان محمد رشاد خان الخامس الذي دام حكمه في الفترة

---

(1) البصري، عثمان بن سند، مطالع السعود في أخبار أعلم الوزراء وأعظمهم داود، مخطوط رقمه في سجل دار المخطوطات : 1589، ص 442.

(2) عبادة، مخطوط العقد اللامع، ص 245.

(1327-1336هـ/1909-1917م)، وهو نفس المدخل القديم الأصلي الذي جدده داود باشا سنة (1236هـ/1820م)، وهو مقابل لجامع جديد حسن باشا.

وكانت تشغل أبنية السراي وزارة التربية سابقاً ومديرية الشرطة العامة ووزارة الداخلية ومركز محافظة بغداد اليوم، وبجانبها القشلة التي كانت وزارة المالية سابقاً.

وما تبقى من بناء السراي بوابته المعروفة بالإيوان أو الطاق، وهي بوابة مبنية بالآجر بشكل برج مربع طول ضلعه (26م). يتكون من ثلاثة أقسام، القسم الأمامي مدخل السراي يمثل الضلع الشمالي الشرقي، وهو بشكل قبو مستطيل الشكل طول ضلعه (6م) وعرضه (6.5م) يرتبط بعقد مدبب ارتفاعه (8م) زخرف باطنه بزخارف هندسية دقيقة نفذت بدقة على الآجر، ومن ثم قطعت بأنصاف كرات نحاسية كما زخرفت واجهة العقد بزخارف وأشكال هندسية ومعمارية تمثل دخلاً قليلة العمق تتوجها عقود مدببة. ويتصدر إيوان المدخل فتحة تؤدي إلى القسم الثاني من البوابة الذي جعل بشكل قاعة مربعة الشكل طول ضلعها (8م)، يغطي هذه القاعة قبة نصف كروية قليلة العمق ارتكزت على مثلثات كروية مزدانة بمقرنصات الخردة كار على هيئة مقرنصات ذات أشكال هندسية نضمت بدقة وإتقان، وبواسطة هذه المثلثات جرى تحويل الجزء المربع إلى مدور لإقامة القبة.

أما القسم الثاني من البوابة، فهو بشكل مجاز مستطيل الشكل طوله (4م) وعرضه (2م) بني من طابقين يفتح الطابق الثاني منه على القاعة الوسطية بنافذة مستطيلة الشكل يتوجها عقد مدبب، ويتصل هذا المجاز بطابقيه من ضلعه الجنوبي بأقسام بناية السراي المكون من سلسلة من الغرف من طابقين أقيمت في الأطراف الأربعة، ويطل الطابق العلوي على الفناء بشرفة ترتكز على أعمدة خشبية مضلعة ذات تيجان مقرنصة وللشرفة سور خشبي وبواسطته يمكن الوصول إلى الجهات الأربعة من المبنى من دون حاجز، وأمام الجبهة التي تطل على النهر من جهة الساحة الوسطية شرفة مدورة لها سور ذو درجتين. هذا الموضع خاص لقراءة الفرمان والأدعية للسلطان وقوانين أخرى.

جسر حربى

من الأعمال الإروائية التي قام بها الخليفة العباسي المستنصر بالله ضمن منطقة حربى بناء القناطر والجسور، منها جسر حربى. ومدينة حربى تقع على يمين

الشارع العام الذي يربط بين بغداد وسامراءحيث يشاهد آثار خرائب واسعة، والتي هي مجموعة تلول أثرية تعد بقايا مدينة قديمة مشهورة عرفت باسم مدينة حربى (شكل رقم 39). وهذه المدينة كانت معروفة في زمن الساساسين واستوطنت أيضاً في العصر العربي الإسلامي، وكانت تعرف بنفس الاسم في صدر الإسلام، وازدهرت في العصر العباسي على عهد الخليفة العباسي المنتصر بالله (623-640هـ/1226-1242م)، وذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان بقوله : «بلدة في أقصى دجيل بين بغداد وتكريت مقابل الحضيرة، تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة»[1]، وتحمل إلى سائر البلاد. كما أن قطع الخزف التي تظهر بكثرة على سطوح تلالها يؤكد لنا أنها كانت غنية بمعامل الفخار وعلى وجه الخصوص خلال القرن السادس الهجري، وكانت هذه المدينة على الضفة اليسرى من الغيط الذي كان مجرى دجلة الأصلي، وقد تحول المجرى المذكور من أعلى حربى في أوائل عهد المستنصر، وهذا التحول أدى إلى انقطاع المياه عنها وعن المناطق المجاورة لها، ولذلك قام المنتصر بأعمال الري المهمة لأجل إيصال المياه إلى المنطقة.

وكان إعمار نهر الدجيل ضمن تلك الحملة والمشاريع التي قام بها الخليفة المستنصر بالله، ولكي يوصل ضفتي النهر أمر الخليفة بإنشاء جسر حربى.

يقع جسر حربى على بعد (90كم) شمال مدينة بغداد بالقرب من مدينة بلد على مجرى نهر الدجيل، على بعد (22كم) من صدره، بالقرب من أطلال مدينة حربى (630م) كما هو مثبت على شريط الكتاب الذي يزين واجهات الجسر الشرقية والغربية من القسم العلوي منه، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى مدينة حربى التي تقع أطلالها في الجهة الجنوبية الغربية منه.

يستند جسر حربى على أربعة قناطر يبلغ عرض فتحة القنطرتين الجانبيتين (5.5م)، وعرض فتحة القنطرتين الوسطيتين (5.8م) وعقادات القناطرمعقودة بعقود مدببة تستند على دعائم ضخمة وهناك فتحات أو (طاقيات) صغيرة بين الفتحات الكبيرة عرض كل منها (1.5م). والجسر بأجمعه مشيد ومعقود بالآجر والجص طوله (53م) وعرضه (11.8م)، كما أن سطحه مغطى بالآجر المربع (الفرنسي) قياسه (20x20م)، غير أن آجر الرصيف غير مفروش بصورة أفقية بل

(1) السعدي، عنان عبد الله، القناطر والجسور في العراق في ضوء دراسة قنطرة حربي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1920، ص 57.

مفروش بصورة شاقولية وعلى شكل السمك كالأرصفة التي تشاهد في بعض المدن والمعابد البابلية القديمة.

يزين واجهات الجسر العلوية شريط من الكتابة يقوم مباشرة فوق عقود القناطر، دون بخط الثلث وهذه الكتابة دونت بغرز الحروف المنجورة على الآجر وثبتت على الشريط بواسطة الجص. وهذه الطريقة في تدوين النص أدى إلى بروز حروفه، وبهذا أضاف ميزة فنية إلى الجسر بالإضافة إلى أهميته العمارية. ويلاحظ بصورة عامة أن أسلوب وطراز تدوين هذا النص يشابه النصوص الخطية المدونة على واجهة المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله، ويحيط بالكتابة إطار آخر من الآجر عليه زخارف آجرية مشابهة لتلك التي وجدناها بالمدرسة المستنصرية أيضاً.

أما فيما يتعلق بنصوص الشريط القائمة في الجهة الغربية، فهي آيات من القرآن الكريم.

وعلى الجانب الشرقي دوّن تاريخ البناء واسم الخليفة الذي أيد الله تعالى نصره وفرض طاعته على الحاضرين والبادين أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين مكن الله له في الأرض، ووارث الخلفاء الراشدين الذين قضوا بالحق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وسلم.

المبحث الثالث

المباني الحربية

حصن الأخيضر

يعتبر الأخيضر من الحصون الدفاعية المتميزة بين حصون العالم لما يتمتع به من مظاهر عسكرية فريدة في العمارة العربية الإسلامية، كما أنه يعد في نظر الكثير من الباحثين والمختصين قصراً ضخماً محصناً كبيراً بين قصور العالم المحصنة[1].

يقع الأخيضر على بعد (50 كم) إلى الجنوب الغربي من مدينة كربلاء و(152 كم) من مدينة بغداد، يعتبر موقع الأخيضر من المواقع المهمة من الناحيتين العسكرية والتجارية كونه ملتقى لطرق البادية الرئيسة التي تربط السهل الرسوبي لوادي الرافدين بأعالي نهر الفرات وسوريا من جهة والجزيرة العربية[2] من جهة أخرى. وتقوم على امتداده عدة أبنية تاريخية كانت محطات مهمة للقوافل والمسافرين مثل موجدة وعطشان إلى الجنوب وقلعة شمعون وبرداويل إلى الشمال. ومن الأمور التي لم يتفق المختصون حولها هو نوع الوظيفة التي كان يؤديها هذا البناء، فهناك من يعتقد أنه حصن عسكري يشكل خطاً دفاعياً ضد من يحاول التقدم من الغرب والجنوب الغربي تجاه مدينة السلام.

ونظراً لضخامة هذا البناء وانفراده من حيث التصميم والهندسة التي برع فيها المعمار العراقي، فإنه يعتبر من أهم المواقع الأثرية الشاخصة اليوم ومن أكثرها استهواءً للسياح لا في عراقنا فحسب، بل في أرجاء منطقة الشرق الأوسط كافة.

---

(1) العميد مظفر، طاهر مضفر، "الأخيضر ومظاهره العسكرية"، مبحث نشر في كتاب حضارة العراق، ج 9، ص 27.

(2) مهدي، علي، الأخيضر، إصدار وزارة الثقافة، سنة 1969، ص 25.

التسمية :

أما تسمية الحصن الأخيضر فلم تعرف حتى الآن، ونفتقر إلى دليل أثري مادي يهدينا إلى هذه التسمية، كما أن معظم المصادر التاريخية والبلدانية جاءت خالية من أي ذكر صريح عنه، أو عن أي بناية أخرى كانت تعرف باسم الأخيضر، لذا فقد أسهب الباحثون المحدثون في هذا الموضوع وخرجوا بآراء عديدة ومتباينة تغلب فيها مواضع الشك على اليقين، وفي هذا السياق يرى العلامة شكري الألوسي أن كلمة الأخيضر محرفة من اسم الاكيدر، وهو اسم أمير من أمراء كندة أسلم في صدر الإسلام[1].

أما المستشرق مويسيل (A.musil)، فقد ذكر بانه يشير إلى إسماعيل بن يوسف الأخضر الذي كان حاكم الإمامة على الكوفة والذي اتخذه داراً للهجرة[2]، كما أن هناك إشارة تاريخية من مطلع القرن الرابع الهجري تذكر بأن حصناً ضخماً كان قد شيد في نواحي عين التمر بمنطقة الكوفة من قبل شخص اسمه عيسى بن موسى في حدود سنة (316-928م)، وهو غير عيسى بن موسى الذي كان ولي عهد المنصور الوالي على الكوفة. وقد ناقش السيد علي مهدي هذه الآراء التي تناولت تاريخ الأخيضر ونسبته، وقد توصل إلى أن هذه الآراء لا تشير إلى وقائع أو دلائل مادية أكيدة[3]. وفي دراسة حديثة قام بها السيد علاء الدين نجم يرجح بأن شخصاً حمل اسم ابن أخضر، تناولت مناقشة ما ورد في نص لابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ في ذكر قصر ابن أخضر افترض بأنه صحن الأخيضر، ويرجح بأن شخصاً حمل اسم ابن أخضر له علاقة بهذا الحصن، والحصن يتصل بأحد بني عنبة ونسبه إلى شمعلة ابن الأخضر العنبي[4].

وفي ضوء ما تقدم ذكره يمكننا القول إن كلمة الأخيضر تسمية كلدية أطلقت على هذا البناء في فترات لاحقة، ومن المرجح أنه سمي بأسماء مختلفة تبعاً لمن نزل أو استقر فيه من الأمراء والقواد أو القبائل من بعد مشيده الذي أقامه في مطلع العهد العباسي. ومما يؤيد هذا القول ما ذكره الرحالة الإيطالي بترويد يلافالا الذي

(1) مجلة لغة العرب، م 1، سنة 1942، ص 524.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 136.
(3) علي مهدي، الأخيضر، ص 25.
(4) العاني، علاء، أضواء على حصن الأخيضر، ص 100.

زار العراق في النصف الأول من القرن الحادي عشر للهجرة حيث قال : «هذا الحصن كان يعرف عند أهل المنطقة باسم قصر خفاجي نسبة إلى قبيلة خفاجة التي كانت منذ القرن الخامس للهجرة من أهم القبائل في بادية السماوة ومنطقة الكوفة، هذا من جهة ومن جهة أخرى عثر على نص كتابي مدون بالحبر الأسود على أحد جدران مرافق الحصن الداخلية يشير إلى اسم شخص يلقب بالخفاجي.

إن التسمية الحديثة الأخيضر هي مصغر لكلمة الأخضر على غرار تسمية الوادي المجاور له والمعروف بوادي الأبيض على وزن التصغير، أما سبب إطلاق اسم الأخيضر فلابد أنه جاء من أن لون الحصن يميل في مظهره العام إلى الاخضرار.

تاريخ البناء :

إن تاريخ الأخيضر الزمني مازال معلقاً لأن البناء غفل من جميع الكتابات التي تؤرخ له وغفل من المصادر التاريخية التي تتحدث عنه، لذلك اختلف المؤرخون في تحديد زمن بنائه، وبقي تاريخه مجهولاً لفترة غير قصيرة من الزمن، وأخيراً فقد تم حسم هذا الموضوع في ضوء ما قدمته لنا الأبحاث والدراسات المقارنة وبالاعتماد على دلائل مادية وعمارية وطرز فنية وشواهد تاريخية، وجميعها تؤكد بأن الأخيضر بناء عربي إسلامي شيد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة.

ولا يساور الشك في الوقت الحاضر أياً من المختصين في أن البناء قد شيد في العصر الإسلامي في ضوء مسجده الأصيل، وبعض عناصره المعمارية غير المعروفة قبل الإسلام، وصيغة هندسته[1] وعمارته، نلخصها استناداً إلى الحقائق التي تم التوصل إليها فيما يلي :

1. احتواء الأخيضر على المسجد : أكدت التنقيبات الأثرية أن جميع أسسه من أصل البناء، ويتصف هذا الجامع بمميزات وخصائص الجوامع الإسلامية، وهذا دليل يؤكد على أن هذا البناء إسلامي.
2. في هذا المسجد محراب من النوع المقعر الذي أدخل في فن العمارة الإسلامية أول مرة عام (709م) في زمن الوليد بن عبد الملك عند ممر جامع المدينة.

---

(1) علي، المصدر نفسه، ص 16.

3. طراز العقادة المتصالبة الموجودة في ثمانية مواضع من الرواق الكبير المحيط بالرحبة الكبرى، وطراز الزخرفة الهندسية بالآجر ظهر أول مرة في باب بغداد في مدينة الرقة في حدود عام (156هـ/772م)، وينسب بناؤه إلى عهد الخليفة أبي جعفر المنصور.

4. شكل العقود في الأخيضر لم تصبح بعد من الطراز المدبب، أي واضحة التدبيب الذي هو من خصائص العمارة الإسلامية خلال العصر العباسي، وهذا ما يشير إلى أن زمن الأخيضر كان قبل تشييد زمن سامراء العباسية.

إلى جانب ذلك كله تم العثور على مجموعات من الفخار والخزف والزجاجيات داخل مرافق الحصن وعلى الأرضيات مباشرة، وكلها خزف إسلامي معظمها تشبه خزف دار الإمارة في الكوفة من دورها العباسي، كما تم العثور على مسكوكات تعود إلى العصر العباسي، ومن عهد الخليفة أبي جعفر المنصور والخليفة المهدي، منها مسكوكة نحاسية من عهد المنصور دون عليها سنة 157 للهجرة، وهذا يؤكد لنا بأن الفترة التي تم فيها تشييد البناء كانت في العصر العباسي، وهذا ما أكدته الهيئة العامة للآثار بعد عثورها على الأدلة العلمية التي تسند هذا الرأي نتيجة قيامها بأعمال التحري والصيانة في الأخيضر.

وصف عام لمرافق الأخيضر

الأخيضر من الحصون الدفاعية الفريدة من نوعها وقلما نجد بناء بعظمته في منطقة مقفرة وبعيدة عن العمران، وهو مستطيل الشكل مشيد بالحجر والجص والبعض من أجزائه بالآجر والجص، ويقوم على مصطبة طبيعية ترتفع عن مستوى الأرض المحيطة به قليلاً، كما توجد بقايا سور من اللبن يحيط به من جهاته الجنوبية والشرقية والغربية، أما في الجهة الشمالية فيعتقد أنهم اكتفوا بوجود وادي الأبيض أو لربما كانت السيول القوية التي تجري في هذا الوادي قد جرفت القسم الشمالي من هذا السور.

وسوره الداخلي على شكل مستطيل طول ضلعه من الشمال إلى الجنوب (175.80م) وعرضه (163.60م) وفي وسط كل ضلع من أضلاعه الأربعة مدخل كبير، وفي كل ركن من أركان هذا السور الأربعة برج دائري يبلغ قطر كل برج منها خمسة أمتار، يحيط بالقصر وبمجموعة الدور التي تؤلف الحصن سور مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب (176م) وعرضه من الشرق إلى الغرب (164م)

وارتفاع السور الخارجي (21م) بعرض (4.5م) إلى ارتفاع (10.5م) أي إلى مستوى أرضية المجاز العلوي، ثم ينقسم إلى جدارين أحدهما خارجي والآخر داخلي يفصل بينهما مجاز بعرض (2م) وعليه قبو (عقادة) نصف أسطوانية، ويمكن الوصول إلى هذا المجاز عن طريق أربعة سلالم في كل زاوية من الزوايا الداخلية للحصن وسلمين على جانبي كل مدخل رئيسي (شكل رقم 41).

تبلغ مساحة الحصن (29 ألف م^2) تقريباً، ويحيط بالسور الخارجي (48) برجاً أربعة منها في زواياه الأربعة بقطر (5م) وأربعون برجاً بقطر (3.5م) موزعة على أربعة أضلاع بواقع عشرة في كل ضلع وأربعة أبراج منشطرة في كل مدخل رئيسي من مداخله الأربعة، وفي السور الخارجي مزاغل عمودية وأفقية عددها (236) تستخدم لرمي السهام والقذائف، ومواد مصهورة قاتلة على المهاجمين للحصن. وقد بلغ عدد المزاغل الشاقولية (188) مزغلاً بالإضافة إلى مزاغل أفقية يبلغ عددها (48) مزغلاً، وهكذا يكون مجموع المزاغل الشاقولية والأفقية (236) مزغلاً ومن مجموعها ندرك القوة الدفاعية الكبيرة المهيأة لهذا الحصن.

أقسام الحصن :

وللحصن مرافق داخلية مكونة من البهو الكبير وأقسام الحرس والمعية والقسم المركزي ومجموعة الدور وبيت الخدم، وجميعها ضمن بناية مستطيلة الشكل أبعادها (112م x 80م) ملاصقة للسور الخارجي من جهة، والبناية مدعمة بأبراج عددها (26) برجاً بقطر (1.20م) ثمانية منها في كل من الضلعين الغربي والشرقي وخمسة في الضلع الجنوبي وبرجان في الزاويتين الجنوبية الغربية والشرقية بقطر (1.80م) ومساحة البهو الكبير (15.5م x 7م).

والقسم المركزي مستطيل الشكل مكون من الرحبة (شكل رقم 42) والإيوان الكبير وصالات الاستقبال ويحيط به رواق من جميع جهاته يفصله عن باقي أقسام الحصن، فالرحبة مساحتها (33م x 27م) وتفتح عليها سبعة أبواب بواسطة الرواق، ولها في القسم الجنوبي الشرقي سلمان أحدهما يؤدي إلى الطابق العلوي والثاني يؤدي إلى السرداب، وواجهة الرحبة الشمالية مكونة من جدار ذي طابقين، أما طبيعة الجدران التي تحيط بالرحبة فهي عبارة عن سلسلة من التجاويف تتكون من دعائم مستطيلة الشكل، تتقدمها أعمدة نصف أسطوانية وتقوم على كل عمودين حنية غير عميقة بهيئة نصف قبة، وعلى الجدار الجنوبي عنصر عماري زخرفي هندسي مبني بالآجر، أما الرواق الكبير ففيه عنصر عماري وهي العقادة المتقاطعة في

ثمانية مواضع. وهذان العنصران من الرحبة والرواق غير معروفين في فن العمارة الأجنبية قبل الإسلام وصدره، وإنما ظهرا أول مرة في باب بغداد في مدينة الرقة، وذلك في حدود (156هـ/772م) وينسب بناؤه إلى عهد الخليفة أبي جعفر المنصور.

في القسم المركزي من البناء يقوم إيوان قياسه (10.75م x 6م) تحف به عدد من القاعات خصصت لاستقبال الضيوف وإجراء مراسيم الاستقبال، أما دور السكن فعددها أربع، اثنتان في كل من الجانبين الشرقي والغربي للحصن ومدخلها الرئيسي يقع على الرواق الكبير. والدور متشابهة من حيث التخطيط والتصميم، ومتناظرة في الوقت نفسه من حيث الشكل، وبيت الخدم يقوم إلى الجنوب من القسم المركزي يتكون من صحن مستطيل مع ثماني قاعات سقوفها معقودة، ويقع الحمام في شرق هذا البيت ولكنه مفصول عنه، ويتكون من ثلاث قاعات أو حجرات إضافة إلى حجرة المنزع ذات المصطبة الطويلة، وفي قسمه الجنوبي حوض الماء فوق الموقد.

وللحصن بنايتان الأولى خارج الحصن إلى الشمال الغربي منه أبعادها (76م x 12م) مكونة من سلسلة غرف ذات عقادات وعددها (14) غرفة، وإحداهما بشكل إيوان مفتوح من الجانبين، وهناك باب يؤدي إلى سطح البناية، أما البناية الثانية فتقع داخل الحصن من شمال الساحة المحصورة بين السور الخارجي وبناء الحصن الداخلي، وهي مكونة من إيوان كبير ومجموعة من الغرف، وفي الجزء الجنوبي منها سلم يؤدي إلى سرداب وهو الثاني في الحصن.

المسجد

للمسجد مدخلان يفضيان إليه من المجاز الكبير الذي يفصل القسم الشمالي من الحصن عن الضلع الشمالي للسور الخارجي، ويتألف المسجد من صحن تحف به أروقة من جهاته الشرقية والغربية والجنوبية، عرض كل رواق (3م) وطوله (10م). وسقف المسجد بأقبية نصف أسطوانية تطل هذه الأروقة على صحن المسجد، وهو مستطيل الشكل أبعاده (16.20م x 10.30م). وقد أكدت لنا أعمال التحري والتنقيب التي قامت بها الهيئة العامة للآثار عام 1961 أن المسجد والمحراب من أصل البناء وليس مضافاً كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، وهو ما يؤكد أن حصن الأخيضر من الأبنية الإسلامية، كما توضح لنا أن شكل المحراب مقعر، وهو الطراز الذي أدخل لأول مرة في فن العمارة الإسلامية بعد عام (91هـ/709م)، ومعنى ذلك أن الحصن بني بعد القرن الأول للهجرة وليس قبله.

الأبراج

إن وجود الأبراج الضخمة في الزوايا والأبراج الأخرى في الجدران الأربعة تدعم السور وتزيد من تماسكه ومتانته، إضافة إلى ما تحتويه من فتحات للرصد. وإن اتصال زوايا الأبراج من الداخل بسلم يساعد على إدامة أبراج الزوايا الأربعة بالتقوية والمعدات والمؤن لأنها تكون نقاط استناد رئيسة في الصحن أكثر من غيرها من الأبراج الأخرى. إن تصميم زوايا الأبراج ذات أهمية تعبوية كبيرة لكون هذه الأبراج تبرز عن محيط السور على جميع المناطق المحيطة بالصحن، بحيث لا يفلت العدو من الرصد الموجه من قبل المدافعين عن الصحن، وكذلك بقية الأبراج تستطيع عن طريق المزاغل أن تتبادل الرؤيا والرصد الموجه من هذه الأبراج، وهذا يساعد على سرعة نقل الأوامر وتبادل المعلومات إلى جميع من في الصحن وبخاصة المدافعين الموجودين في الممر والأبراج.

مداخل الصحن

في وسط الضلع الشمالي للقصر واجهة بارزة يقع في وسطها المدخل الرئيسي للقصر، والذي يفضي إلى رحبة في جانبيها غرفتان خصصتا على الأرجح للحرس، يلي الرحبة دهليز طوله (13م) وعند نهايته الداخلية وعلى ارتفاع (2.7م) حفرة مربعة على جانبي الجدارين الشرقي والغربي والتي تقوم على الجانب الشرقي أعمق وأطول مخصصة لخشبة المز لاق الذي يغلق الباب. وسقف هذا الدهليز مقبى بستة أقبية متتالية بين كل قبو مزاغل أفقية يرمي المدافعون في الغرفة الكائنة فوق الدهليز القذائف والسهام على العدو الذى يجتاز المدخل الرئيس، وينتهي هذا الدهليز بعقد يفضي إلى ساحة مربعة تعلوها قبة، وتؤدي هذه الساحة إلى مجاز كبير وإلى البهو.

المميزات العسكرية للأبواب :

على الأرجح يشتمل باب حصن الأخيضر على ظاهرة معمارية عسكرية[1] تعد فريدة، وهي الباب الحديدي المنزلق رأسياً وتسمى في العمارة بالسقاطة أو المتراس، ويفتح الباب الحديدي برفعه إلى الأعلى بواسطة حبال قوية تلتف حول بكرة بوابة المدخل، وترتفع شبكة الباب الحديدية بحيث ينزلق طرفاها في مجريين

---

(1) طاهر، تخطيط المدن، ص 214.

رأسيين تركا في البناء، وعند التهديد بالخطر يفك رباط الحبال للشبكة فتسقط بثقلها الكبير لتسد المدخل ويحتاج الأمر في رفعها إلى أعلى بغير حبال إلى جهد عدد كبير من الرجال المهاجمين، وإلى وقت ليس بالقليل يتعرضون فيه لرمي السهام والحراب وإسقاط المقذوفات فوق رؤوسهم من المزاغل الأفقية.

إن استخدام المتراس الحديدي أو السقاطة خلف الباب في حصن الأخيضر حظي باهتمام بعض المختصين في العمارة العربية، ويعتقد أن هذا التصميم من الأبواب لم يكن معروفاً إلا في حصن الأخيضر.

وصف قصر الأخيضر بالقصر النبيل لبراعة تصميمه وأساليب الدفاع عنه لاسيما في مدخله الذي يماثل المصيدة التي تنصب للفئران، وإن البراعة والكمال اللتين بلغهما هذا الحصن لم تبلغها حصون أوربا إلا بعد مضي أربعة أو خمسة قرون، ولا شك في أن هذا يضيف عاملاً آخر إلى قيمة هذه البناية الشهيرة. ومن أهم مميزات هذا الحصن :

1. كونه حصناً يؤمن الدفاع عنه من جميع الجهات.
2. يساعد على حشد عدد كبير من الجنود والمشاة والخيالة.
3. فخامة الحصن ترهب من يقدم على اقتحامه.
4. ارتفاع الحصن يجعل من الصعب على العدو تسلقه واجتيازه.

وكما قلنا سابقاً إن سور الحصن بعد ارتفاع (10.50م) ينقسم إلى جدارين يحصران ممراً عرضه متران له سقف مقوس، وأحد الجدارين داخلي يطل على الساحة الداخلية للحصن، والآخر خارجي يطل على الفضاء الرحب المحيط بالحصن، وهو في الوقت نفسه مدعم بأبراج. ويستمد سور الحصن قوته من متانته وسمك جدرانه البالغة خمسة أمتار وتتصل زوايا أبراج الحصن مباشرة من الداخل بسلم يساعد على تزويد أبراج الزوايا الأربعة بالجنود والمعدات.

أما المزاغل في الأبراج فهي على نوعين عمودية وأفقية، والأفقية منها موجودة في أبراج وحنايا الجدران من الجهة الخارجية.

أما المزاغل العمودية فهي خمسة في كل برج من الأبراج الركنية وثلاثة في الأبراج الأخرى، ماعدا أربعة منها صماء لا توجد فيها مزاغل، بالإضافة إلى ذلك توجد مزاغل عمودية في حنايا الجدران الخارجية وعددها (48) مزغلاً. ومما يلفت النظر في تصميم السور الخارجي ما بذل فيه من تحصين شديد وما أضفي عليه من

مظاهر عسكرية، فهو يشير إلى أن هذا الحصن تم الحرص على أن يكون منيعاً وحصيناً إلى درجة كبيرة، فهذا السور يعد من الأسوار الفريدة في الحصون والقلاع التي بنيت في العصور الوسطى، ذلك لأنه سور تتوفر فيه كل الوسائل الدفاعية المعروفة في ذلك العصر.

ونظراً لفخامة هذا البناء وانفراده من حيث التصميم والهندسة التي برع فيها المعماري العراقي فإنه يعتبر من أهم المواقع الأثرية الشاخصة اليوم ومن أكثرها استهواءً للسياح.

المباني العسكرية في سامراء

الإصطبلات

من المباني العسكرية المهمة التي أقامها المعتصم والتي لا تزال آثارها شاخصة الاصطبلات، تقع أطلالها في الجانب الغربي من نهر دجلة على بعد (15كم) من مدينة سامراء الحالية[1]، يحيط بها نهر الإسحاقي والدجيل. مبنى المعسكر واسع يستوعب جياد الجيش البالغ (160000) حصان. وبناء المعسكر مستطيل الشكل قياسه (215x500 متراً) بداخله مستطيل صغير وكلا المستطيلين محاطان بسور كبير مدعم بأبراج. قسم المستطيل الصغير إلى سلسلة من الدور منتظمة الشكل، وأما المستطيل الكبير فقد قسم إلى ثلاثة أقسام متساوية يفصل بينها سور تقدر مساحة المعسكر بما فيه مساحة الثكنات التي داخل السور بثمانية وخمسين كيلومتراً مربعاً[2]. ومن الواضح أن هذا المبنى كان معسكراً للجيش مع دور للقواد وثكنة للجنود وساحات للتجمع والتدريب.

ولتقوية وسائل تحصين السور عمل المهندس على جعل نهر الإسحاقي يسير في محاذاته من الخارج مما يحول دون وصول العدو إلى السور، وفي نفس الوقت يزود المعسكر بالمياه.

---

(1) عجائب الأقاليم، ص 127.

(2) العميد، العمارات العباسية في سامراء، ص 112.

سور أشناس

ومن المباني التي اكتسبت صفة سياسية سور أشناس[1]، يقع السور على بعد (6كم) شمال جامع الجمعة وهو يمثل إحدى القلاع العسكرية التي شيدها المعتصم لأحد مماليكه الأتراك، ولا تزال آثار هذا القطيعة باقية إلى اليوم، حيث نرى سوراً ضخماً مبنياً من اللبن بعلو خمسة أمتار يعرف بسور أشناس. ويلي هذا السور سور يماثله يقع في الجهة الشمالية الغربية منه يعرف بسور الشيخ ولي، وفي داخل هذا السور عثر على بقايا بعض المباني تسمى الزنكور[2]، ولا تزال آثار قطيعة أشناس ماثلة إلى يومنا هذا.

أسوار مدينة بغداد الشرقية وأبوابها

لقد ترتب على انتقال الخلافة إلى سامراء سنة (221هـ/835م) بأمر من الخليفة العباسي المعتصم أن يغادر أهل السلطان والمهن والوزراء إلى العاصمة الجديدة، ونقلت دواوين الدولة إليها، غير أن بغداد رغم ما فقدته من مغادرة الخلفاء وذوي الكفاءة والإدارة والأموال ظلت تنعم بمستوى من الازدهار المادي والفكري لا يقل إن لم يزد، عما كان في العهود التي كان يقيم فيها الخلفاء.

وبقيت بغداد متأثرة بما كان يحدث من صراعات على السلطة بين المعتز والمستعين منذ أن لجأ إليها المستعين سنة (251هـ/865م) وأحاطها بسورين أحدهما يحيط بالجانب الشرقي ويحمي محلات الشماسية والرصافة والمخرم من الشمال إلى الجنوب، وثانيهما لحماية المحلات المهمة حول المدينة المدورة في الجانب الغربي، ثم أحاط السور بالخنادق.

أسوار بغداد الشرقية ـ الباب الوسطاني

أوجبت حماية الجانب الشرقي لمدينة السلام (بغداد) إيجاد الوسائل التي تضمن الدفاع عنها والمتمثلة بإحاطتها بسور عظيم وخندق واسع يضمان داخلها دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي أنشئ حولها والتي تعد مركز مدينة بغداد في العصر العباسي الأخير، ففي مستهل حكم الخليفة المستظهر (487-512هـ/1094-1118م)

(1) ياقوت، معجم البلدان، ج 256/4.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص 297.

بوشر بإنشاء هذا السور والخندق، وكان الشروع في إنشائهما سنة (488هـ/1095م) فأنجز قسم بسيط منه في عهد المستظهر وأكمل إنشاؤه في عهد الخليفة المسترشد (512-529هـ/1118-1135م)[1]. تم إنشاء مسناة حول خندقه في عهد الخلفاء الذين أعقبوا المسترشد، وقد ظل هذا السور قائماً حتى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة أي ما يقارب ثمانمائة عام[2]. والسور يتألف من جدار سميك مبني بالآجر تدعمه أبراج عديدة، وكانت بدايته من الشمال عند نهر دجلة قرب الركن الشمالي الغربي من وزارة الدفاع الآن، ونهايته من الجنوب عند نهر دجلة في منطقة الباب الشرقي قرب جسر الجمهورية الحالي. وقد جعل للسور أربعة أبواب سمي الباب الشمالي (باب السلطان)، وكان يقع عند الباب المعظم الحالي لذلك سمي باب المعظم حيث لا يزال هذا الاسم يطلق على المنطقة التي كان يقع فيها هذا الباب (شكل رقم 43).

كما سمي الباب الثاني (باب الظفرية) ويعرف اليوم بالوسطاني، والباب الثالث (باب الحلبة) لقربه من ميدان السباق والذي عرف أيضاً بباب الطلسم. بقي هذا الباب قائماً حتى عام 1917م حيث تم نسفه من قبل الأتراك عند خروجهم من بغداد وموقعه شرقي محلة باب الشيخ الحالية، وقد أظهرت دائرة الآثار والتراث عن أسسه وقامت بصيانة الأجزاء السفلى من السور المحاذي له[3]. وسمي الباب الرابع (باب البصلية) نسبة إلى محلة البصلية وموقعه في الباب الشرقي الحالي، وقد نقضته أمانة العاصمة خلال أيام أمانة أرشد العمري سنة 1910م.

إن باب الظفرية (الباب الوسطاني) القائم الآن يعطينا فكرة واضحة عن تحصينات بغداد وشكل أبوابها[4]، وهو أقدم مثال قائم في بغداد للمداخل التي ترجع إلى العصر العباسي. يقع قرب تربة الشيخ عمر السهروردي وهذا الباب يسمى اليوم الباب الوسطاني لتوسطه جدار هذا السور[5]. يتكون هذا الباب من برج أسطواني يبلغ ارتفاعه حوالي 14,5 متر ومحيطه عند القاعدة 56 متراً. وللبرج بابان أحدهما في الجهة الشمالية الغربية تقوم أمامه قنطرة قائمة فوق الخندق الذي يحيط بالسور لعبور الداخلين إلى المدينة، والباب الثاني للبرج يقع في الجهة

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج 9، ص 58.

(2) جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص 160.

(3) غازي، المصدر السابق، ص 219.

(4) خالد، أسوار بغداد الشرقية، ص 25.

(5) غازي، المصدر السابق ص 99.

الغربية يؤدي هذا الباب إلى قنطرة فوق الخندق أيضاً على كل من جانبيها ممر محاط بسور مزود بالمزاغل والشرفات على غرار شرفات مدينة المنصور. استخدمت هذه الشرفات والمزاغل لصد هجمات الأعداء عند محاولتهم اقتحامه، ومن أهم ما يمتاز به هذا الباب هو أنه يعتبر نموذجاً للمداخل المزورة التي يجب على من يجتازها أن ينحرف نحو اليمين لكي يخترقها، وهذا شبيه بأبواب مدينة المنصور المدورة التي كانت مداخلها على هذا النمط، كما يمتاز هذا المدخل بواجهته المزخرفة المطلة على داخل المدينة ووجود شريط زخرفي من الكتابات التذكارية المحيطة بالبرج من الأعلى ومعظم زخارفه أشكال هندسية قوامها نجوم متنوعة بعضها كبيرة متعددة الرؤوس وبعضها الآخر أصغر حجماً وأقل عدداً في رؤوسها، وبين هذه الأشكال البديعة مضلعات تتصل بالنجوم وتدور حولها.

وزخرفت بواطن هذه النجوم بزخارف نباتية قوامها أغصان وفروع متشابكة تؤلف أزهاراً ووروداً مفصصة، وعلى كل جانب من جانبي المدخل شكل أسد بحجم صغير منحوت بصورة بارزة قليلاً.

إن هذا المدخل يعتبر أقدم نموذج قائم للمداخل التي أقيمت في بغداد خلال العصر العباسي، والذي يحتوي على بعض الزخارف الجدارية التي تعتبر أقدم ما وصلنا منها في بغداد من ذلك العصر، وحالياً يخضع المبنى إلى عملية صيانة وتطوير المنطقة المحيطة به لكي تليق بهذا الصرح البارز لمدينة بغداد ولمقام الشيخ السهروردي ولا يزال العمل جارياً فيه.

قلعة الموصل - باشطابيا

تعد القلعة من أهم المرافق الحربية في المدينة حيث تشكل مركز الدفاع فيها فهي معقل الجيش ومستودع الذخيرة والعدد الحربية.

يطلق عليها حالياً بين عامة الناس من سكان الموصل اسم باشطابيا، وهي كلمة تركية وتعني البرج الكبير وهي تعد من أهم القلاع التي شيدت في مدينة الموصل وأقدمها، تقوم بالقرب من دور المملكة إلى الشمال من المدينة على أرض مرتفعة وتشرف على نهر دجلة، لايعرف تاريخ بنائها إلا أن أقدم ذكر لها كان سنة 378هـ/988م[1]، ويرى بعض المؤرخين أن تأسيسها كان في زمن العقيليين استناداً

(1) الديوهجي، تاريخ الموصل، ج 1، ص 176.

إلى رواية تاريخية تتحدث عن النزاع الذي حدث بين علي العقيلي والمعسكر العقيلي، وذلك سنة 278هـ/891م كما ورد ذكرها في سنة 450هـ/158م، حيث جاء في حوادث تلك السنة أن البساسيري وقريش بنى بدران العقيلي كان قد هاجم الموصل بعد رحيل إبراهيم كي ينال منها، فحاصر البساسيري القلعة أربعة أشهر ولما استولى عليها أمر بهدمها[1].

في العهد السلجوقي وفي عهد الأمير جكرمش الذي عرف بحرصه واهتمامه بتحصين الموصل وبناء الاستحكامات العسكرية، شرع في تعمير السور وبناء فصيل عليه وحفر الخندق، وكانت القلعة كبيرة تتسع لعدة آلاف من الجند[2].

ولما تولى عماد الدين زنكي الحكم عني بها فبناها قلعة واسعة يحيط بها سور تتسع لآلاف من الجيش ولوازم الحرب[3]، وعندما زارها الرحالة ابن جبير سنة 579هـ/1183م وصف القلعة قائلاً : «وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها، يحيط بها سور عتيق البنية مشيد البروج تتصل به دور السلطان»[4].

بقيت القلعة قائمة حتى سنة 660هـ/1261م حيث داهمها المغول ودمروها[5]، وفي سنة 796هـ/1393م هدم تيمورلنك ما تبقى منها.

وفي سنة 1035هـ/1625م أعيد بناء القلعة في فترة الحكم العثماني، حيث أمر بكرباشا بتعمير سور المدينة وعمر السور والقلعة، وشيد فيها غرفتين خاصتين بالجيش، كما تم ترميم السجن القائم تحت برجها[6] (شكل رقم 44).

وفي عام 1158هـ/1725م قام حسين باشا الجلبي بترميم بناء القلعة كما هو مدون على واجهة القلعة[7]، كما أشار السيوفي إلى الإصلاحات التي قام بها سليمان باشا الجلبي في سور المدينة وقلعتها.

---

(1) موسوعة حضارة الموصل، ج 2، ص 150.

(2) الديوهجي، "سور الموصل"، مبحث نشر في مجلة سومر، العدد 17، ص 82.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 239.

(4) ابن جبير، أبو الحسن محمد، رحلة ابن جبير، مطبعة السعادة، مصر، 1908، ص 210.

(5) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 346.

(6) العمري، ياسين خير الله، منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه جي، مطبعة الهدف، 1955، ص 45.

(7) السيوفي، نقولا، مجموعة الكتابات المحررة على أبنية الموصل وقلعتها، تحقيق سعيد الديوه جي، مطبعة شفيق، بغداد، سنة، 1956، ص 144.

وبعد هذا التاريخ لم نجد لهذا الحصن ذكراً في المصادر التاريخية سوى إشارة الرحالة نيبور الذي مر بالموصل عام 1838، قال عنها : «حفظت أسوارها من الخراب ومنها باشطابيا الموصل وهي بناية عظيمة بعيدة لا يسكنها أحد»، أما عمارتها فلم يصل إلينا منها اليوم سوى برج واحد وقسم السور الرئيسي الذي يبلغ طوله 25 متراً وسمكه 3,5م، ويرتفع البرج عن الأرض بمقدار 11,20م من الجهة الشمالية والغربية، و16م من الجهة المطلة على النهر (شكل رقم 45). وهذا البرج مجوف مقسم إلى عدة حجرات تؤدي إلى دهليز لازالت آثاره واضحة ويسمى السجن، استخدم في فترة الحكم العثماني للعراق مخزناً للعتاد تحيط بالبرج شرفات بلغ ارتفاعها 120م، وفتح فيها عدد من المزاغل من الأعلى لتعزيز مداخل الحصن. وهذا النوع من المزاغل (مساقط) عرفناه في بناء حصن الأخيضر، مما يدل دلالة واضحة على أن المحتلين لم يدخلوا شيئاً في فن التحصين على موروثاتنا المحلية.

ولهذه القلعة أبواب نذكر منها باب الميدان والباب الغربي والمعروف بباب السر الذي يؤدي إلى نهر دجلة من جهة عين كبريت، ومواضع أبوابها ينزل منه بدرجات بنيت داخل النفق وهو يقوم مقام باب السر[1]. لا تزال آثار هذه القلعة إلى اليوم تقف شامخة لتدل على عظمة التخطيط والبناء في مجال تحصين المدن والقلاع الذي كانت عليه مدينة الموصل في تلك الحقبة الزمنية، وتعرف حالياً بين عامة الناس باسم باشطابيا، وهي كلمة تركية وتعني البرج الكبير.

القشلة

لفظة تركية مأخوذة من الفعل قاشلاغ بمعنى أشتى أو المشتى، ثم صار لفظ القشلة اصطلاحاً يطلق على ثكنة الجند أي وقت تعسكر الجند وعدم خروجهم للحرب[2]، وتقع القشلة جنوبي السراي. والمبنى أوسع من السراي بمرة ونصف المرة تقريباً، وكان يستوعب عدة آلاف من الجنود. والقشلة ذات طابقين (شكل رقم 46) يتوسطها ساحة داخلية تتصل بساحة السراي وتمتد على ضفة نهر دجلة حيث تتصل بها مسناة السراي أيضاً. وكان الشروع في بناء هذه القشلة سنة (1268هـ/1851م) على عهد الوالي نامق باشا الكبير، وذلك لاتخاذها معسكراً

---

(1) الديوه جي، "سور الموصل"، مبحث نشر في مجلة سومر، العدد 17، ص 7.

(2) الشيخلي، روف، مراحل الحياة في الفترة المظلمة، ج 1، ص 68.

وبعد هذا التاريخ لم نجد لهذا الحصن ذكراً في المصادر التاريخية سوى إشارة الرحالة نيبور الذي مر بالموصل عام 1838، قال عنها : «حفظت أسوارها من الخراب ومنها باشطابيا الموصل وهي بناية عظيمة بعيدة لا يسكنها أحد»، أما عمارتها فلم يصل إلينا منها اليوم سوى برج واحد وقسم السور الرئيسي الذي يبلغ طوله 25 متراً وسمكه 3,5م، ويرتفع البرج عن الأرض بمقدار 11,20م من الجهة الشمالية والغربية، و16م من الجهة المطلة على النهر (شكل رقم 45). وهذا البرج مجوف مقسم إلى عدة حجرات تؤدي إلى دهليز لازالت آثاره واضحة ويسمى السجن، استخدم في فترة الحكم العثماني للعراق مخزناً للعتاد تحيط بالبرج شرفات بلغ ارتفاعها 120م، وفتح فيها عدد من المزاغل من الأعلى لتعزيز مداخل الحصن. وهذا النوع من المزاغل (مساقط) عرفناه في بناء حصن الأخيضر، مما يدل دلالة واضحة على أن المحتلين لم يدخلوا شيئاً في فن التحصين على موروثاتنا المحلية.

ولهذه القلعة أبواب نذكر منها باب الميدان والباب الغربي والمعروف بباب السر الذي يؤدي إلى نهر دجلة من جهة عين كبريت، ومواضع أبوابها ينزل منه بدرجات بنيت داخل النفق وهو يقوم مقام باب السر[1]. لا تزال آثار هذه القلعة إلى اليوم تقف شامخة لتدل على عظمة التخطيط والبناء في مجال تحصين المدن والقلاع الذي كانت عليه مدينة الموصل في تلك الحقبة الزمنية، وتعرف حالياً بين عامة الناس باسم باشطابيا، وهي كلمة تركية وتعني البرج الكبير.

القشلة

لفظة تركية مأخوذة من الفعل قاشلاغ بمعنى أشتى أو المشتى، ثم صار لفظ القشلة اصطلاحاً يطلق على ثكنة الجند أي وقت تعسكر الجند وعدم خروجهم للحرب[2]، وتقع القشلة جنوبي السراي. والمبنى أوسع من السراي بمرة ونصف المرة تقريباً، وكان يستوعب عدة آلاف من الجنود. والقشلة ذات طابقين (شكل رقم 46) يتوسطها ساحة داخلية تتصل بساحة السراي وتمتد على ضفة نهر دجلة حيث تتصل بها مسناة السراي أيضاً. وكان الشروع في بناء هذه القشلة سنة (1268هـ/1851م) على عهد الوالي نامق باشا الكبير، وذلك لاتخاذها معسكراً

(1) الديوه جي، "سور الموصل"، مبحث نشر في مجلة سومر، العدد 17، ص 7.

(2) الشيخلي، روف، مراحل الحياة في الفترة المظلمة، ج 1، ص 68.

للجيش. وفي عهده لم يكتمل البناء، وأكمله من بعده الوالي مدحت باشا[1]. يتكون المبنى من طابق واحد وفي سنة (1285-1288هـ/1868-1872م) أضاف مدحت باشا والي العراق إلى بناء القشلة مباني منها طابق ثانٍ. وفي سنة (1285هـ/1868م) تم تشييد برج الساعة القائم في وسط واجهة القشلة المطلة على نهر دجلة (شكل رقم 47)، وهو برج مجوف أقيم لإيقاظ الجند ارتفاعه (23م)[2]. وللقشلة مدخل رئيسي يتوسط الضلع الشرقي، ولها مدخل آخر يتوسط الضلع الجنوبي مقابل بناية المحاكم. ودعمت هذه البناية من الداخل والخارج بدعامات موزعة على مسافات متساوية ترتفع إلى طابق واحد فقط، والدعامات الداخلية ذات شكل نصف أسطواني مندمجة بالجدارن تعلوها شرفات مسننة بارزة تحصر بينها حنايا. وهذه الأبراج تتصدر الرواق الذي يتقدم الغرف في الطابق الأسفل والذي يطل على الساحة الداخلية، أما الدعامات الخارجية فهي ذات شكل مستطيل تتوجها شرفات مسننة بارزة مستطيلة عقدت بينها حنايا ترتفع إلى طابق واحد. أما الطابق الثاني فهو بشكل سلسلة يقصدها رواق مسقف بسقف مسطح يفتح على الساحة الداخلية بسلسلة نوافذ، ومن الخارج تطل نوافذ الغرف المستطيلة الشكل على الشارع العام. جدد بناء قمة برج الساعة في الثلاثينيات من القرن العشرين (العلاف، بغداد القديمة، 128)، وكان في هذه القشلة سجن للجنود الهاربين من الجندية ومرتكبي الجرائم أثناء الخدمة العسكرية. ويشرف على هذا السجن آمر انضباط وقد تولى هذا المنصب أتراك وعرب من بغداد[3].

وقد جرت على بناء القشلة أحداث كثيرة منها في سنة (1921م) توج الملك فيصل الأول في ساحة القشلة، واتخذها مقراً لحكمه. وفي عام 1923م ولد المتحف العراقي في إحدى غرف الطابق الأول من المبنى. وفي السنين الأخيرة أنشئت مباني عديدة لدوائر حكومية منها وزارة الداخلية ومجلس الوزراء.

---

(1) كوك، ريجارد، بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، مطبعة شفيق، 1967، ص 37.
(2) العزي، نجلة إسماعيل، "سراي بغداد والقشلة"، مبحث نشر في مجلة سومر، العدد م 34، سنة 1978، ص 34.
(3) ثامر، التطور الفيزياوي للقشلة، ص 85.

الفصل السادس

الخصائص الفنية والمعمارية للمباني العراقية

المبحث الأول

الخصائص الفنية

الزخارف الجصية

تشهد المخلفات الأثرية القائمة في العراق والتي ترجع إلى عصر إسلامي مبكر كالقصر الذي شيده عبد الله بن زياد والي البصرة في منطقة الشعيبة في البصرة سنة (41-60هـ/661-680م)، والمباني الأثرية في الحيرة التي يرجع تاريخها إلى أواخر العصر الأموي تشهد باستخدام زخارف نباتية يغلب عليها أوراق العنب وعناقيده. وفي موقع أسكاف بنى جنيد عثر في قاعة استقبال قصر مؤرخ من القرن الثاني للهجرة على زخارف نباتية تزين واجهات هذه القاعة نفذت على الجص تعتمد بالدرجة الأساسية على موضوعات نباتية محصورة داخل أشكال هندسية بسيطة، كذلك كشفت التنقيبات الأثرية في دار الإمارة في الكوفة التي شيدها سعد بن أبي وقاص على بعض الزخارف الجصية المبكرة أيضاً. وما أشرنا إليه يدل على أن أول طراز في الفن الإسلامي قام في العهد الأموي ثم في العصر العباسي وشاع في كل أقطار العالم الإسلامي بعد ذلك[1].

وفي العصر الإسلامي كان للعراق دور واضح في إبراز شخصية الفن الإسلامي، فدور بغداد كان يتصل بتخطيط المدن الإسلامية ودور سامراء يتصل بابتكار الزخرفة الإسلامية، أما دور الموصل فكان يتصل بانفتاح هذه الزخرفة وظهور الأربيسك في أبهى حللها. وخلال هذا العصر أظهر الفنانون عبقريتهم في رسم الزخارف النباتية في مدينة بغداد، حيث اتخذ الفن اتجاهاً جديداً وبلغ أوج عظمته في مدينة سامراء، إلا أنه بدأ بالانحدار بعد ذلك نتيجة لضعف الخلفاء العباسيين في القرن الخامس الهجري، وظهرت طرز فنية مستقلة في شتى أنحاء العالم الإسلامي. وما تعرضه متاحف العالم الإسلامي والأوربي ما هو إلا دليل

---

(1) حميد، عزيز، "الزخرفة في الجص"، مبحث نشر في كتاب حضارة العراق، 1985، ج 9، ص 372.

واضح على مدى التطور الذي طرأ على الزخارف النباتية، وفي الوقت نفسه دليل على مدى النضوج والمهارة الفنية لدى الفنان المسلم، منها منبر جامع سيدي عقبة بالقيروان الذي صنع في بغداد في أواخر سنة (242-490هـ/856-863م)، وحشوات قبر عثر عليه في مدينة تكريت مؤرخ في نهاية القرن الثاني الهجري ومحفوظ الآن في متحف المترو بوليتان في نيويورك.

وقد ساهم الملوك في تطوير الزخارف النباتية، وذلك بالإبداع والاستنباط والابتكار، فظهرت أنواع جديدة من الأشكال الزخرفية أطلق عليها زخرفة الأرابسك أي التوريق العربي، وقد أجمع علماء الفنون على أن الأرابسك ولد في سامراء، أما تاريخ نشوء هذه الزخرفة فأغلب الظن كانت بدايتها في القرن الثالث الهجري حينما ظهرت على العمائر والتحف وبصورة خاصة في زخرفة مباني سامراء العاصمة العباسية الثانية. وفي هذه المدينة ظهرت ثلاثة طرز زخرفية للزخارف النباتية تميزت بثلاثة ظواهر رئيسية.

الطراز الاول : زخارف هذا الطراز أقرب للزخارف الجصية التي تم العثور عليها في مواقع الحيرة واسكان بني جنيد، وتمتاز بتقنية عالية، نخص منها بالذكر الزخارف التي تم العثور عليها في قصر الجو سق الخاقاني المنفذة على الجص والخشب، وتتميز هذه الزخارف بحفرها العميق وقربها من الطبيعة ولاسيما رسم ورقة العنب ذات القطاع المقعر وعناقيد العنب ذات الثلاثة فصوص، وله قطاع محدب ثم عناصر كأسية ذات قطاع محدب، وتخرج أوراق العنب وعناقيده في عروق طويلة تمتد في انحناءات وحلزونات، ويتضح في أسلوب حفرها اتساع الأرضيات وتجسيم العناصر في تقعر وتحدب، ووضعت هذه الوحدات الزخرفية داخل أشكال هندسية (شكل رقم 48).

ومن القصور العباسية التي يتجلى فيها الطراز الأول قصر الجص الذي شيده المعتصم بالله للنزهة وقصر الحويصلات.

الطراز الثاني : وهو طراز انتقالي من الشكل الأول إلى شكل جديد نفذت زخارفه بطريقة الحفر العميق وبحرية دون تكرار، كما حرص الفنان على الإبقاء على الأشكال الهندسية التي تحيط بالزخارف، وابتعد الفنان في رسمه للوحدات الزخرفية التي تمثل الأشكال عن تجسيد المخلوقات، مستجيباً في ذلك لفلسفته في الفن التي تتلخص في عدم مضاهاة الله في خلقه، وقد تضاءلت في هذا الطراز مساحة خلفية الرسم وأصبحت مجرد خطوط تفصل بين العناصر الزخرفية، كما

تطورت العناصر إلى وحدات كبيرة ويتبع محيط كل عنصر منها الحدود الخارجية للعناصر الأخرى التي تحيط بها. وأقبل الفنان في هذا الطراز على التبسيط حيث بدأت أوراق العنب في هذا الطراز تفقد فصوصها الخمسة لتتحول إلى شبه دائرة وفي داخلها شيء من التنقيط السريع، أما عناقيد العنب فقد فقدت الفصوص الثلاثة ثم تحولت حبات العنب نصف الكروية إلى مربعات بسيطة، وبالنسبة للسيقان وأعضاء العنب فقد باتت غليظة.

أما بالنسبة إلى العناصر النباتية الأخرى مثل كيزان الصنوبر والوريدات فقد تحولت هي الأخرى إلى أشكال لا علاقة لها أصلاً بأشكالها الأصلية، ولم يعد هناك تقعر ولا تحدب بالنسبة إلى الورقة وعنقود العنب، فأصبحت السطوح المزخرفة سطوح مستوية بشكل عام. كان هذا الطراز يمثل الخطوة الأولى التي خطاها الفنان المسلم في سبيل ابتداع طرز جديدة، بينما الأول كان موجوداً بالفعل قبل تأسيس سامراء.

في هذا الطراز كان يتم تنفيذ الزخارف على الجص حيث يقوم الفنان أولاً برسم الأشكال على الجص بالقلم أو بآلة مدببة ثم تحفر الأرضية حولها فتبدو بارزة، بينما تكون الأرضية غائرة وبين هذا البروز وهذا الغور يلعب الضوء دوراً يضفي على الزخرفة مجالاً فنياً رائعاً، وقد تميز هذا الطراز في زخرفته(2).

الطراز الثالث: ظهر هذا الطراز في منتصف عصر سامراء تقريباً وربما ظهر لأول مرة في عصر المتوكل (232-247هـ/847-861م)، فهو يختلف بشكل أساسي عن زخارف الطرازين الأول والثاني (شكل رقم 49)، فقد تميز هذا الطراز بصفتين رئيسيتين لم تعرفا في الطرازين السابقين، الصفة الأولى الاعتماد على المراوح النخيلية بدلاً من أوراق العنب وعناقيده كأساس في الزخرفة، كما ظهر في هذا الطراز، ولأول مرة، في الزخرفة الإسلامية بشكل عام مراوح نخيلية بسيطة ينتهي طرفاها بحلزون حتى بات شكلها أشبه بالقلب. ومن المميزات الأخرى لهذه الطرز أن الزخرفة لم تحصر في إطارات، بل جعلت الزخرفة في وحدتين تتكرر بالتبادل وبشكل لانهائي.

الصفة الثانية أسلوب القطع المائل في الزخرفة والذي يعرف أيضاً بالقطع المشطوف، وظهرت في هذا الطراز براعة ونجاح الفنان في الاستفادة من عنصر

Hameed, Abdul Aziz, Some Aspect in the Evolution of Samara Stucco Ornament, 1965, p. 21 (1)

المروحة النخيلية بأشكالها المختلفة، والتي تمتاز بتكيفها في المساحة المحيطة بها وقابليتها على الانشطار.

لقد انتشر الطراز الثالث في زخرفة الأخشاب المنقوشة في سامراء وزخرفة التحف المعدنية والرخام وفي حشوات الجصية التي تكسو جدران معظم قصور سامراء، منها قصر الجص والبركة والحير. أما الطراز الثاني فقد ظهر استخدامه في زخرفة الجص ذي البريق المعدني نظراً لملاءمته لطبيعة النقش على مسطحات مستوية.

انتقل طراز سامراء إلى مصر حيث نجد هذا الطراز متمثلاً على واجهات مبنى جامع أحمد بن طولون في القاهرة. ويذكر أن القائد أحمد بن طولون هو الذي نقل هذا الطراز إلى مصر.

لقد تخطى الفنان المسلم التقليد والاقتباس من الفنون الأخرى في العصر العباسي، فكشف عن شخصية فناني العراق في زخارف الطراز الثالث، ومن هذا الطراز زخرفة الأرابسك أي زخرفة التوريق العربي.

الخصائص الفنية للزخارف النباتية والهندسية المنفذة على الآجر

لا تقل الزخارف الآجرية أهمية عن الزخارف الجصية في الدقة والإتقان، خصوصاً وأن الآجر كان المادة المعول عليها في البناء في وسط وجنوب العراق. ولم يكن الآجر المادة الأساسية للبناء في منطقة الموصل، ولكن كان له استخدامات خاصة، وذلك لطبيعته التي يمكن تلخيصها بما يأتي :

1. خفة الوزن.
2. إمكانية قولبة الآجر بالشكل والحجم المطلوبين، بحيث يمكن استخدامه في أدق الأمور المعمارية من تيجان وأعمدة ومقرنصات وقباب، أي إمكانية استخدامه للمنحنيات والتقعرات في إقامة القباب والمآذن والقبوات.
3. سهولة الحفر على الآجر لتنفيذ الزخارف النباتية وكتابة الأفاريز الزخرفية الدقيقة[4].

---

(1) عبو، عادل نجم، "المنشآت المعمارية"، مبحث نشر في كتاب : موسوعة الموصل الحضارية، م 3، ص 273.

تطورت زخارف الأرابيسك وخصوصاً تلك التي نفذت على الآجر خلال العصر السلجوقي في العراق وإيران، ووصلت ذروة نضوجها في زخرفة التحف والعمائر التي أقيمت في بغداد والموصل. وما هو معروض في قاعات المتحف العراقي خير دليل على مدى التطور والنضج التي وصلت اليه زخرفة الأرابيسك في العراق، ولكن نصيب العراق في تكون هذه الزخارف أكبر من أي بلد إسلامي آخر.

وكان ميدان الزخرفة على الآجر أوسع الميادين قاطبة، زخرفت فيه باطن الأبنية وظاهرها، وأظهر الفنان مهارة وقابلية فأخرج أروع وأتقن الزخارف وأدقها، ولعل توفر هذه المادة ومطاوعتها للزخرفة والحفر شجع الفنان على استعمالها في الزخرفة، وقد اتبع طرقاً متعددة في زخرفة الآجر، فهي كانت تتم إما بطريقة حفر الزخارف على قطع الآجر، أو بطريقة وضع الآجر في وضعيات مختلفة نتج عنها زخارف ذات أشكال هندسية متنوعة، أو أن ينفذ الفنان زخارفه على الآجر بطريقة رسم الأشكال المطلوبة والعمل على حفرها بمستويات مختلفة، أو بمستوى سطح الأرضية، وهذه الطريقة شاع استعمالها في العصر السلجوقي ونفذت على معظم الأبنية التي وصلت إلينا. ونتج عن وضع هذه القطع الآجرية وحدات زخرفية جميلة، وجميع هذه الطرق تتطلب الدقة والمهارة الهندسية وحسابات دقيقة متقنة لتنفيذها[1] (شكل رقم 18) و(شكل رقم 14).

إن أقدم المعالم الأثرية العباسية التي ازدانت بالزخارف الآجرية وجدناها قائمة في باب مدينة الرافقة (الرقة في سورية) مؤرخة سنة (155هـ/772م) التي بنيت بالآجر وزينت بزخارف آجرية تألفت نتيجة التلاعب في عملية وضع الآجر أثناء البناء، ويسمى هذا النوع من الزخرفة بالزخرفة الحصيرية. إن أقدم المباني التي زينت بهذه الزخارف والتي لا تزال قائمة، واجهات حصن الأخيضر المطلة على الفناء. وهذه الزخرفة معروفة قبل العصر الأموي، إلا أنها ظهرت لأول مرة في العصر العباسي[2]. تمثلت هذه الزخارف في مبنى مشهد الإمام الدوري الذي شيد في نهاية القرن الخامس الهجري، حيث نفذت الزخرفة في واجهاته الأربعة عن طريق تفاوت المستويات في رصف الآجر، وكما هو مدون على واجهة المبنى قام بتنفيذ البناء ابن شاكر بن أبي الفرج، وهذا البناء قام ببناء مزار الإمام حمزة في إيران[3].

---

(1) الأعظمي، خالد، زخارف العمارة العربية الإسلامية في العراق، بغداد، 1980، ص 88.

(2) عزيز، المبحث السابق، ص 369.

(3) المصدر نفسه، ص 480.

ثم خطت الزخرفة الآجرية خطوات كبيرة إلى الأمام لتشكيل زخارف هندسية متناسقة مختلفة الأنواع منها الخطوط المستقيمة، والصلبان المعكوفة المترابطة. وأقدم أمثلتها وجدناها قائمة في مئذنة سنجار من القرن السادس ومأذنة جامع النوري في الموصل، إذ وجدنا هذا النوع من الزخرفة يغطي بدن المئذنة كله تقريباً، وقد رتبت الزخارف في أشرطة تحيط بالبدن من أسفلها عند القاعدة حتى القمة. أما في العراق فقد وجدناه في ساحة البهو الأوسط في قصر الأخيضر، وفي بناء الإمام الدوري، كما نجد أشكالاً هندسية منفذة على الآجر قائمة في مئذنتي سنجار والجامع النوري في الموصل.

إن الحدث المهم في الزخرفة كان في القرن الخامس الهجري عندما شهد العراق نهضة عمرانية جديدة اعتمدت على استخدام مادة الآجر في البناء والزخرفة بشكل واسع، واستمرت في الاستعمال إلى الوقت الحاضر، نظراً لوفرة المواد الأولية لصناعة الآجر، وكذلك نظراً لخصائصه مثل سهولة تهذيبه ونحته وتقطيعه وتركيبه في عمل الزخارف المختلفة كما تشهد على ذلك الزخارف العديدة التي وصلت إلينا من بغداد. وعلى الرغم من أن بغداد كانت حاضرة العالم الإسلامي ومصدراً لكثير من فنونه المتعددة، غير أنه لم تصلنا أمثلة منها عن التوريق العربي تعود إلى ما قبل القرن السادس الهجري، وذلك لعدم بقاء أبنية قبل تلك الفترة. وأقدم مثال نراه في باب الظفرية (الباب الوسطاني)، ومما امتازت به زخارف واجهة هذا الباب أن الغالب عليها هو الطابع الهندسي الممثل بالخطوط المتقاطعة والمتداخلة التي تحيط بالزخارف النباتية لكي تقيد حركتها وامتدادها، كما وجه الفنان اهتمامه نحو تكوين النجوم المختلفة الأحجام والأشكال التي احتلت مكان الصدارة بين الأشكال الهندسية، وإلى جانب هذه الأشكال الهندسية والنباتية نجد الأشكال الحيوانية التي تمثل الأسود. لقد نفذت جميع هذه الزخارف بعناية ودقة، وهذا دليل على أن الفنان لم يقتصر اهتمامه على زخرفة المباني الدينية والمدنية، بل شمل عمله أيضاً المباني العسكرية كالقلاع والأسوار والمداخل. ومن أجمل الأبنية العباسية المتبقية في بغداد البناء المعروف حالياً بالقصر العباسي (المدرسة الشرابية)، والذي يرجع تاريخه إلى أوائل القرن السابع الهجري، وهو يعتبر من روائع الفن الإسلامي في العمارة والزخرفة.

وأشهر أبنية العصر العباسي المدرسة المستنصرية التي أنشأها الخليفة العباسي المستنصر بالله، والتي كانت نموذجاً للمدارس في تخطيطها وعمارتها

وزخرفتها(شكل رقم 29)، حيث كسيت جدرانها بعناصر زخرفية نباتية متنوعة في أشكالها وأسلوبها وطرق صناعتها مما يدل على نضوج هذا الفن ورسوخه[1]. تميزت بناية المدرسة بتعدد أنواع زخارفها الهندسية التي قوامها الأشكال النجمية والأطباق المتعددة والصلبان المعكوفة، هذا إلى جانب أشكال المربعات والمسدسات والمخمسات المتداخلة، أما الزخارف النباتية فلها الحظ الأوفر ليس فقط في كثرة استخدامها، ولكن لما تتميز به من الدقة والإتقان في تنفيذ التفاصيل بعضها مستقلة والبعض الآخر يقوم داخل الأشكال الهندسية، وقوام هذه الزخارف المراوح النخيلية وأنصافها وأشكالها المركبة. وظهر طراز ثالث استخدم في زخرفة الآجر هو الأطباق النجمية الناتج عن قطع الآجر في أشكال معينة تمثل أجزاء الطبق النجمي، ثم تثبت على واجهة المبنى المراد زخرفته بهذه الأطباق بواسطة الجص. وجدنا هذا النوع من الزخارف في واجهة تربة السيدة زمرد خاتون، وفي زخرفة المدرسة المستنصرية، وفي بناء المدرسة الشرابية في بغداد. كما وجدنا هذه الأطباق القائمة في هذه المباني متنوعة، ففي المدرسة المستنصرية وجدنا أكثر من عشرين نوعاً[2]. وفي نهاية القرن السادس الهجري اتبعت طريقة مغايرة عن الطريقة السابقة لزخرفة الآجر، وهي طريقة حفر الزخرفة على الآجر وجعلها تقوم داخل أشكال هندسية متنوعة.

ومن العمائر التي تعتبر استمراراً للعصر العباسي في الزخرفة مئذنة جامع الخلفاء (شكل رقم 14) التي جددت في سنة (178هـ/1279م)، ثم مشهد الشيخ عمر السهروردي الذي تم تجديده سنة (537هـ/1334م).

وبعد احتلال بغداد من قبل المغول بحوالي قرن من الزمان بنيت في بغداد المدرسة المرجانية في سنة (758هـ/1357م)، وقد تهدم بناؤها مؤخراً وبقي منها مدخلها (شكل رقم 23)، وكان ذا ثروة زخرفية نباتية متميزة. زخارف هذه المدرسة تضاهي زخارف المدرسة المستنصرية من حيث تكوينها ودقة صنعها وتنوعها ووفرتها، والمادة الرئيسية لتلك الزخارف هي الآجر والآجر المزجج الذي استعمل بشكل قليل في زخرفة المئذنة وجوانب قبة المرقد، اتبع الفنان في تنفيذها وضع الآجر بأوضاع مختلفة بحيث ينتج عنها زخارف بسيطة، وفي البعض الآخر نرى زخارف محفورة بشكل بارز فتكون كل قطعة من الآجر ذات زخارف مستقلة قائمة

---

(1) خالد، المصدر السابق، ص 88.

(2) عزيز، المصدر السابق، ص 413.

بذاتها كما وجدنا أهم أنواع الزخارف هي الزخارف الهندسية والتوريق والمقرنصات والكتابات، وهذه الأشكال تشبه ما وجدناه في المباني السابقة.

ومما ساعد على انتشار الزخارف الآجرية هو أن العصر السلجوقي امتاز بنشاط الحركة العمرانية في العراق وإيران وآسيا الصغرى، وكان للعمارة العراقية في العصر السلجوقي خصائص عديدة أبرزها شيوع استخدام الآجر في البناء دون تغطيته بالملاط، ثم تزيين الجدران بزخارف آجرية، حيث اتخذت في بداية الأمر ترتيب الآجر واختلاف أوضاعه قاعدة أساسية لها.

وكما نعلم شيدت في العراق خلال هذه المرحلة التاريخية مباني متنوعة منها المساجد والمدارس والمشاهد والأسوار والأبواب والقصور والدور الفخمة.

ومما وصل إلينا من الأبنية نلاحظ أن الزخرفة الآجرية اعتمدت على العناصر الهندسية والنباتية والكتابات. إن الزخرفة التي تزين العمارة البغدادية تمثل خلاصة الزخارف العربية الإسلامية من حيث تنوعها وأشكالها وعناصرها وأساليبها، وهي بذلك قد حفظت لنا سجلاً حافلاً من الثروة الزخرفية التي عبرت في المظهر والجوهر عن فن أصيل وذوق رفيع انتقل من بغداد عاصمة الدولة العباسية في عصرها الذهبي إلى أنحاء العالم الإسلامي، ومن هنا جاء الاهتمام بالزخارف التي تزدان بها العمارة العربية الإسلامية القائمة في العراق.

البلاطات الخزفية

هناك ضرب آخر من ضروب الزخارف الآجرية ألا وهو القراميد المزججة والبلاطات الخزفية في زخرفة المباني التي سبق الحديث عنها في الفصول السابقة، إذ وجدناها تزين الواجهات والقباب والمآذن والمحاريب. وأقدم إشارة له في العمارة الإسلامية جاءت من واسط في بناء قبة واسط، حيث ذكر أن الحجاج شيد في وسط مدينته دار الإمارة والتي عرفت بالقبة الخضراء وقصر المنصور في بغداد، والذي يعرف قصر القبة الخضراء، كما وردت إشارة إلى البلاطات الخزفية التي جلبت من العراق لإكساء واجهة محراب جامع القيروان في تونس.

استمرت ظاهرة استخدام البلاطات الخزفية في إكساء واجهات المباني خلال العصر العباسي[1]، وذلك على شكل أشرطة أو إطارات تحيط بالزخارف الآجرية

(1) غازي، العمارة العراقية، ص 301.

الأخرى. وقد تمثلت هذه الأشرطة في زخارف مئذنة معروف الكرخي وجامع قمرية في بغداد، وفي واجهة مشهد يحيى بن القاسم (شكل رقم 50)، وجامع الخضر في الموصل، وازدادت ظاهرة استخدام القراميد والبلاطات الخزفية في كساء وزخرفة واجهات المباني التي أقيمت في جميع أنحاء العراق بعد العصر العباسي حيث نجد معظم مباني العراق مكسية بحلل قشيبة من الألوان المتناسقة[1]، وظهرت أشكال جديدة منها على شكل نجوم وأشكال هندسية وأشرطة كتابية ذات لون واحد أو أكثر، والغالب عليها هو اللون الأزرق، وخلال القرن السادس والثاني عشر الهجريين كسيت واجهات المحاريب بهذه البلاطات القاشانية بعضها منبسطة وبعضها بارزة بروزاً خفيفاً يغلب عليها الزخارف النباتية والأزهار والأشكال الهندسية والطيور، وخلال العصر الصفوي استخدم في تغليف القباب :

1. بلاطات خزفية.
2. فسيفساء خزفية.
3. بلاطات من الذهب الخالص.

والبلاطات الذهبية وجدت قائمة في قباب الأضرحة المقدسة منها قبة ضريح الإمام موسى الكاظم التي تم تذهيبها في سنة (1211هـ) وقبة الإمام علي (ع) في النجف الأشرف و قبة الحسين والعباس في كربلاء (شكل رقم 25) و(شكل رقم 27)، أما القباب الصغيرة فقد استخدمت البلاطات الخزفية في تغليفها. وفي العصر العثماني شاعت ظاهرة إكساء قباب الجوامع والمراقد بالبلاطات الخزفية بصورة ملحوظة تلفت النظر إليها، منها قبة جامع الأحمدية والحيدر خانة والأصفية وقبة الشيخ عبد القادر الكيلاني والإمام الأعظم (شكل رقم 23-24) من بناء السلطان مراد الرابع و قبة الشيخ معروف الكرخي التي تم إكساءها سنة 1330هـ على يد الوالي حسن باشا. وعند مقارنة قباب بغداد مع قباب إيران نجد أوجه الشبه بينهما في أسلوب البناء وطراز الزخارف، نذكر منها على وجه الخصوص قبة مدار شاه في أصفهان التي بنيت سنة 1126هـ وهي مشابهة تماماً لقبة جامع الأحمدي.

كما امتازت قباب إيران باستخدام الفسيفساء الخزفية خلال العصر المغولي مما أكسب القباب سحراً وجاذبية[2]. في العراق شاع استخدام الفسيفساء الخزفية

---

(1) عزيز، المصدر السابق، ص 416.

Survey of Persian Art, London, 1960, Vol. 2, p. 280 (2)

في تغليف المآذن والقباب الصغيرة في الأضرحة التي بنيت خلال العصر الصفوي ومساجد بغداد التي بنيت خلال العصر العثماني[1]، وفي مصر ظهرت بادرة زخرفة القباب وكسائها بالبلاطات في عهد دولة المماليك ثم شاع بعد ذلك في بناء القباب مملوكية، وتطورت هذه الظاهرة بتسكية القبة كلها بالبلاطات الخزفية كما في قبة سليمان باشا وقبة الإمام الشافعي وقبة التكية السليمانية[2].

الزخرفة على الرخام

من المعروف أن مدينة الموصل كانت مركزاً سياسياً لكثير من الدويلات خلال العصر العباسي كالحمدانية والعقيليين والأتابكية، وقد بلغت المدينة أزهى عصورها الفنية في العصر الأتابكي (521-660هـ)[3]، بحيث تعد واحدة من ثلاث مدن تشكل ركائز حضارة العالم نهاية القرن السادس الهجري، وبلغت الذروة في كثير من الجوانب الفنية التي وصلت إلينا بعض المظاهر كالعمارة بموادها المختلفة كالحجر والمرمر والجص والآجر. وأجمل ما أنتجته يد الفنان الموصلي هي الزخارف النباتية والكتابات المنفذة على الرخام[4]. وكما نعلم كان لأهل الموصل مدرسة في فن الزخرفة في الرخام خلال العصور العربية الإسلامية، وكانت مادة الرخام المادة الأساسية في بناء المباني، وذلك لتوفرها في تلك المنطقة فاتخذت منها العقود والمداخل والنوافذ والمحاريب[5]. وقد تفنن المعمار والفنان الموصلي بزخرفتها بالزخارف النباتية والهندسية. ولتنوع الزخارف الرخامية وعناصرها من حيث الأغراض والخصائص، فقد تعددت أساليب تنفيذها، وقد طغى على تلك الأساليب أسلوبان هما أسلوب الحفر وأسلوب التطعيم[6].

شاعت ثلاثة أنواع من الحفر هي الحفر المشطوف والحفر البارز الرأسي والحفر الغائر. النوع الأول تمثل في أغلب زخارف العمائر التي ترجع إلى القرن

(1) سامح، كمال الدين، "تطور القبة في العمارة الإسلامية"، مبحث نشر في مجلة كلية الآداب، القاهرة، 1950، ص 34.

(2) خليفة، ربيع حامد، البلاطات الخزفية في عمائر القاهرة، رسالة ماجستير، كلية الآثار، 1977، ص 163.

(3) الحموي، معجم، ج 5، ص 213.

(4) ذنون، يوسف، "الخط العربي"، مبحث نشر في كتاب موسوعة الموصل الحضارية، ج 3، ص 221.

(5) الجمعة، أحمد قاسم، "الزخرفة الرخامية"، مبحث نشر في كتاب حضارة الموصل، ج 3، ص 340.

(6) عزيز، "الزخرفة في الرخام"، مبحث نشر في كتاب حضارة العراق، ج 9، ص 419.

الخامس الهجري منها الجامع النوري ومزار عبد الرحمن، أما الحفر البارز فقد شمل معظم العناصر الزخرفية في القرن السادس نخص منها بالذكر الأشرطة القائمة في مزار يحيى بن القاسم، والزخرفة البارزة وصلت إلى أقصى مراحل تطورها في منطقة الموصل من حيث أسلوب التنفيذ وتعدد المستويات والعناصر الزخرفية المبتكرة كما في عقد محراب الجامع النوري، أما النحت الغائر فقد تمثل في بعض العناصر العمارية إلى جانب النحت البارز.

ومن الابتكارات الأخرى التي ابتدعها الفنان في زخرفة الرخام التطعيم، أو التنزيل، والأمثلة التي وصلت إلينا كثيرة بعضها تمثل زخارف هندسية ونباتية وبعضها أشرطة كتابية. وقد تبينت ثلاث طرق أساسية من المواد المنزلة على الرخام معظمها يرجع إلى الفترة الأتابكية وامتد بعظها إلى الفترة الألخانية[1]، فالطريقة الأولى تتضمن تنزيل زخارف من الرخام الأبيض على أرضية من الرخام الأسمر، والطريقة الثانية تنزيل الرخام الأسمر على الرخام الأبيض، وهذا يعتبر من النوادر، والطريقة الثالثة تنزيل زخارف جبسية على أرضية من الرخام الأزرق، وهذه الطريقة اتبعت نتيجة لنزوح معظم الفنانين أمام الزحف المغولي إلى الأقطار الأخرى، إلا أن الحفر لم يكن منتظماً، وهذه الطريقة سهلة التنفيذ وهذا لا يحتاج إلى جهد ودقة في العمل، والأمثلة على هذا النوع من التنزيل تتمثل في زخارف الكتابات التي وجدناها تزين جدار مزار يحيى بن القاسم وعون الدين في الموصل.

لقد تبين لنا أن الزخارف النباتية والهندسية التي تم تنفيذها على الرخام بواسطة الحفر من أهم عناصرها الأوراق النخلية والكاسية وأوراق العنب كما تميزت الأغصان بألوانها ورشاقتها، وكانت الأوراق النخيلية وأنصافها من أكثر الأنواع شيوعاً. وخلال القرن السابع اختفت الأرضيات وكبرت العناصر الزخرفية وانقسمت. إن إحداث التقعر داخل العناصر أكسبها نوعاً من التجسيم، وقد تمثل هذا الطراز في زخارف محراب الجامع النوري ومزار يحيى بن القاسم.

وبخصوص الزخارف الهندسية فقد كانت هي الأخرى مجالاً للتطور والابتكار، فقد كانت تقوم على أسس هندسية دقيقة، وقد بلغت أقصى درجات الدقة والتنفيذ في زخرفة لوح رخامي من المدرسة النورية في الموصل سنة

---

(1) غضب، شاكر هادي، "الفن المعماري والهندسة التشكيلية العامة في المساجد الإسلامية والمراقد المقدسة"، مبحث نشر في مجلة التراث الشعبي، سنة 1971، ع 4، ص 44.

589هـ/1193م، نفـذت هذه الزخـارف بطريقـة التطعـيم بالرخـام الأبيض، أمـا الزخـارف العمـارية فكانت هي الأخرى تشير إلى التطور الذي وصلت إليه والتي أصـابهـا التـدهور بعد القرن السـابع الهجري، إلا أن أجمل مـا وصل إلينا منهـا زخـارف مـدخل الإمـام البـاهر من القرن السـابع، إذ ازدانت واجهـة المـدخل كلهـا بعقود مفصصة.

الزخارف الكتابية

الخط العربي

طرأ تطور كبير على تفاصيل الزخرفة، وذلك باستخدام الخط العربي كعنصر زخرفي أساس ولأول مرة في إطار الزخرفة في العالم الإسلامي. وهذه النصوص دون بعضهـا باللغـات العربيـة والتركيـة والفارسية، إلا أن الأعم والأكثر منها دوّن باللغـة العربية. بقيت هذه النصوص قائمة بالرغم من عمليات الترميم التي جرت على المباني.

وهذه الكتابات تزين واجهات المباني من الداخل والخـارج على شكل أشرطة أو حشوات مستطيلة الشكل أقيمت فوق المداخل كمـا هو الحال في الكتـابة المدونة على واجهة مـدخل المدرسة المرجانيـة، والمدرسة المستنصرية، وخـان مرجـان، وجـامع المـرادية (شكل رقم 51)، وبعضـهـا حشوات أقيمت في واجهـة المحـاريب والمنـابر وبعضـهـا على شكل أشرطة تحيط ببدن المـآذن ورقـاب القبـاب (شكل رقم 23-27-28). تنقسم هذه الكتابات من حيث طبيعة الخط إلى :

1. خط الثلث الذي يعد من أهم الخطوط العربية وأكثرهـا شيوعاً في زخـرفة المباني[1]. لوحظ أن خط الثلث استخدم بصورة عامة في زخرفة البلاطات الخزفية، ولعل السبب في ذلك هو جماله الشديد في إبراز النصوص.
2. الخط الكوفي : وهو قليل إذا مـا قيس بالنسبة إلى خط الثلث، منه :
   أ) كوفي هندسي.
   ب) كوفي مربع.
   ج) كوفي مزوي الطرف.

---

(1) غضب، شاكر هادي، "الفن المعماري والهندسة التشكيلية العامة في المساجد الإسلامية والمراقد المقدسة"، مبحث نشر في مجلة التراث الشعبي، سنة 1971، ع 4، ص 44.

خط الثلث كان الخط الأساسي في الكتابة والذي حل محل الخط الكوفي على العمائر في القرن الخامس الهجري، حيث وجدنا أقدم أشكاله في غزنة سنة421هـ/1030م، وما إن أوشك هذا القرن على الانتهاء حتى حل هذا الخط في جميع أنحاء البلاد العربية والإسلامية. وأقدم نماذجه في العراق وجدت في الموصل في الجامع الأموي 543هـ/1148م والجامع النوري 568هـ/1172م ،وبلغت ذروتها في مخلفات عصر بدر الدين لؤلؤ في المدرسة البدرية، وفي قرى سراي 630هـ/1232م، ومزار الإمام يحيى بن القاسم في سنة 637هـ/1239م.

استمر هذا الخط في العهد الألخاني[1] في القرن السابع الهجري، ومن ذلك كتابات التجديد الأول في مزار الإمام يحيى بن القاسم. وفي القرن الثامن الهجري نضج هذا الخط، وهذا ما شاهدناه في عمائر بغداد في جامع مرجان، إذ نرى فيه الكتابة المؤرخة 758هـ/1356م، وفي كتابات خان مرجان المؤرخة سنة 760هـ/1358م وكلاهما بخط أحمد شاه النقاش، بينما استمر الأسلوب القديم في بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، وانتهى مع نهاية العصر المملوكي.

ومن خصائص خط الثلث حروفه المتشابكة والمتداخلة بعضها مع بعض ورشاقة حروفه، مما أدى إلى حدوث أرضية قائمة بين حروفه نفذها الخطاط برسم أشكال الزينة الخطية والشكل والحركات مما زاد من جمال الخط. دونت النصوص بخط الثلث المركب من سطرين أو سطر واحد (شكل رقم 51) وبأسلوب مسطح باللون الأبيض أو الأصفر على أرضية زرقاء وأحياناً دونت بأسلوب بارز في حالة استخدام الآجر والرخام، وهذا ما لاحظناه في النصوص المدونة في مشهد يحيى ابن القاسم القائمة على واجهة المدخل، والكتابة المدونة حول بدن منارة الخلفاء ومنارة الكفل (شكل رقم 20)، وفي الكتابات القائمة على واجهة مدخل المدرسة المستنصرية، والمدرسة المرجانية، وخان مرجان، والباب الوسطاني.

لقد تمثل خط الثلث في كتابة كافة النصوص المدونة على واجهات المساجد والأضرحة والمراقد والمدارس، إذ تتضمن آيات من القرآن الكريم وأسماء الله الحسنى بالإضافة إلى الأبيات الشعرية، إلا أن الآيات القرآنية كانت لها الغلبة في الموضوعات الأخرى لأن القرآن يعد عماد الدين، وتدوينه على المباني يعتبر نوعاً من التبرك والتضرع لله، والأمثلة كثيرة في مباني العراق الدينية.

---

(1) ذنون، يوسف، الخط العربي، مبحث نشر في موسوعة الموصل الحضارية، ج 3، ص 221.

الخط الكوفي

استخدم الخط الكوفي في تدوين النصوص القائمة على بدن المآذن وفي بعض الواجهات المطلة على الصحن. امتاز هذا الخط بزواياه القائمة أما نشأته فهي غامضة. ويعتقد أن فن الزخرفة بالآجر التي شاع استخدامها في كل من العراق وإيران، وهي التي تعرف بالهزارباف لي، بوضع الآجر في أوضاع رأسية وأفقية بحيث تنشأ من ذلك أشكال هندسية وكتابة متعددة الأشكال، هي التي أوحت باستخدام هذا النوع من الخط[1]. لقد وجدنا هذا النوع من الخط في منارات إيران في مدينة أصفهان وعادة تستخدم البلاطات الخزفية ذات اللون الأزرق الداكن في عمل هذه النصوص، القائمة على المآذن، وهي تقوم على أرضية من الآجر الأصفر. أما في العراق، فقد تمثل هذا الخط في بناء الجوامع التي بنيت في العصر العثماني، وتمثل خطاً كوفياً مزوي الطرف في زخرفة واجهة الجوامع العثمانية القائمة في العراق. امتاز هذا النوع من الخط بالدقة والرشاقة أكثر من كتابات المباني الأخرى[2].

هذا النوع من الخط الذي سبقت الإشارة إليه يزين بدن المآذن ودونت نصوصه بأسلوب مسطح على بلاطات متعددة الألوان، أما الخط الكوفي المربع وهو أن تحصر الكلمات الكوفية داخل مثلث أو مربع أو غيره بصورة متداخلة يصعب قراءتها[3]، حروفه شديدة الاستقامة تنفذ بواسطة طريقة التلاعب في وضع الآجر، وحروفه تتكون من مستطيلات ومربعات ذات زوايا قائمة ووجود أرضية فارغة بين خطوط الكلمات ولها مسافة الخط. يبدأ في كتابة الكلمات من الضلع الأسفل للمربع ويلف ويدور حتى ينتهي إلى مركز المربع أو المثلث[4]. استخدمت في تنفيذ أغلب النصوص الخطية مادة الآجر بطريقة الحل والشد، وذلك لسهولة الخط بالآجر الذي يكون كل وجه فيه مستطيل. وامتاز هذا الخط بأنه لا يسمح إلا بكلمات محدودة[5]، إذ أن الكتابة فيه تأخذ مساحة واسعة.

---

(1) جمعة، إبراهيم، دراسة في تطور الكتابات على الأحجار في مصر في القرن الأول للهجرة، ص 25.

(2) اعتماد، مساجد بغداد، ج 1، ص 240.

(3) المصرف، ناجي زين الدين، بدائع الخط العربي، بغداد، ص 451.

(4) المصدر نفسه، ص 455.

(5) اعتماد، المصدر السابق، ج 1، ص 645.

وجدنا هذا النوع من الخط على جدران واجهات مبنى جامع الأحمدية، وفي الأضرحة في النجف وكربلاء، وفي إيران شاع في زخرفة المساجد والجوامع في أصفهان سنة 473هـ، وفي مسجد إيوان، والمسجد الجامع في يزد[1].

خط الطغراء

الطغراء أو الطغرى هما كلمتان معناهما واحد، وهي كتابة جملة صغيرة بخط الثلث أو الإجازة، وهي معروفة لدى العام والخاص[2]. وقيل الكلمة تاتارية الأصل[3]، ويعبر عنها في اللغة الفارسية بكلمة نيشان، أما في اللغة العربية فيطبق عليها كلمة توقيع.

وقد أبدع خطاطو بغداد بكتابة الطغراء، وقد وصلت إلينا نماذج منها مدونة على واجهات المباني التي بنيت خلال فترة الحكم العثماني، دونت على بلاطات خزفية، منا طغراء السلطان عبد الحميد القائمة على واجهة مدخل جامع المرادية (شكل رقم 51) داخل حشوة بيضوية الشكل هذا نصها : (عبد الحميد خان بن عبد المجيد خان المظفر، وإلى جانبها دونت كلمة الغازي)، وطغراء الشيخ عبد القادر الكيلاني دونت على واجهة عقد المدخل الرئيس للمبنى وعتبة مدخل الضريح ذيلت بسنة 1319هـ، وطغراء مدرسة جامع قمرية، وجامع الخفافين، وجامع معروف الكرخي، إلا أن طغراء قمرية تعتبر من أجمل الطغراءات التي وصلت إلينا.

---

(1) Pop Survey of Persian Art, London, 1960, Vol. 2, p. 681

(2) الكردي، محمد طاهر عبد القادر، تاريخ الخط العربي وآدابه، ط 1، المطبعة التجارية، 1939، ص 221.

(3) الأعظمي، وليد، تراجم خطاطي بغداد المعاصرين، ج 1، بيروت، 1977، ص 94.

المبحث الثاني

العناصر العمارية

والمقصود بها الزخارف المستمدة أصولها من العناصر العمارية لغرض زخرفي ومعماري في آن واحد، كالعقود والأقواس والمقرنصات والمحاريب والمشكاوات.

ومما لوحظ على العمائر العراقية التي أقيمت في مختلف العصور هو تنوع العقود وتعدد نماذجها حسب طبيعة المبنى الذي أقيمت فيه، وهذا ما شاهدناه في مخلفات المباني العراقية.

العقود

تعد العقود من العناصر العمارية العامة التي تكسب العمائر مظهراً زخرفياً جميلاً إلى جانب وظيفتها الإنشائية في تدعيم البناء نفسه، ومن هنا أبدى المعمار اهتماماً كبيراً بها بابتكار أنواع مختلفة منها خلال العصور الإسلامية.

وقد تعددت أنواع العقود التي وجدناها قائمة في المباني التي سبق الحديث عنها في فصول هذا البحث منها :

أ) العقد المدبب.

ب) العقد المنبطح.

ج) العقد المقصوص (مدني).

أ) العقد المدبب :

يعتبر العقد المدبب من مميزات العمارة العربية الإسلامية بصورة عامة والمباني العراقية بصورة خاصة. وقد تفنن المعمار في ابتكار نوعين منها، عقد مدبب ذو مركزين وعقد مبب ذو المراكز الأربعة. والعقد المدبب هو من العقود

المفضلة والمحببة لدى المعمار العراقي في بناء معظم عقود المباني الدينية والمدنية التي أقيمت في العراق خلال العصر العباسي والعصور الأخرى.

ب) العقد المنبطح :

هو عقد مقوس غير متكامل[1]، ظهرت أمثلته الأولى في العصر البيزنطي في بيت لحم. ويعتقد الدكتور أحمد فكري أن هذا العقد نتج عن الاستمرار في تطوير العقود العربية حتى انتهى في العصر الفاطمي بإنتاج العقد المنبطح. وقد تمثل هذا العقد في مصر في بناء جامع الصالح (طلائع 566هـ)، وعتبات أبواب المدارس الصالحية (641هـ)، وفي بناء معظم مساجد مصر خلال العصر العثماني. أما في العراق فنجد أمثلة لهذه العقود في المداخل الأتابكية والإيلخانية القائمة في مدينة الموصل، وهي تتمثل في المداخل الأتابكية أكثر مما هي عليه في المداخل الإيلخانية، منها مدخل جامع الإمام الباهر وجامع عمر الأسود وفي مدخل مرقد يحيى بن القاسم. أما في المداخل الإيلخانية فقد تمثلت في مدخل جامع جمشيد[2]. وفي مدينة بغداد لا نجد أثراً لهذا النوع من العقود في المباني التي تخلفت عن مختلف العصور، أما في العصر العثماني فقد شاع هذا النوع من العقود في تتويج مداخل المساجد بصورة عامة.

ج) العقد المقصوص (العقد المدني) :

من العقود الأخرى التي نجدها قائمة في المباني العراقية التي بنيت خلال العصور الإسلامية العقد المقصوص، ويقصد به العقد الذي قص فصه العلوي وجعل على هيئة خط مستقيم. وكان هذا النوع من العقود شائع الاستعمال في المباني التي أقيمت في العصر العباسي، إذ نجده على واجهة الجدران الخارجية للمدرسة المستنصرية المطلة على نهر دجلة، وعلى الجدران الداخلية لمرقد الإمام الدوري سنة 478هـ، وأحياناً يكون خط العقد محدب الشكل كما هو الحال في عقد باب بيت الصلاة في جامع الأحمدية والحيدرخانة. ولم يكن هذا النوع من العقود معروفاً في الفنون السابقة على العصر الإسلامي، ولذلك نعتبره من ابتكار العمارة الإسلامية[3].

---

(1) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، ج 1، القاهرة، ص 158.

(2) جمعة، د. أحمد قاسم، الآثار الرخامية خلال العهد الأتابكي والإلخاني، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة القاهرة، كلية الآثار، عام 1979، ص 158.

(3) فكري، المصدر السابق، ص 92.

وفي إيران ظهر هذا العقد في المباني التي بنيت في العصر السلجوقي واستمر استعمالها حتى القرن الثاني عشر الهجري[1].

وفي العصر العثماني كان العقد المقصوص من مميزات مباني المساجد في بغداد والموصل بني لغرض معماري وزخرفي، إذ تمثل في بناء البوابة الوسطى لبيت الصلاة في جامع الأحمدية، وفي أبواب مصلى جامع الحيدرخانة، وفي ضريح الكفل. وفي بلاد الأناضول شاع استخدامه لغرض معماري فقط، نجده في مدخل مسجد ديار بكر سنة 484هـ، وجامع إلياس بك، وجامع سليمي في قونيا. وفي مصر وجدنا العقد المقصوص مستخدماً على نطاق ضيق، إذ نجده يتوج حنايا الدور في مدينة الفسطاط.

المقرنصات

هي عبارة عن خلية عمارية زخرفية تشبه خلايا النحل بارزة ومدلاة في طبقات وصفوف فوق بعضها البعض[2]. يحصل بينها أشكال منشورية مقعرة من الأسفل. وللمقرنص وظيفة زخرفية، فهو يبعث في النفس البهجة بالإضافة إلى وظيفته العمارية لتخفيف الثقل.

وأقدم مثال على بداية استعمال المقرنص في العراق نراه في الباب العامة في سامراء، وفي بناء مسجد قصر الأخيضر. وقد وصلت إلينا من الأبنية القائمة في بغداد مقرنصات متنوعة بعضها يقوم على تقسيم الحنية إلى أقسام صغيرة، وبعضها يتكون من تكرار عدة حنايا كاملة أقيمت في أركان المبنى كما في قبة زمرد خاتون، وهنالك أيضاً نوع من المقرنصات المنشورية الشكل كما في بناء مئذنة جامع الخلفاء في بغداد.

ووجدنا المقرنصات في بغداد تزين المآذن والقباب وواجهات المداخل القائمة في المدارس والجوامع والأضرحة، منها مئذنة جامع الخفافين وقبة زمرد خاتون. إن مقرنصات هذه القبة الداخلية تختلف في تركيبها عن الخارجية، فهي مدورة معكوسة للمقرنصات الداخلية. ولاشك أن استخدام المقرنصات في خارج

---

(1) Wilber, D. W., Donald, **The Architecture of Islamic Iranth Ilkanid**, Pertion 65 University Peress, 1965, p. 65.

(2) حسن، زكي محمد، فنون الإسلام، القاهرة، 1948، ص 48.

القبة هو بدافع زخرفي إضافة إلى الدافع المعماري، وقد أظهر المعمار براعته في تركيبها وترتيبها. ومن المقرنصات التي تعود للعصر الذي نتحدث عنه، مقرنصات مئذنة قمرية التي تعود إلى العصر العباسي الأخير (شكل رقم 13)، إذ هي تتكون من صف واحد من عقود صغيرة مدببة تنحني رؤوسها قليلاً نحو الخارج ويعلوها إطار يستند على رؤوس هذه العقود ويبرز مع بروزها مكوناً ما يشبه نجمة متعددة الرؤوس.

ومن أبدع المقرنصات التي وصلتنا من أواخر العصر العباسي تلك التي تزين إيوان المدرسة الشرابية في بغداد (شكل رقم 30). لهذه المقرنصات فائدة عمارية بالإضافة إلى الفائدة الزخرفية كما يتضح من أشكالها وطبقاتها المتعددة والعناية بزخرفتها بزخارف عميقة منها الرقش العربي، وبعضها زخارف مفرغة على غرار زخارف مقرنصات مئذنة الشيخ معروف الكرخي، إلا أنها هنا نفذت بدقة متناهية. ومن العصر المغولي وصلنا مثال جيد من المقرنصات يتمثل في بناء شرفة مئذنة جامع الخلفاء. تمتاز المقرنصات في هذه المئذنة بكثرة صفوفها، وهي شكل متطور (شكل رقم 14) حيث تعددت طبقاتها أكثر من السابق، وتعددت أشكالها، وامتزجت معها الأشكال الهندسية المضلعة والعقود المدببة وفي وضعها، فهي تميل نحو الخارج، وأصبحت الحنايا أكثر عمقاً وأكثر عدداً في أضلاعها، فأدى هذا إلى بروز كتلة المقرنص نحو الخارج، وبالتالي ظهور المقرنص بشكل هندسي.

والمدرسة المرجانية مثال آخر تتجلى فيه المقرنصات بشكل آخر، وهذه المقرنصات تقوم أسفل العقود، وهي كبيرة تحمل قبة المسجد التي كانت في هذه المدرسة. تمتاز هذه المقرنصات بحسن تركيبها وانشطار أشكالها، كما امتازت بميزة أخرى هي كسوتها بزخارف نباتية أحدثت بالحفر العميق. هذه الزخارف تظهر لنا المستوى الفني الرفيع الذي وصله الفنان العراقي في ذلك العصر، أما مقرنصات خان مرجان، فهي تختلف عما شاهدناه في جميع الأبنية البغدادية حيث تبدأ في الأسفل بشكل كتلتين بارزتين تشبهان منشورين ملتصقين بالجدار بصورة مائلة قليلاً، وكل منهما ثلاثي الأضلاع يظهر فيه ضلعان، كل واحد منهما على شكل معين بينما الضلع الثالث يتساوى مع سطح الجدار، وفوقه نقطة التقاء الجدار. تبدأ المقرنصات العليا ككتلة بارزة نصف هرمية الشكل تتكون من أربعة صفوف من الآجر تبدأ فوقها ثلاثة مثلثات مائلة قليلاً نحو الخارج، فتكون ما يشبه قاعدة على شكل نصف نجمة ثمانية الرؤوس ترتكز عليها أربعة حنايا ذات رؤوس مدببة مائلة نحو الخارج.

ولم يقف الفنان عند هذا الحد بل عمد إلى إضافة حشوات زخرفية مملوئة بالزخارف النباتية.

وفي خلال فترة الحكم العثماني شاع في بناء المباني الدينية والمدنية إقامة ثلاثة أنواع من المقرنصات، منها :

أ) مقرنصات ذات مستويات مختلفة قائمة في المثلثات الكروية بين أكتاف العقود في مراحل انتقال القباب.

ب) مقرنصات كروية وتعرف بالمقرنص العباسي قائمة في شرفات المآذن في مداخل المساجد والمدارس والأضرحة والتكايا.

ج) النوع الثالث مقرنصات استطال شكلها، أقيمت في واجهات المداخل. ولهذه المقرنصات وظيفة زخرفية، وقد شاعت في المباني التي بنيت خلال العصر العثماني، ويعتبر هذا النوع لدى المختصين في العمارة الإسلامية تدهوراً للمقرنص الكروي الذي شاع في المباني التي أقيمت خلال العصر العباسي.

تمثل هذا النوع من المقرنصات في بناء واجهة مصلى جامع المرادية وفي بناء مراحل انتقال قبة السراي من الداخل.

وتميزت المقرنصات التي أقيمت خلال فترة الحكم العثماني بأنها غلفت بالبلاطات القاشانية ذات الألوان البراقة[1] المزدانة بزخارف نباتية متنوعة، وبعضها الآخر غلف بالجص ورسمت عليه بالأصباغ المائية زخارف من الرقش العربي، وهذا النوع من التكنيك وجدناه يزين مقرنصات جامع الحيدرخانة في بغداد.

القباب

لاشك أن تغطية المباني الدينية والمدنية تعد من أبرز الأمور المعمارية التي نجح فيها المعمار إلى درجة كبيرة، إذ أن استخدام عنصر القباب في هذه العملية يتحدد عدده وفقاً لمساحة المبنى المراد تسقيفه، وهذه القباب امتازت بأشكالها المتنوعة، إذ وجدنا ثلاثة أنواع منها :

---

(1) اعتماد، مساجد بغداد، ج 1، ص 320.

• قباب نصف كرية.

• قباب بصلية.

• قباب مخروطية.

• القباب النصف كروية :

عرف استخدام القباب النصف كروية في المباني العراقية لاسيما تلك التي أقيمت خلال العصر العباسي، إلا أن هذه القباب كانت صغيرة الحجم. تمثلت في قباب جامع القبلانية 575هـ وقباب جامع الخفافيين وقباب جامع قمرية[1].

وفي العصر العثماني تطور شكل هذه القبة وأصبحت أكثر ضخامة نتيجة للتطور الذي طرأ على تخطيط بيت الصلاة خلال تلك الفترة، وذلك بتوسيع القاعة الوسطى التي تتوسط المصلى. ومن بين القباب النصف كروية الضخمة التي أقيمت في العراق قبة جامع المرادية (شكل رقم 52) وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني.

وفي مصر خلال هذه المرحلة استكملت القبة عظمتها من الطراز البيزنطي حيث بنيت ضخمة ذات شكل نصف كروي على طراز قباب جوامع تركيا منها قبة جامع سنان، وقبة جامع أبو الذهب، وقبة جامع الملكة صفية[2]. وفي تركيا تمثلت هذه القبة في بناء كنيسة آياصوفيا التي أصبحت نموذجاً للقباب العثمانية التي أقيمت فيما بعد لمدة قرنين من الزمان، إذ تمثل هذا الطرازفي بناء قبة الجامع الأخضر في بورصة 825هـ[3]، وقبة الفاتح في اسطنبول. وفي سوريا شاع في بناء قباب المدرسة السليمانية 962هـ، وقبة جامع الخسروية 951هـ[4]. وفي المغرب العربي تمثلت القبة النصف كروية في بناء جامع الصيدية في الجزائر 1072هـ، وفي تونس قبة جامع سيدي محرز سنة 1086هـ[5].

---

(1) جواد، د. مصطفى، "عمارات القرن السادس الضخمة"، مقالة نشرت في مجلة سومر، م 1-2، 1966، ص 51.

(2) تيمور، هدايت، جامع الملكة صفية، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة القاهرة، كلية الآثار، 1977، ج 1، ص 23.

(3) Unsal, Behcet, Turkish Islamic ArchitectureIn Selguk & Ottoman Tims, London, 1959, p. 19

(4) العش، محمد أبو الفرج، آثارنا في الإقليم السوري، دمشق، 1960، ج 3، ص 69.

(5) اعتماد، المصدر السابق، ص 69.

* القباب البصلية :

احتفظت قباب المباني التي سبقت الإشارة إليها بطراز القباب العراقية البصلية الشكل حتى فترة الحكم العثماني، حيث شاع في العالم الإسلامي والعربي بناء قباب نصف كروية على غرار قبة آياصوفيا، والتي سبقت الإشارة إليها، وهذا النمط من القباب تمثل في قبة جامع الأحمدية والحيدرخانة وقباب الأضرحة القائمة في مدينة بغداد وكربلاء والنجف وسامراء. وقد تميزت قباب هذه الأضرحة والجوامع بالمميزات التالية :

* أنها من نوع القباب المزدوجة.
* قباب بصلية.
* الرقبة الطويلة.

لكي يتمكن المعمار من إقامة القبة البصلية الضخمة التي تغطي القاعة الوسطية للمصلى، جعل هذه القبة من نوع القباب المزدوجة، الخارجية منها بصلية الشكل، والداخلية نصف كروية. والطريقة المتبعة في بناء هذا النوع من القباب هو تقليل سمك البناء عند القمة (شكل رقم 17) بالنسبة إلى سمكه عند الجزء الأول من جسم القبة، وقد تمكن المعمار من رفع القبة من الخارج إلى أعلى بواسطة أكتاف شيدها حول قاعدة القبة[1]، وهذا ما لاحظناه في بناء قباب مساجد بغداد خلال فترة الحكم العثماني وقباب الأضرحة التي بنيت خلال العصر الصفوي[2]. ومما لوحظ على القباب البصلية وجود أوجه شبه في شكل القبة التي أقيمت في العراق وإيران ووجد هذا التشابه نتيجة لاستخدام كلا البلدين مادة الآجر في البناء إلى جانب ألواح البلاطات الخزفية ذات الألوان المختلفة والتي يغلب عليها اللون الأزرق في كساء جسم القبة كله.

والقباب البصلية وجدناها قائمة في إيران منذ العصر المغولي، إذ تمثلت في بناء قبة ضريح أولجايتو وفي قبة الشيخ لطف الله.

وامتازت القباب البصلية الشكل التي وجدناها قائمة في العراق وإيران ومصر وسمرقند باحتوائها على رقبة طويلة. إن أقدم ما وصل إلينا من القباب ذات

---

(1) علام، نعمت إسماعيل، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، ص 146.

(2) نجيب، محمد مصطفى، "مدرسة الأمير قرقماش وملحقاتها"، مقالة نشرت في كتاب : القاهرة،تاريخها وفنونها، مطابع الأهرام، 1970، ص 455.

الرقاب الطويلة ترجع إلى العصر الصفوي وخصوصاً في بناء قباب الأضرحة العراقية سالفة الذكر منها رقبة قبة مرقد الإمام موسى الكاظم التي بنيت سنة 1032هـ، وقبة ضريح الإمام علي (ع) في النجف الأشرف 1033هـ، وقباب أضرحة الأئمة العباس والحسين في كربلاء وعلي الهادي في سامراء.

وفي فترة الحكم العثماني شاع استخدام الرقاب الطويلة في قباب الجوامع والأضرحة، إذ تمثلت في قبة الشيخ عبد القادر الكيلاني التي بنيت بأمر من السلطان الرابع، وقبة أبي حنيفة التي بنيت سنة 1247هـ[1]، وقبة معروف الكرخي 1320هـ، وقبة جامع الأحمدية والحيدر خانة.

ومثل هذه الرقاب وجدناها تقوم في قباب مساجد إيران منها قبة ضريح تيمور في سمرقند مؤرخة من القرن التاسع الهجري، وقبة جامع الشيخ لطف الله، وقبة مسجد الشاه في أصفهان 1038هـ[2] والأمثلة كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

ومن المعروف أن القباب ذات الرقاب الطويلة عرفت في معظم القباب التي بنيت في سمرقند[3]. وفي مصر عرفت القباب ذات الرقاب الطويلة بالقباب السمرقندية ونرى أمثلة لها كثيرة، نخص منها بالذكر قبة التربة السلطانية مؤرخة من القرن الثامن الهجري، وقبة أم السلطان شعبان وقبة قايتباي (877هـ)[4].

وفي بلاد الشام شاع استخدام القباب ذات الرقاب الطويلة في بناء قباب من عصر المماليك البحرية (سنة 626هـ). وكل هذه القباب متشابه في الشكل.

• **القبة المخروطية :**

تباينت الآراء حول تاريخ ظهور هذه القبة وكيف. في الواقع إن أقدم إشارة إلى إقامة هذا النوع من القباب، هو ما ورد بخصوص قبة قبر الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الذي توفي سنة (150هـ/767م)، والتي بناها شرف الملك أبي سعد محمد بن منتصر المخزومي مستوفي السلطة السلجوقية (لسنة 459هـ/1067م). وقد

---

(1) الألوسي، محمود شكري، مساجد بغداد وآثارها، ص 22.

(2) المصرف، ناجي زين الدين، بدائع الخط العربي، ص 251.

(3) سامح، كمال الدين، "تطور القبة في العمارة الإسلامية"، مقالة نشرت في مجلة كلية الآداب، القاهرة، 1950، ص 34.

(4) الشافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1977، ج 1، ص 208.

وصفها ابن جبير عند زيارته لبغداد سنة (580هـ/1184م) بقوله : «قبة بيضاء سابحة في الهواء»[1]. والقباب المخروطية هي القباب الوحيدة التي تجتمع فيها صفتا الارتفاع الشاهق وكونها تكسى بمادة الجص البيضاء. وأغلب الظن أن هذه أول قبة شيدها آل سلجوق على قبر في بغداد في ظل النفوذ السلجوقي الذي بدأ منذ منتصف القرن الخامس للهجرة.

انتشر طراز القبة المخروطية المقرنصة في مناطق واسعة. وإقليم العراق يعد من أكثر المناطق احتواءً لمثل هذا النوع من القباب ونماذجه الشاخصة تكاد تكون متسلسلة من حيث تاريخها ومراحل تطورها، اعتباراً من القرن الخامس الهجري وحتى الثامن الهجري، ابتداء بقبة الإمام الدوري وانتهاءً بقبة الشيخ السهروردي.

ولوحظ بصورة عامة أن وسط العراق كان موطن نشأة القبة المخروطية المقرنصة، وشمال العراق كان موطن القبة المخروطية المضلعة (شكل رقم 22).

ويرى د.علاء أن هذا الطراز نشأ وتطور في بغداد حاضرة العالم الإسلامي وما من طراز يظهر إلا وبغداد هي السباقة إليه[2]، لأن أول قبة من هذا النوع أقيمت على قبر أبي حنيفة سنة (459هـ/1067م) ولاتزال بغداد تحتوي على قبتين مقرنصتين هما قبة زمرد خاتون (شكل رقم 18) وقبة السهروردي. ومن بغداد انتقل هذا الطراز إلى الدور التي تعد أقدم وأبسط نماذج هذا النوع من القباب، وقبة مشهد الشمس في الحلة وقبة ذي الكفل (شكل رقم 20) في الكفل، وفي منطقة شط النيل قبتا البقلي والنجمي، وفي بعقوبة قبة علي بن إدريس، وفي البصرة قبة الحسن البصري (شكل رقم 19). وبذلك يكون العراق من أكثر الأقاليم الحاوية لهذا النوع من القباب حيث يبلغ عددها تسعة. ومن العراق انتقل هذا الطراز إلى إقليم الجزيرة متمثلاً في قبة داقوق قرب كركوك، وفي أمثلة عديدة نذكر منها قبة الجامع النوري، ومشهد عون الدين، ومشهد يحيى بن القاسم، وفي قباب حديثة الفرات.

ومن العراق انتقل هذا الطراز إلى الخليج وسوريا وإلى إيران والأمثلة عديدة لايتسع المجال لذكرها.

---

(1) رحلة ابن جبير، ص 213.

(2) مجلة ما بين النهرين، سنة 1974، ج 7، ص 74.

وكما قلنا سابقاً فقد ساهمت مدينة الموصل كغيرها من المدن الإسلامية في تطوير العمارة العربية الإسلامية بمختلف عناصرها ومنها القباب. وكما كان للموصل خصوصيتها في الجوانب الفنية والعمارية كان لها خصوصيتها في بناء القباب وزخرفتها، وكان تأثير الموروث الحضاري لهذه المدينة عاملاً مهماً في هذا المجال.

تحتفظ مدينة الموصل بعدد من هذه القباب بأشكالها المختلفة، فبعضها كانت تسقف المساجد وبعضها الآخر لتسقيف المدارس أو الأضرحة، بعضها ذات شكل نصف كروي مدبب أو بصلية الشكل أو مخروطية هرمية وترية مثل قبة مشهد يحيى بن القاسم، أو مخروطية ذات أخاديد مثل قبة الإمام عون الدين، والإمام الباهر، وقبة زينب في سنجار والأضرحة اليزيدية[1]. ومما يجب الانتباه إليه أن معظم هذه القباب احتفظت بعناصرها العمارية الأصلية دون أن يحدث عليها أي تغيير من الداخل وبعضها، وجدت عليها بعض التغيرات من الخارج نتيجة لعمليات الصيانة العديدة.

والقباب المخروطية ذات أنواع مختلفة، منها المخروطية الشكل ذات المقرنصات من داخل البناء وخارجه، ويكون بهذا المخروط صفوف من المقرنصات تستمر حتى نهاية القبة حيث يكون من الداخل رؤوساً لنجمة تكون غطاء للقبة، ويكون الشكل الخارجي مشابهاً للشكل الداخلي مثل قبة زمرد خاتون في بغداد والحسن البصري في البصرة. ومن القباب المخروطية ما يكون مخروطياً ومقرنصاً من الداخل ومخروطياً مضلعاً من الخارج مثل قبة ضريح يحيى بن القاسم في الموصل.

واختلفت أشكال المقرنصات في مادة البناء، فما أقيم من الحجر كانت وجوه المقرنصات فيه مثلثة، أما ما أقيم من مادة الآجر فقد كانت مقرنصاتها مقوسة.

إن المادة المستخدمة في بناء هذه القباب هي الجص، ولما كانت هذه المادة هشة لذا كانت تغطى بقبة ثانية لحمايتها. يتكون انحناؤها نصف الكروي من الأوتار المتقاطعة التي تنطلق من قاعدته وعددها ستة عشر أو أربعة وعشرون، وتتقاطع الأوتار حول مركز القبة لتشكل نجمة لها من الرؤوس بعدد ما للقاعدة من الحنايا المسننة بواسطة سلسلة من المقرنصات المكعبة أو المستوية ذات الأشكال المختلفة.

---

(1) عبو، د. عادل نجم، "القباب الوترية"، مبحث نشر في موسوعة الموصل الحضارية، ج 3، ص 307.

لقد شاعت القباب المخروطية المزدوجة التي تتكون من قبتين داخلية مقرنصة وخارجية مضلعة يحصران بينهما فراغاً كما هو الحال في بناء قبة كل من مزار الإمام يحيى بن القاسم (637هـ/1239م)، ومزار الإمام عون الدين (646هـ/ 1241م)[1].

إن أقدم النماذج للقباب المخروطية (الهرمية) التي وصلت إلينا يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن السادس الهجري والتي ظهرت في بناء قبة الجامع النوري الذي بني سنة (566هـ/1170م)، وفي قبة نور الدين محمود الذي تم بناؤه وأقيمت الصلاة فيه سنة (568هـ/1172م)[2].

المآذن

تعتبر المئذنة من أهم العناصر العمارية التي تعطي للمسجد شخصيته المتميزة عن باقي المباني الأخرى، وقد عرفت المآذن بأسماء عدة منها منارة بالفتح من الإنارة تطلق على المكان الذي تشعل فيه النار أو منار أو صومعة، كما أطلقت هذه التسمية على المكان الذي يسكن فيه الزهاد حيث كانت معظم قواعد المآذن المربعة محل سكن الزهاد والنساك، ولاسيما تلك التي أقيمت في العصر الأموي والعباسي، خصوصاً منها التي أقيمت في شمال إفريقيا، وأحياناً تعرف في بلاد المغرب بعساس لاستخدامها للمراقبة في بعض الأحيان.

إن أول مئذنة بنيت في المساجد الجامعة بصورة فعلية مئذنة جامع البصرة (شكل رقم 1)[3] واستناداً إلى ما رواه البلاذري فإن هذه المئذنة بنيت سنة 44هـ/664م من قبل زياد بن أبيه الذي كان والياً على العراق من قبل معاوية بن أبي سفيان[4]. وفي سنة 51هـ/602م بنيت أربع صوامع في أركان جامع عمرو بن العاص في الفسطاط الذي بناه مسلم بن مخلد الأنصاري والي معاوية على مصر[5]. وتعتبر هذه أول مئذنة بنيت في مصر كما تعتبر ثاني مئذنة بنيت في العالم الإسلامي.

---

(1) الجمعة، أحمد قاسم، "القباب الوترية"، مبحث نشر في موسوعة الموصل، ج 3، ص 8.

(2) ابن الأثير، الكامل، ص 11.

(3) الجنابي، د.كاظم، "المآذن نشأتها وعمارتها في الأقطار الإسلامية"، مقالة نشرت في مجلة كلية الشريعة، بغداد، 1965، ع 1، ص 74.

(4) البلاذري، فتوح البلدان، ص 356.

(5) الشافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1970، ص 637.

لقد اختلفت المآذن في أشكالها وطرزها باختلاف الأقاليم الإسلامية، حيث بنيت الصوامع المربعة لسوريا وشمال إفريقيا، ومآذن مصر الأسطوانية والمضلعة، ومآذن تركيا الممشوقة ذات البدن الأسطواني المستدق. أما في العراق فنرى تنوعاً في أشكال المآذن، منها الأسطوانية (شكل رقم 13) و(شكل رقم 14)، والملوية (شكل رقم 11)، و(شكل رقم 12)، والمثمنة. وكانت المآذن ذات البدن الأسطواني المنتظم هي الأكثر شيوعاً[1].

إن أقدم مئذنة أقيمت في بغداد استناداً إلى رواية الخطيب البغدادي هي منارة جامع الخليفة العباسي المنصور الذي لا أثر لها في الوقت الحاضر، حيث احترقت سنة (303هـ/915م)، ولم يرد في المصادر التاريخية ما يشير إلى شكلها، إلا أنه مما تبقى من مآذن العراق خلال مختلف العصور يبدو شيوع أربعة طرز منها :

1. طراز لولبي (حلزوني).
2. طراز أسطواني.
3. طراز مثمن.
4. طراز أسطواني شاهق الارتفاع.

1. الطراز اللولبي (الحلزونية) :

وهي من أكثر العناصر الإسلامية طرافة لا في سامراء فحسب، بل في العالم الإسلامي كله، إذ أنها تختلف عن جميع المآذن والأبراج في العالم الإسلامي. ومن مميزاتها العمارية جعل السلم الذي يصعد إلى قمتها ليس بداخلها كما هو مألوف، بل يدور حول بدن المئذنة من الخارج على غرار الزقورات السومرية والآشورية. ولا يوجد في العالم الإسلامي مئذنة بنيت على غرار مئذنة جامع الجمعة في سامراء وجامع أبي دلف في المتوكلية شمال سامراء سوى مئذنة جامع ابن طولون في مصر. وإلى جانب المآذن الملوية أقيمت في سامراء مئذنة أسطوانية الشكل تم الكشف عنها في مبنى ضريح أبي دلف.

إن هذا النوع من المآذن العراقية هو ابتكار إسلامي صميم توصل إليه البناء العراقي نتيجة لتقدم ونضوج العمارة الإسلامية وتطورها. إلا أن الطراز

---

(1) عبو، د. عادل نجم، "المنشآت المعمارية"، مبحث نشر في كتاب حضارة الموصل، ج 3، ص 208.

الأسطواني كان هو الشائع بصورة خاصة في بناء جميع المآذن العراقية خلال مختلف العصور.

2. المآذن الأسطوانية:

استمرت ظاهرة إقامة المآذن الأسطوانية طيلة العصر العباسي وما بعد العصر السلجوقي[1]، إلا أن أقدم مئذنة أسطوانية أقيمت في العراق هي مئذنة جامع الحجاج في واسط سنة (304هـ/916م)، والمئذنة الثانية عثر عليها في مدينة المتوكلية في سامراء تقوم بداخلها سلالم تؤدي إلى الشرفة على غرار مئذنة جامع الخفافين في بغداد، ومئذنة جامع الصاغة أو الحظائر (599هـ/1202م)، والتي تعتبر أقدم مئذنة قائمة في بغداد، كما تعتبر نموذجاً للمآذن البغدادية التي أقيمت على غرارها المآذن خلال مختلف العصور. وخالفت مئذنة جامع قمرية مئذنتي جامع الخفافين ومعروف بإقامتها على قاعدة مربعة الشكل وإقامة صف واحد من المقرنصات فقط تحت شرفتها، ثم جعلت طاقية القبة مضلعة وازدان بدن المئذنة بعنصر زخرفي المعروف محلياً باسم العليات.

ومن المآذن ما زودت بشرفتين، منها مئذنة جامع الخلفاء (678هـ/1279م) مع زيادة عدد صفوف المقرنصات التي ترتكز عليها شرفتي المئذنة (شكل رقم 14). وفي المآذن الأسطوانية نجد بدنها الأسطواني يقوم من فوق أرضية الجدران على قاعدة مربعة أو مثمنة، ومن أمثلة ذلك منارة جامع مرجان (شكل رقم 40) (758هـ/1360م).

3. وفي شمال العراق شاع بناء نوع من المآذن اختلفت عن مآذن بغداد من حيث الشكل ومادة البناء، منها مئذنة الجامع النوري في مدينة الموصل والمعروفة بمنارة الحدباء (566هـ/1117م)[2].

امتازت هذه المنارة بجمالها الزخرفي وعظمة ارتفاعها الشاهق إذ يبلغ ارتفاعها مع القاعدة 55 قدماً.

وكان للمئذنة سلّمان من أول القاعدة المنشورية ويلتقي بأحدهما منفذ آخر يبدأ من منتصف القاعدة تقريباً، وهي طريقة غريبة في تشييد المآذن.

---

(1) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، 1965، ص 92.

(2) جواد، عمارات القرن السادس، ص 47.

ولعل أبرز ما في هذه المئذنة أسلوب الزخارف الآجرية المغطية للبدن، والجزء العلوي من القاعدة المنشورية، إذ اعتمد الفنان في زخرفة الآجر بوضعه بمستويات مختلفة ليحصل على النمط الزخرفي لكل من الأنطقة السبعة للبدن والأوجه الأربعة للقاعدة المنشورية. ونتيجة لاختلاف رصف الآجر بين الأفقي والقائم والمائل اختلفت مستويات الرصف بين السطحين لتضفي من خلال الظلال أشكالها الزخرفية. وكان لهذا النمط من المآذن تأثيره على المآذن المعاصرة واللاحقة في الموصل والمناطق المجاورة لها. وظهر هذا التأثير واضحاً في بناء مئذنة أربيل، وسنجار وداقوق في كركوك (580-630هـ)، وبناء بعض مآذن الموصل المتأخرة منها مئذنة جامع الأغوات الذي شيد سنة (1112هـ/1713م)، ومئذنة جامع الجويجي (1070هـ/1695م)، ومئذنة جامع العمرية في منطقة باب البيض (970هـ/1559م)[1].

وقد استخدمت الحجارة والجص في بناء جميع هذه المآذن ماعدا منارة الموصل، حيث استخدم الآجر والحجارة في بنائه (شكل رقم 15).

4. وهناك نوع آخر من المآذن العراقية، تعتبر فريدة من نوعها وشكلها عن المآذن العراقية، والتي لا تزال قائمة إلى الوقت الحاضر محتفظة بعناصرها المعمارية، منها منارة عنة التي بنيت في سنة (386-486هـ/996-1093م). بدن المئذنة أقيم على قاعدة مكعبة الشكل يقوم فوقها بدن مثمن من سطح القاعدة إلى قمتها، وقد استخدمت الحجارة والجص في بنائها، وفتحت في جدرانها نوافذ صغيرة لكي يسمح بمرور الضوء والهواء إلى داخل جسمها المجوف.

وفي العصر الصفوي استمرت ظاهرة بناء المآذن الأسطوانية مع ظاهرة تسقيف شرفة المئذنة لحماية المؤذن من الظروف الجوية. وهذه الظاهرة وجدناها في بناء مئذنة ملوية سامراء، إلا أنها أتلفت ولم يصل إلينا منها سوى الحفر التي كانت تقوم فيها الأعواد مما يدل على أن أصولها عراقية وليست مقتبسة من إيران كما اعتقد البعض. كما برزت ظاهرة تسقيف شرفة المئذنة في بناء مآذن الأضرحة التي أقيمت في مدينة بغداد، منها مئذنة ضريح الإمام موسى الكاظم[2] في بغداد، ومئذنة مراقد الإمام علي في النجف الأشرف والعباس والحسين في كربلاء.

---

(1) عبو، المصدر السابق، ص 281.

(2) آل ياسين، تاريخ المشهد الكاظمي، ص 120.

كما امتازت مآذن العراق القائمة في الأضرحة بطلائها بصفائح رقيقة من الذهب في كساء سطحها بدلاً من استخدام الآجر والقراميد الخزفية في زخرفتها، كما لاحظناه في مآذن جوامع بغداد. وهذه الظاهرة أيضاً استخدمت خلال العصر الصفوي، ففي سنة (1211هـ/1796م) تم كساء المآذن الأربعة لضريح الإمام الكاظم بناء على أمر من آغا أحمد شاه القاجاري لإكمال ما بدأه الصفويون في هذا المشهد[1].

ومآذن مشهد الإمام علي في سنة (1315هـ/1897م) بنيت بأمر من السلطان عبد الحميد خان الذي أمر بإعادة بناء المنارة القائمة في الزاوية الشمالية، حيث تم رفع ما عليها من صفائح الذهب، ومن ثم أعيد بناؤها على طرازها السابق وأعيدت الصفائح إلى وضعها الأول[2]. كما شاع في هذه المرحلة بناء أكثر من مئذنة في بناء المسجد منها بناء أربعة مآذن لضريح الإمام موسى الكاظم في بغداد، ومنارتي ضريح الشيخ عبد القادر وضريح مشهد الإمام علي ومقام الحسين والعباس، وجامع الأصفية في بغداد (بناه داوود باشا)، والمدرسة الشرابية في واسط.

ولم تكن هناك قاعدة ثابتة لعدد المآذن في المساجد فمنها ما احتوى على أربعة، ويلاحظ أن ازدياد عدد المآذن في المساجد القائمة في العالم الإسلامي يرجع إلى أهمية الجامع، حيث وصل عددها في جامع السلطان أحمد في اسطنبول إلى ست، ولكي يميز الكعبة عن المساجد الأخرى القائمة في العالم الإسلامي أمر السلطان أحمد أن تضاف إلى مآذن المسجد الحرام مئذنة سابعة[3].

وفي العصر العثماني احتفظت المئذنة البغدادية بطرازها الخاص بها دون التأثر بطراز المآذن العثمانية الذي شاع في بناء مآذن معظم الأقطار الإسلامية التي خضعت للحكم العثماني.

بعد هذا الاستعراض السريع لمنشأ وتطور بناء المئذنة وأنواعها، اقتصر حديثنا على أهم وأبرز المآذن التي أقيمت في العراق خلال مختلف العصور، نذكر

---

(1) المصدر السابق، ص 92.

(2) مجلة التراث الشعبي، العدد 84، سنة، 1977، ص 4.

(3) الباشا، حسن، مدخل إلى الآثار الإسلامية، القاهرة، دار النهضة، ص 1551979.

منها مئذنة سنجار، ومئذنة عنة، ومـئذنة أربيل، ومئذنة داقوق، وغيرها من المآذن الأخرى.

ومما أشرنا إليه في الفصول السابقة يتبين لنا أن المعمار العراقي كان تأثره بعمائر الأقاليم المجاورة له قليلاً، ولربما نتج هذا عن رغبة المعمار العراقي في الاحتفاظ بالنظم القديمة الأصيلة مع إحداث بعض التطورات عليها. كما تميزت هذه العمائر بخصائص بغدادية في الشكل العام، وطريقة البناء متمثلة باستعمال المواد في الزخرفة.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي أكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري، **أسد الغابة في أخبار الصحابة**، القاهرة، سنة 1963.

   ـــــــــــ، **الكامل في التاريخ**، مصر، سنة 1375.
3. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، الطبعة الأولى، حيدر آباد، 1934.
4. ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف، الشهير بسبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ط 1، حيدر آباد، 1950.
5. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، **مناقب بغداد**، مطبعة دار السلام، بغداد.
6. ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، **مختصر كتاب بغداد**، مطبعة بريل، 1302.
7. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل، **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، بغداد، 1932.
8. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، **رحلة ابن بطوطة**، المطبعة الأميرية، مصر، 1934.
9. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، مكتبة النهضة، مصر، 1928.
10. ابن عساكر، القاسم علي بن الحسن، **التاريخ الكبير**، مطبعة روضة الشام، 1334.
11. ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية في التاريخ**، القاهرة، 1932.

12. أبو حيان، أثير الدين محمد النحوي، **التفسير الكبير (المسمى بالبحر المحيط)**، مطبعة السعادة، 1940.

13. باقر، طه، **موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية**، بغداد، 1976.

14. بحشل، أسلم بن سهيل بن حبيب، **تاريخ واسط**، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، 1967.

15. بروكلمان، كارل، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، بيروت، 1955.

16. الباشا، حسن، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، القاهرة، 1979.

17. البحتري، الوليد بن عبيد، **ديوان البحتري**، ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة، 1964.

18. البغدادي، الخطيب، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، مطبعة السعادة، مصر، 1932.

19. البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع**، مصر، 1964.

20. البلاذري، أبو العباس أحمد، **فتوح البلدان**، طبع ليدن، 1966.

21. البندنيجي، صفاء الدين القادري، **جامع الأنوار في مناقب الأخيار**، مخطوط محفوظ في دار المخطوطات، رقمه في سجل الدار 2627.

22. ثامر، **التطور الفيزياوي للقشلة وسراي بغداد**، رسالة ماجستير كلية الهندسة، جامعة بغداد، 1978.

23. أمين، د. حسين، **المدرسة المستنصرية**، مطبعة شفيق، بغداد، 1960.

24. جمعة، أحمد قاسم، **الآثار الرخامية خلال العهد الأتابكي والألخاني**، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآثار، 1979.

25. الجنابي، د. كاظم، **منارة سوق الغزل**، دار الجمهورية، 1966.

26. **مسجد الكوفة**، بغداد، 1966.

27. حسن، د. زكي محمد، **فنون الإسلام**، القاهرة، 1984.

28. حيدر، كامل محمد، **المدارس العباسية القائمة في العراق**، أطروحة ماجستير، جامعة بغداد، قسم الآثار، 1986.

29. الحموي، ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله، **معجم البلدان**، لايبزك، 1873.

30. الخطاب، رجاء، **تأسيس الجيش العراقي**، بغداد، 1982.

31. الديوة جي، سعيد، **تاريخ الموصل**، بغداد، 1982.

32. ــــــــــــ، **جوامع الموصل**، مطبعة شفيق، بغداد، 1973.

33. الدروبي، حافظ إبراهيم، **البغداديون أخبارهم ومجالسهم**، مطبعة الرابطة، بغداد، 1954.

34. الأسدي، أبو زكريا يزيد، **تاريخ الموصل**، مصر، 1967.

35. الأربلي، عبد الرحمن، **خلاصة الذهب المسبوك**، بيروت، 1985.

36. رجب، د.غازي، **العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق**، بغداد، 1989.

37. زادة، مرتضى نظمي، **كلشن خلفا**، مطبعة الأدباء، 1970.

38. زيدان، جرجي، **تاريخ التمدن الإسلامي**، مطبعة الهلال، 1914.

39. سامح، كمال الدين، **تطور القبة في العمارة الإسلامية**، مصر.

40. السعدي، عنان عبد الله، **القناطر والجسور في العراق في ضوء دراسة قنطرة حربى**، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1990.

41. سفر، فؤاد، محمد، مصطفى، **واسط الموسم السادس للتنقيب**، دار الحرية، بغداد، 1976.

42. سلمان، عيسى، التتنجي، نجاة، العزي، نجلة، **العمارات العربية الإسلامية**، مطبعة الدار الوطنية، 1982.

43. السمعاني، أبو القاسم علي بن الحسن، **الأنساب**، دائرة المعارف العثمانية، 1966.

44. سوسة، د. أحمد، جواد، د. مصطفى، **دليل خارطة بغداد المفصل**، طبع المجمع العلمي العراقي.

45. سوسة، د. أحمد، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، مطبعة المعارف، بغداد، 1948.

46. السيوفي، نيقولا، مجموعة الكتابات المحررة على أبنية الموصل وقلعتها، تحقيق سعيد الديوة جي، مطبعة شفيق، بغداد، 1956.

47. الشافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1977.

48. الشيخلي، محمد رؤوف، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها، مطبعة البصرة، 1972.

49. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري، القاهرة، 1960.

50. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مطبعة المعارف، مصر، 1966.

51. العاني، علاء، القباب المخروطية في العراق، مطبعة دار الحرية، بغداد، 1982.

52. العبيدي، عباس فاضل، قصر المعشوق، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، قسم الآثار، 1978.

53. العش، محمد أبو الفرج، آثارنا في الإقليم السوري، دمشق، 1960.

54. عبادة، عبد الحميد، مخطوط العقد اللامع في ذكر بعض الأثار والمساجد والجوامع، رقمه في سجل دار المخطوطات 2670، بغداد.

55. العمري، ياسين خير الله، منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوة جي، مطبعة الهدف، 1955.

56. ــــــــ، زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، مطبعة النجف، 1947.

57. العزاوي، عباس، مخطوط، المساجد والجوامع في بغداد، محفوظ في المجمع العلمي العراقي، بدون رقم.

58. ــــــــ، مخطوط، معاهدنا الخيرية، محفوظ في ديوان وزارة الأوقاف، بغداد، بدون رقم.

59. الأعظمي، علي ظريف، مختصر تاريخ بغداد، مطبعة الفرات، 1985.

60. الأعظمي، هاشم، تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومدرسته العلمية، بغداد، 1990.

61. علام، نعمت إسماعيل، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، دار المعارف، مصر، 1977.

62. العميد، طاهر العميد، تخطيط المدن العربية الإسلامية، مطبعة الجامعة، 1986.

63. غزانمة، يوسف، عمان ؛ حضارتها وتاريخها، دار اللواء للصحافة والنشر، 1979.

64. الفخري، في الآداب السلطانية، مطبعة التفيض، 1945.

65. الطباطبائي، فريال مصطفى، البيت العربي في العراق في العصر الإسلامي، بغداد، 1982.

66. فكري، د. أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، مصر، 1965.

67. فيضي، سليمان، في غمرة النضال العربي، بغداد، 1945.

68. القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت.

69. القصيري، د. اعتماد، الأحداث وأعمال الصيانة التي جرت على المدرسة المستنصرية، إصدار وزارة التعليم العالي، الجامعة المستنصرية، 1984.

70. ـــــــــ، مساجد بغداد خلال العصر العثماني، القاهرة، 1981.

71. كوك، ريتشارد، بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، مطبعة شفيق، 1967.

72. المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله بن محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع بريل، 1906.

73. آل ياسين، محمد حسن، تاريخ المشهد الكاظمي، مطبعة الروضة الحيدرية، بغداد، 1967.

74. الألوسي، محمود شكري، مخطوط، مساجد دار السلام، بغداد وما جاورها من البلاد، رقمه في دار المخطوطات، 1903.

75. ـــــــ (مخطوط) مختصر في ذكر تواريخ مساجد بغداد، رقمه في سجل الدار 30384.

76. ـــــــ (مخطوط) أخبار بغداد وما جاورها من البلاد، رقمه في سجل دار المخطوطات 6287.

77. الألوسي، سالم، مدينة الكوفة، طبع وزارة الثقافة، بغداد، 1965.

78. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، لندن، 1893.

79. المصرف، نارجي زين الدين، بدائع الخط العربي، بغداد، 1975.

80. ماسنيون، لويس، خطط الكوفة، تحقيق كامل سليمان الجبوري، مطبعة النجف، 1978.

81. معروف، ناجي، عروبة المدن الإسلامية، مطبعة العاني، بغداد.

82. ـــــــ، مقدمة في تاريخ المدرسة المستنصرية وعلمائها، مطبعة العاني، بغداد، 1965.

83. مهدي، علي، الأخيضر، إصدار وزارة الثقافة، 1969.

84. ـــــــ، مدينة النجف الأشرف، بغداد، 1986.

85. نزر، علي إبراهيم، الخانات القائمة على الطرق والمزارات، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، قسم الآثار.

86. الهروي، علي بن أبي بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات، إصدار معهد الدراسات العربية، دمشق، 1953.

87. الهلالي، عبد الرزاق، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني، بغداد، 1957.

88. هدايت، تيمور، جامع الملكة صفية، رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة القاهرة، 1977، كلية الآثار.

89. نخبة من الباحثين، بغداد مدينة السلام، إصدار جامعة بغداد، مركز إحياء التراث، بالتعاون مع أمانة بغداد، نيسان 1990.

90. ـــــــــ، كتاب الندوة القطرية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب، من 16-17مارس 1986، إصدار مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد.

91. ـــــــــ، كتاب دور البصرة في التراث العلمي العربي، إصدار جامعة بغداد، مركز إحياء التراث، عام 1991.

92. ـــــــــ، دور الموصل في التراث العربي من 16-1988/3/17 بالتعاون مع جامعة الموصل، إصدار وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد.

93. ـــــــــ، موسوعة الموصل الحضارية، إصدار جامعة الموصل وهي بـ 5 أجزاء، جامعة الموصل، 1992.

94. ـــــــــ، كتاب حضارة العراق وهو في 14 جزءاً، إصدار دار الحرية للطباعة والنشر، وزارة الثقافة، سنة 1985.

95. القاهرة ؛ تاريخها وفنونها وآثارها، مطابع الأهرام، 1970.

المجلات العلمية

1. مجلة سومر، مجلة علمية تبحث في آثار الوطن العربي، تصدرها الهيئة العامة للآثار والتراث، طبع دار الحرية والنشر، بغداد، الأعداد -1982-1996 1945-1946-1947-1951-1954-1956-1966

2. مجلة كلية الشريعة، بغداد، العدد 1 و2، 1965.

3. مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد 3، 1953.

4. مجلة المتحف الكويتي، العدد 2، 1987.

5. مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، 1958.

6. مجلة لغة العرب، 1913-1914.

7. مجلة كلية المأمون، الجامعة، مجلد واحد، العدد 2، 1990.

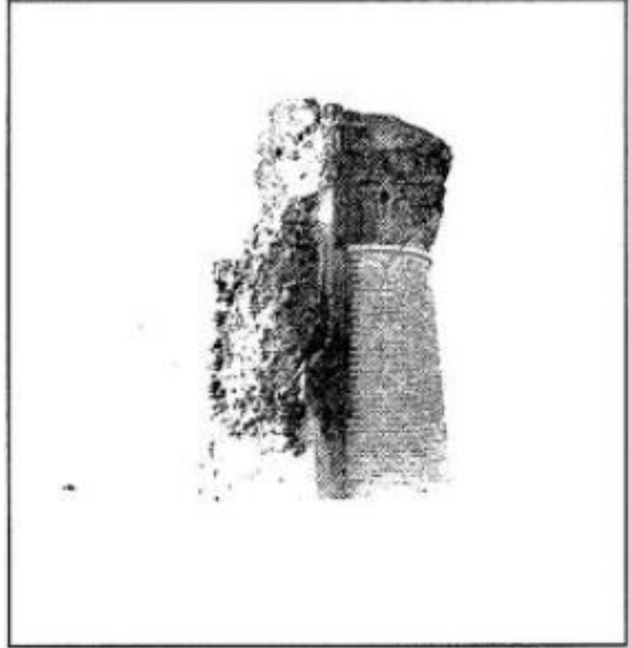
8. إضبارة التحريات رقم 18/3، سنة 1952، دائرة التحريات في الهيئة العامة للآثار.

9. ملف جامع الأحمدية، محفوظ في ديوان وزارة الأوقاف تحت رقم 15.

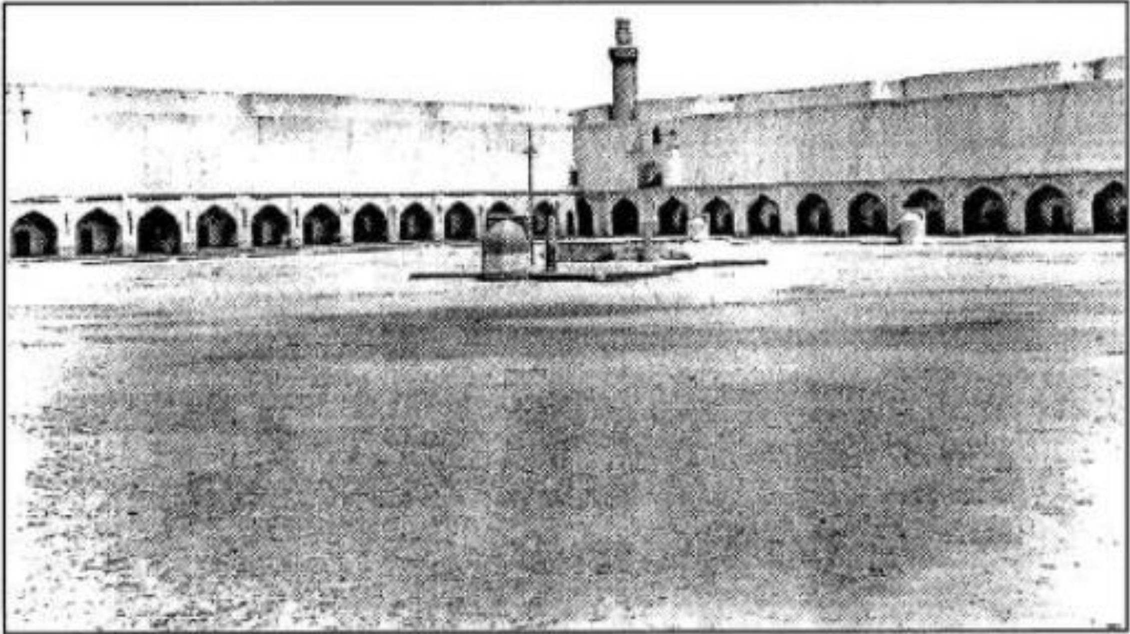
المصادر الاجنبية

1. Aslanapa, **Oktay Turkish Art and Architecture**, London, 1971.
2. Wilbert, D. W, **The Architecture of islamic Iran, ilkanid, perton** 65 university press 1915.
3. Unsal, **Beceet turkish islamic Architecture in seljuk and ottoman times**, london, 1959 .

الأشكال واللوحات



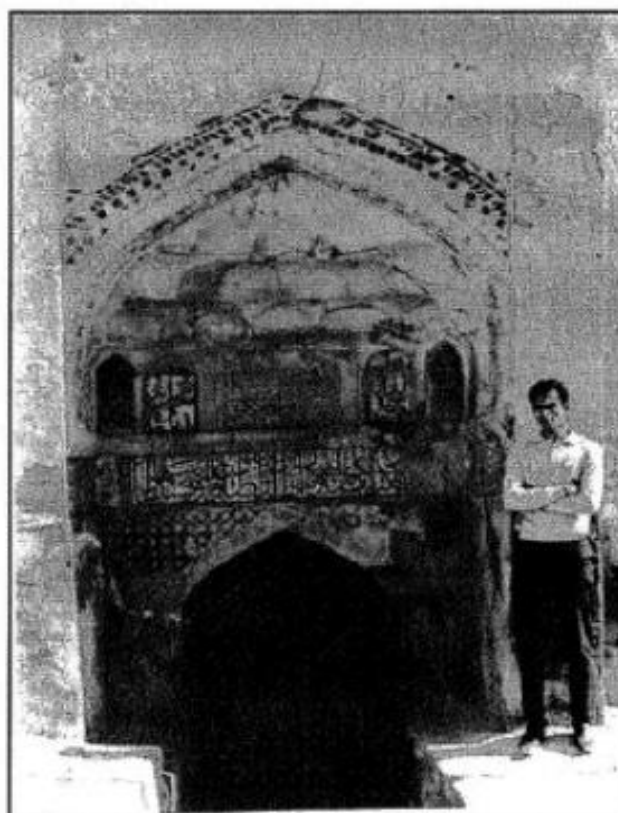
شكل رقم 1
الركن الشمالي لجامع البصرة



شكل رقم 2
أواوين المسجد المطلة على الصحن ـ مسجد الكوفة



شكل رقم 3
جامع الكوفة ودار الإمارة



شكل رقم 4
مدخل الجامع الأموي في الموصل



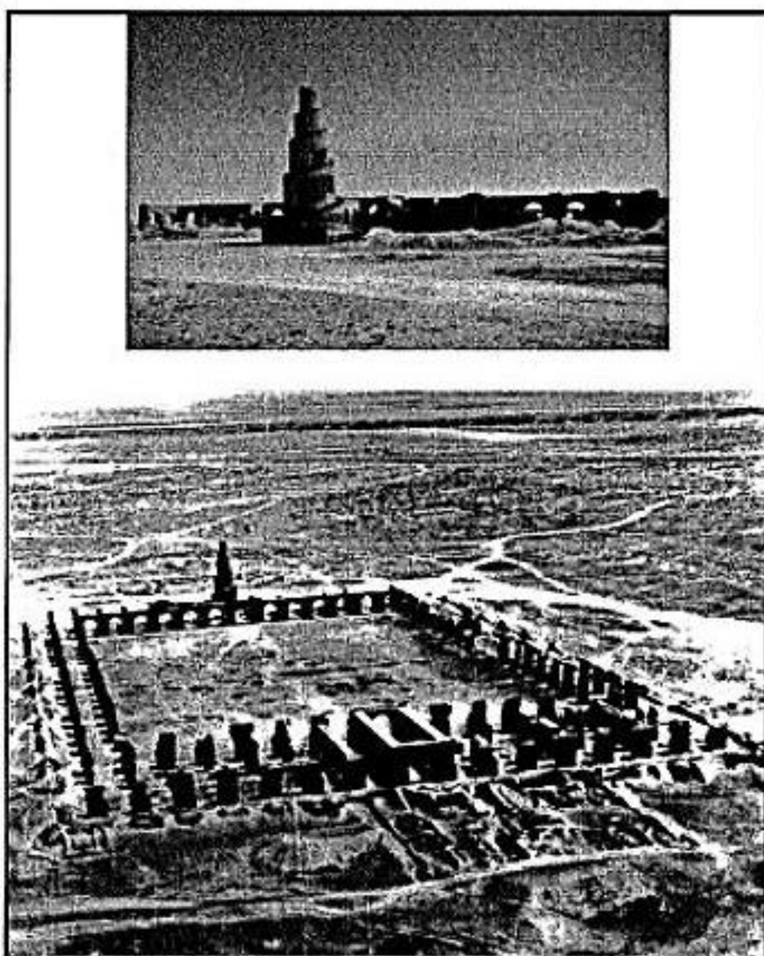
شكل رقم 5
بقايا المسجد الجامع في واسط



شكل رقم 6
دار الإمارة في واسط حيث تظهر بقايا أعمدة الجامع



شكل رقم 11
منظر جوي لجامع الجمعة
في سامراء



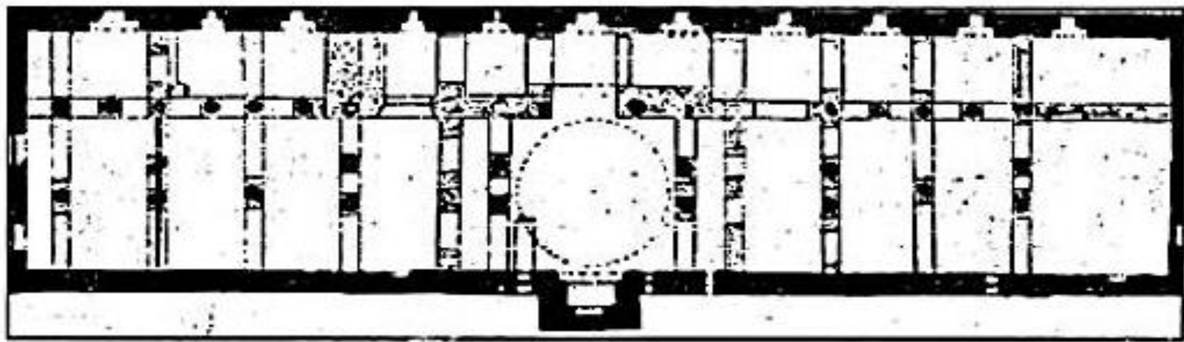
شكل رقم 12
جامع أبي دلف في المتوكلية



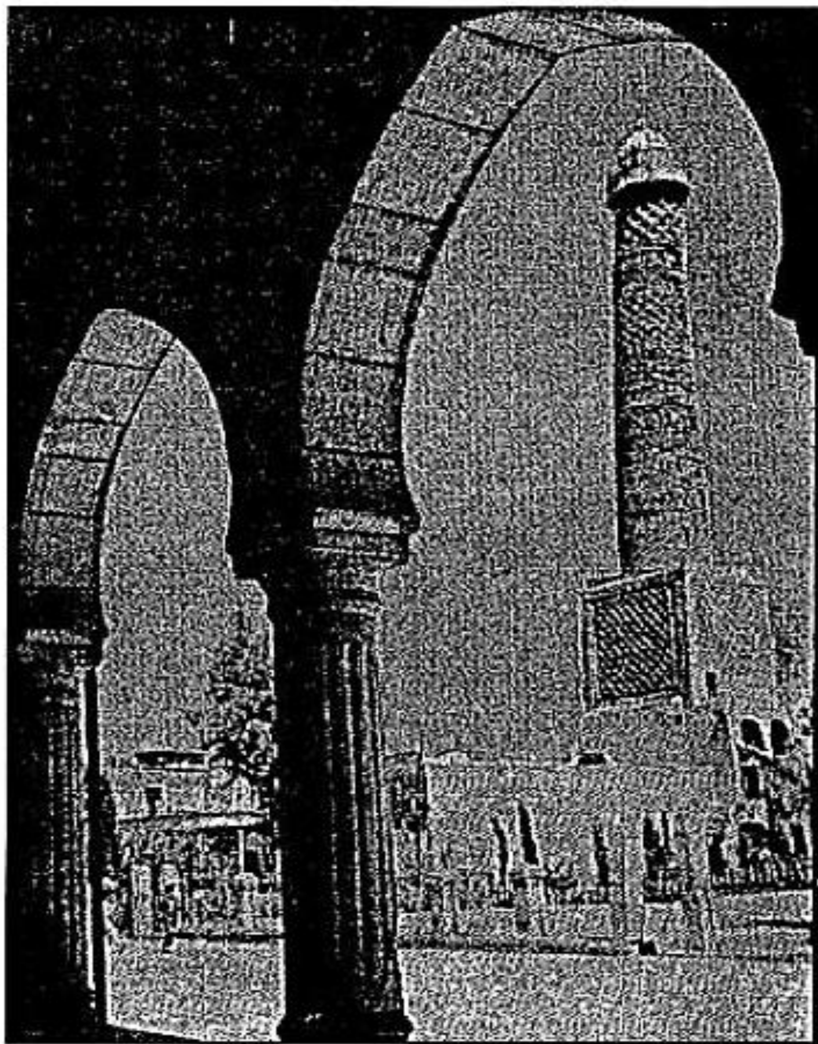
شكل رقم 13
مئذنة جامع قمرية - بغداد



شكل رقم 14
مئذنة جامع الخلفاء



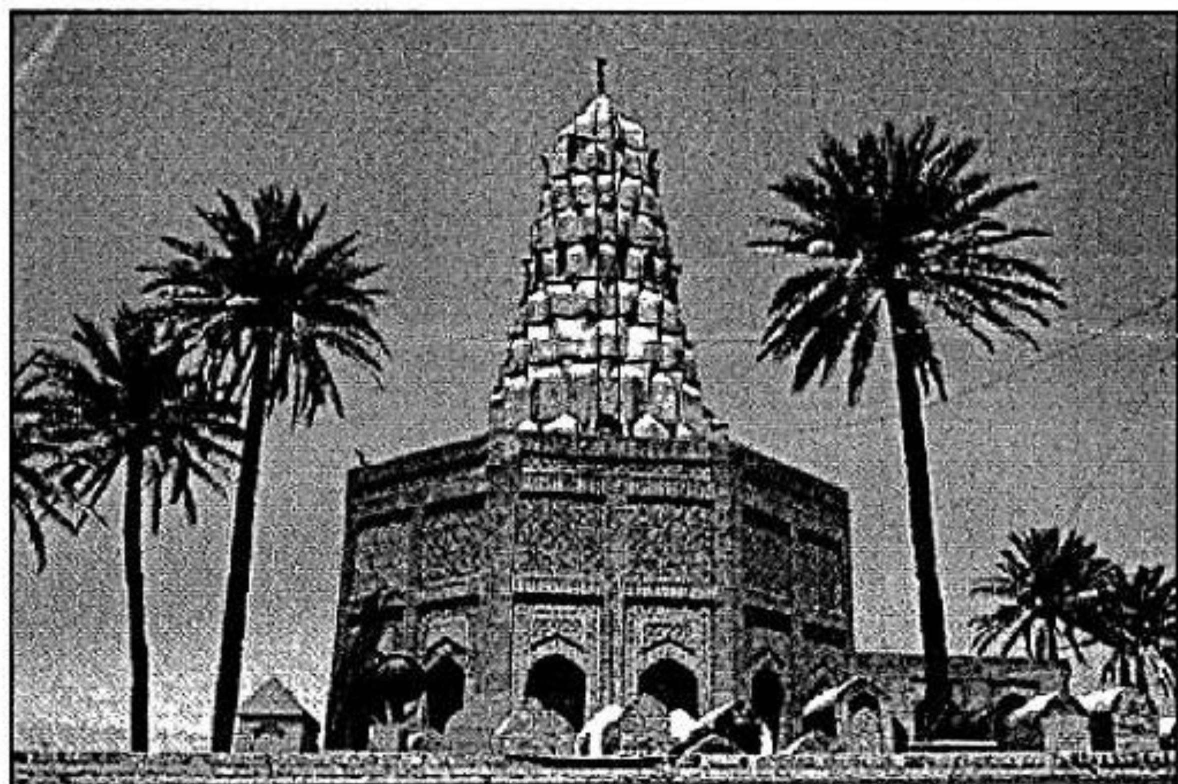
مخطط المصلى الشتوي للجامع النوري في الموصل

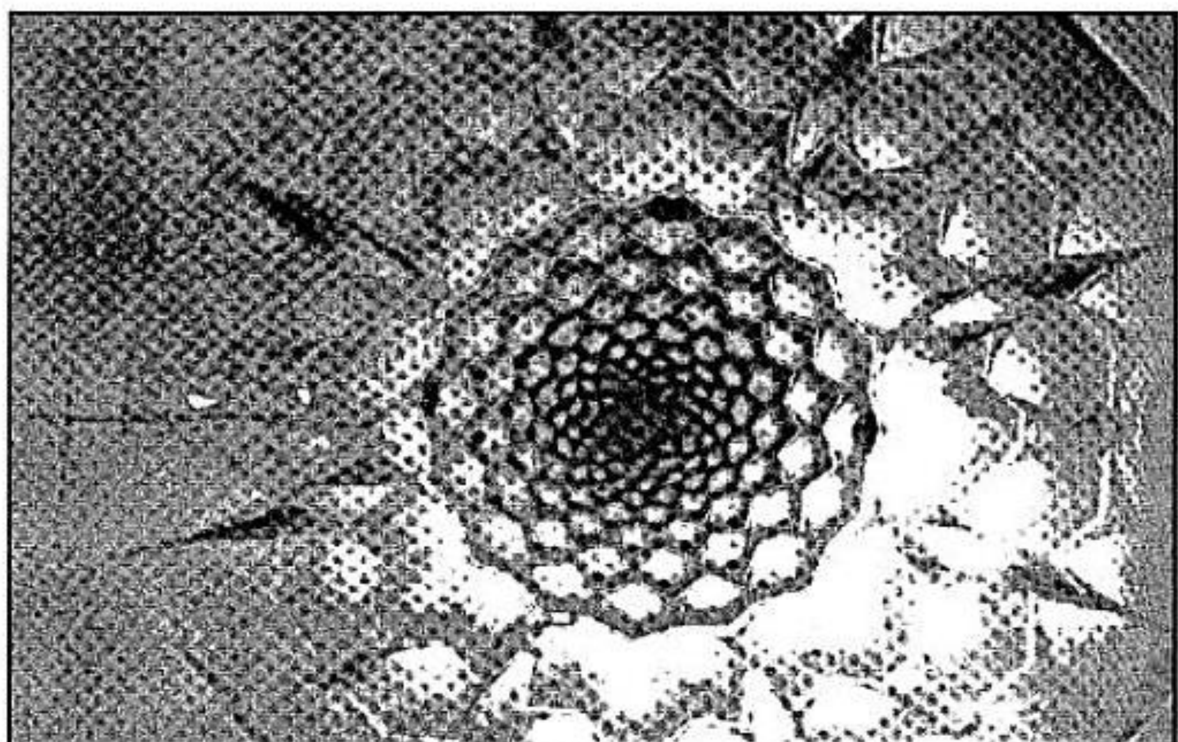


شكل رقم 15
مئذنة الحدباء ـ الجامع النوري

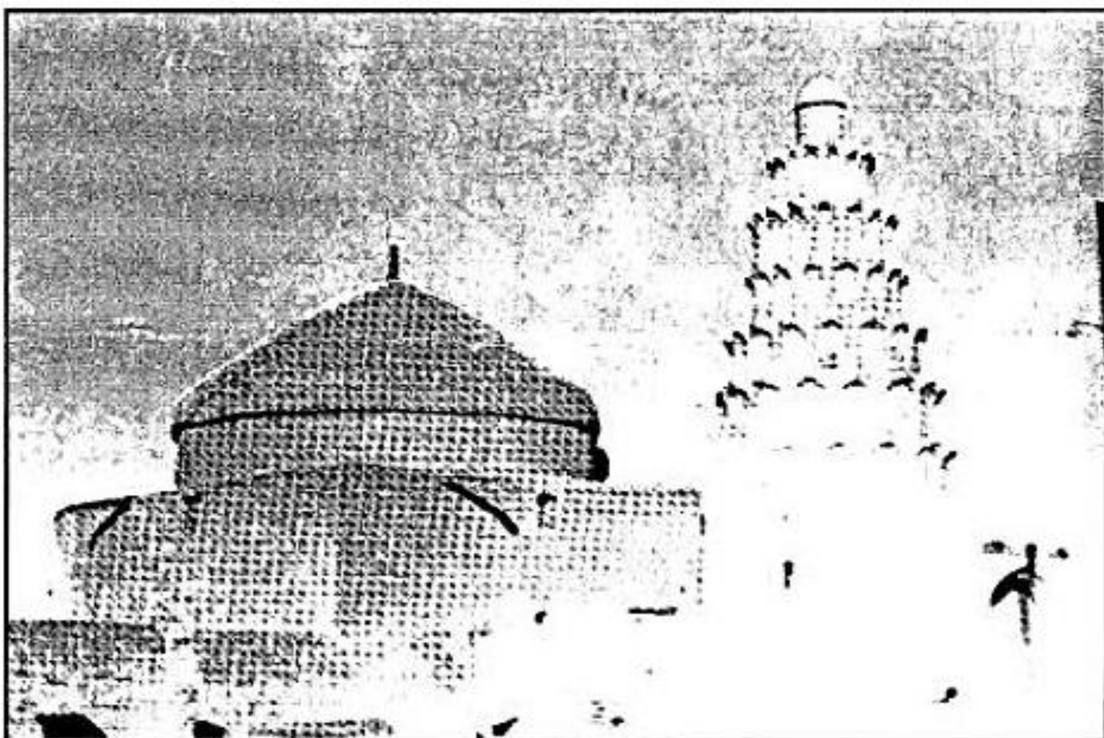
شكل رقم 16
مقطع طولي
لجامع الأحمدية في بغداد

شكل رقم 17
بلاطة محراب جامع الأحمدية

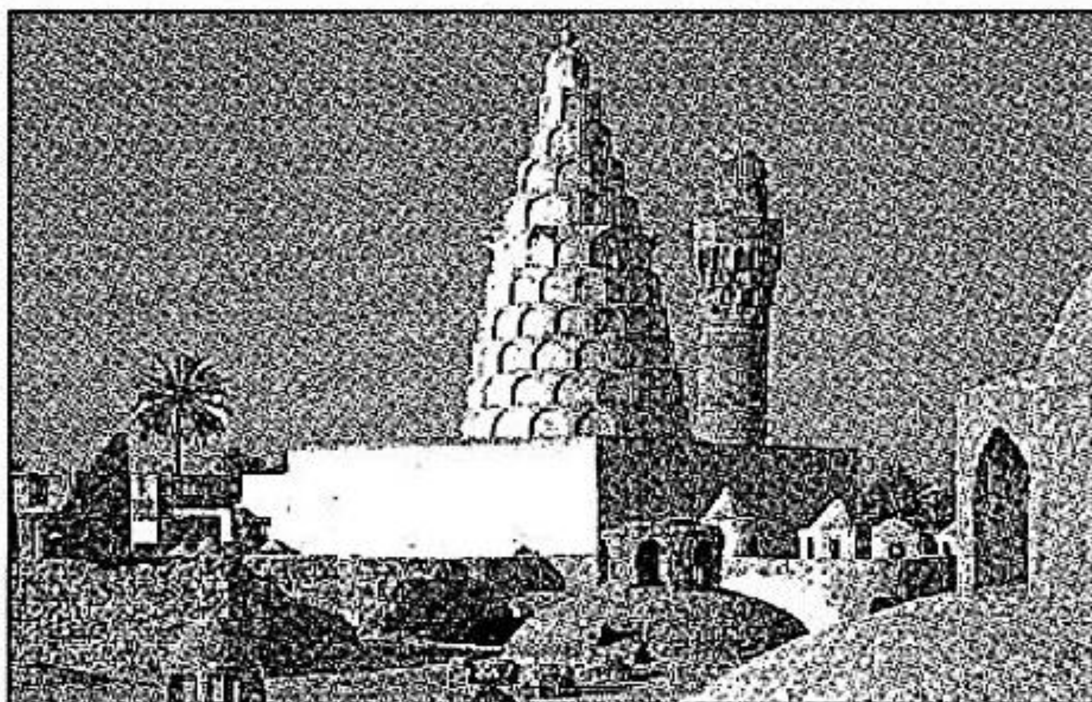




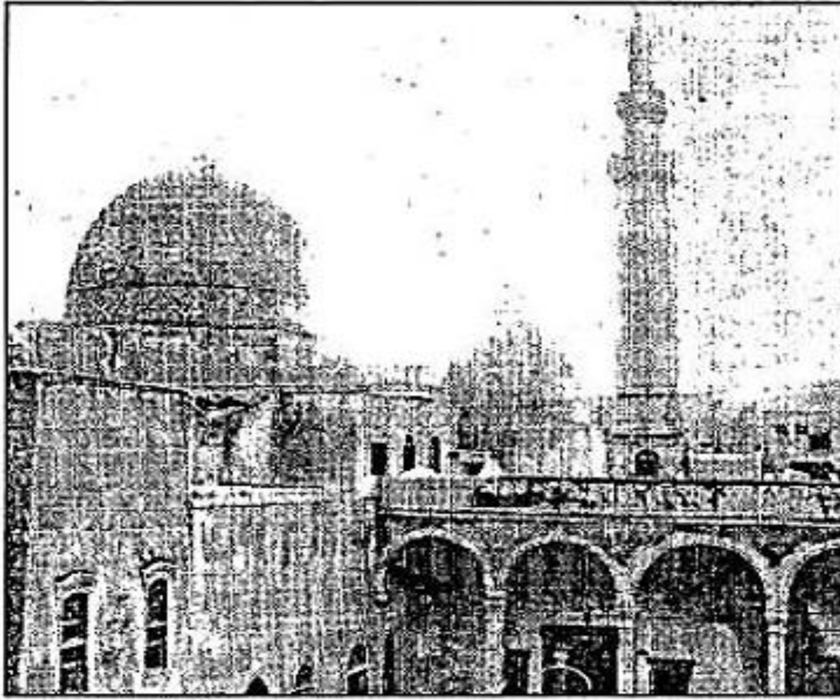
شكل رقم 18
قبة زمرد خاتون



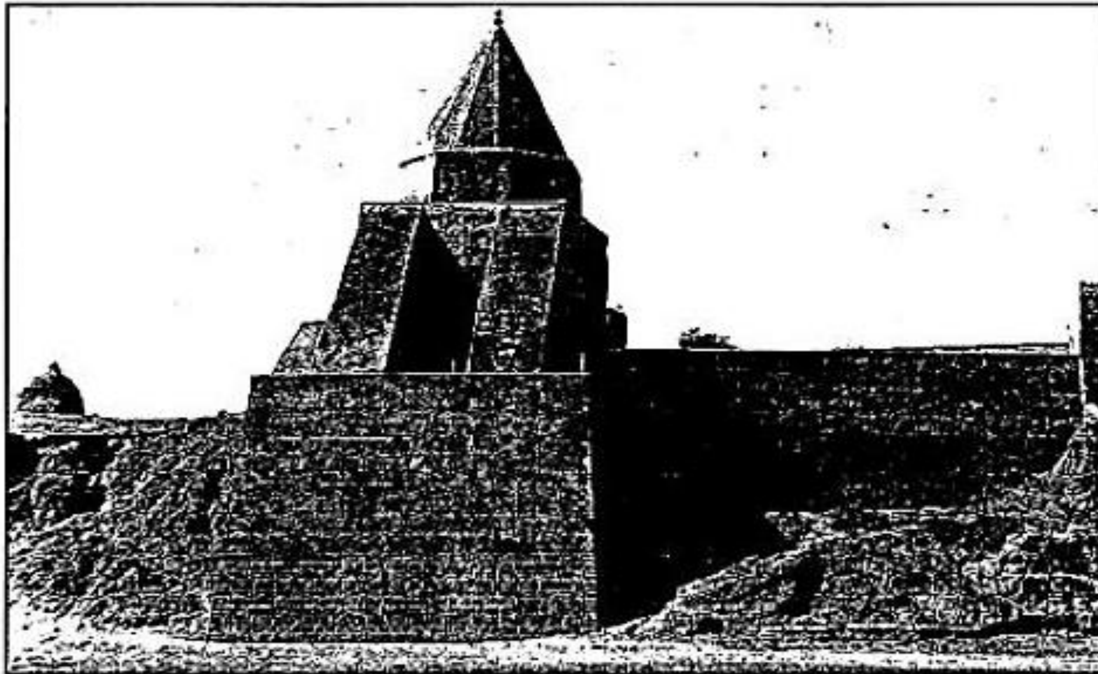
شكل رقم 19
ضريح الحسن البصري



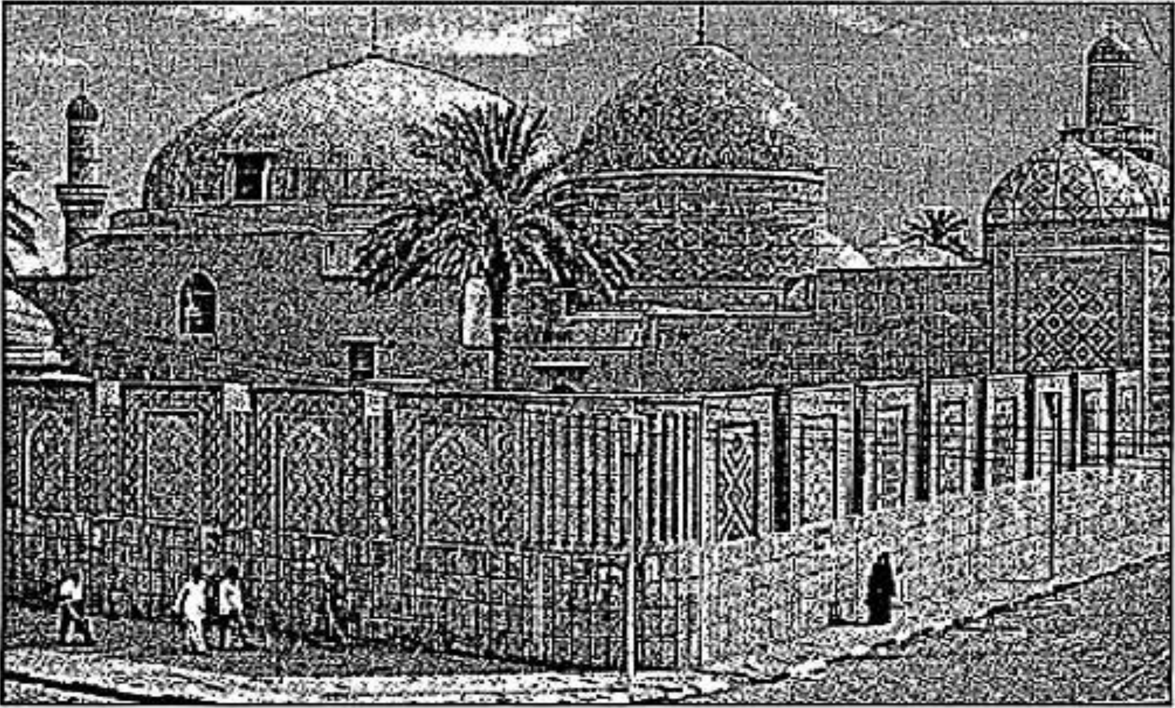
شكل رقم 20
مئذنة وقبة مرقد ذي الكفل - الحلة



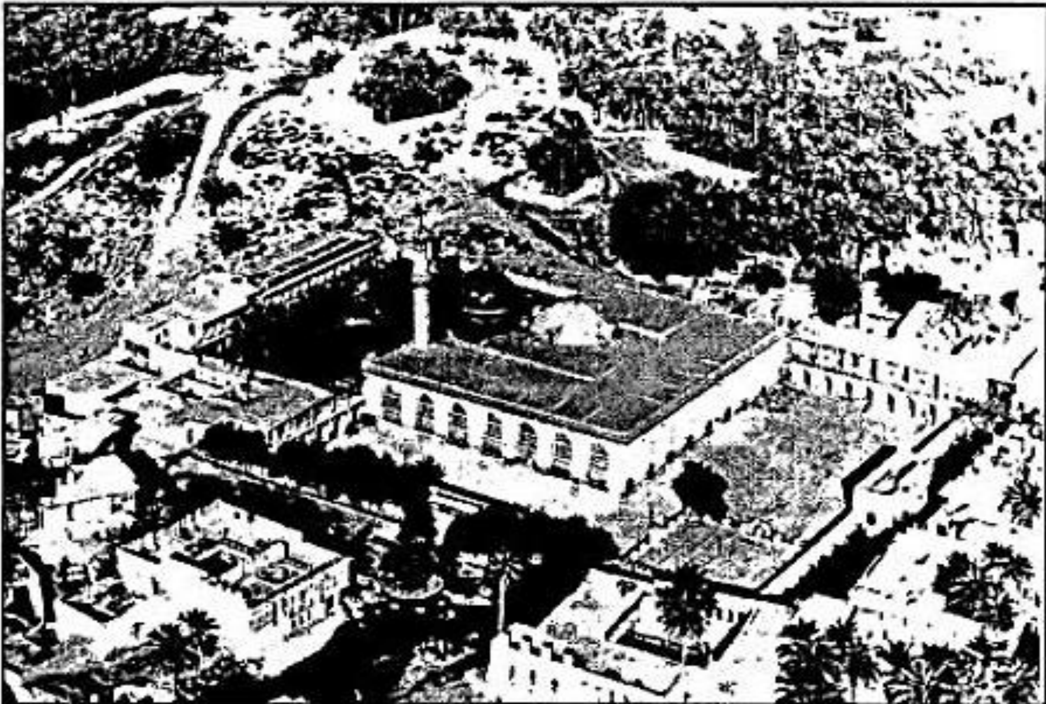
شكل رقم 21
مشهد النبي يونس



شكل رقم 22
مشهد الإمام يحيى بن القاسم في الموصل



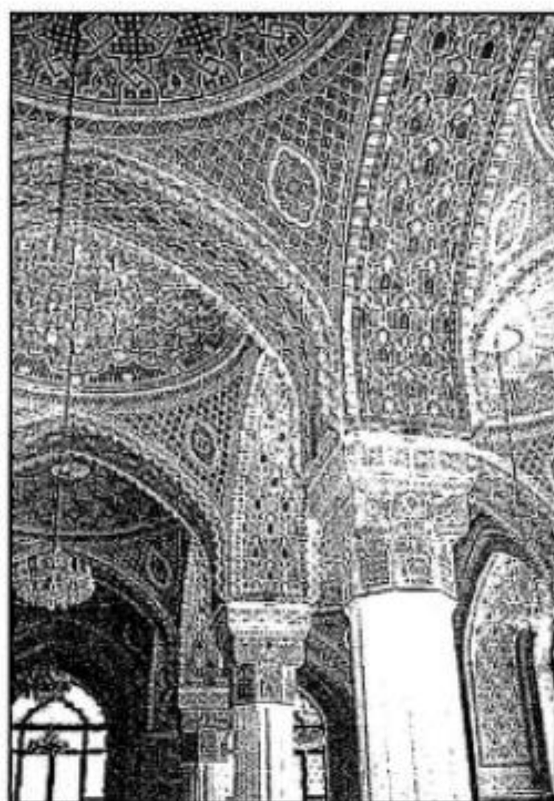
شكل رقم 23
مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني



منظر جوي يمثل جامع ومرقد أبي حنيفة

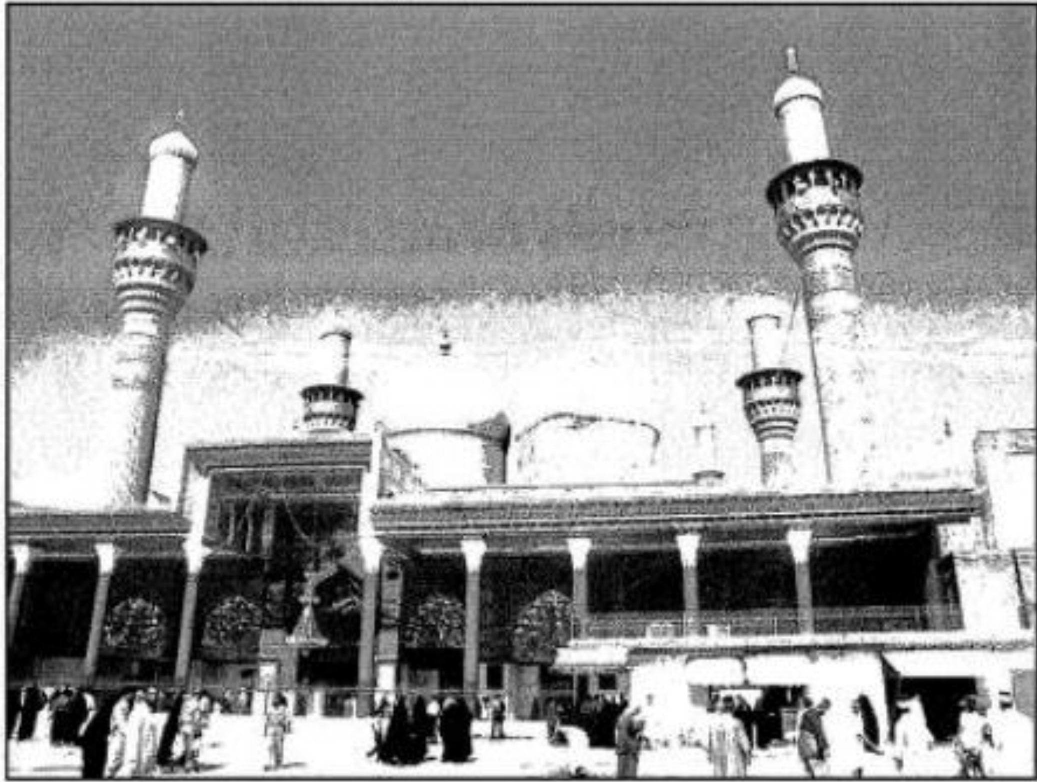


رواق بيت الصلاة المطل على الصحن



مصلى جامع أبي حنيفة

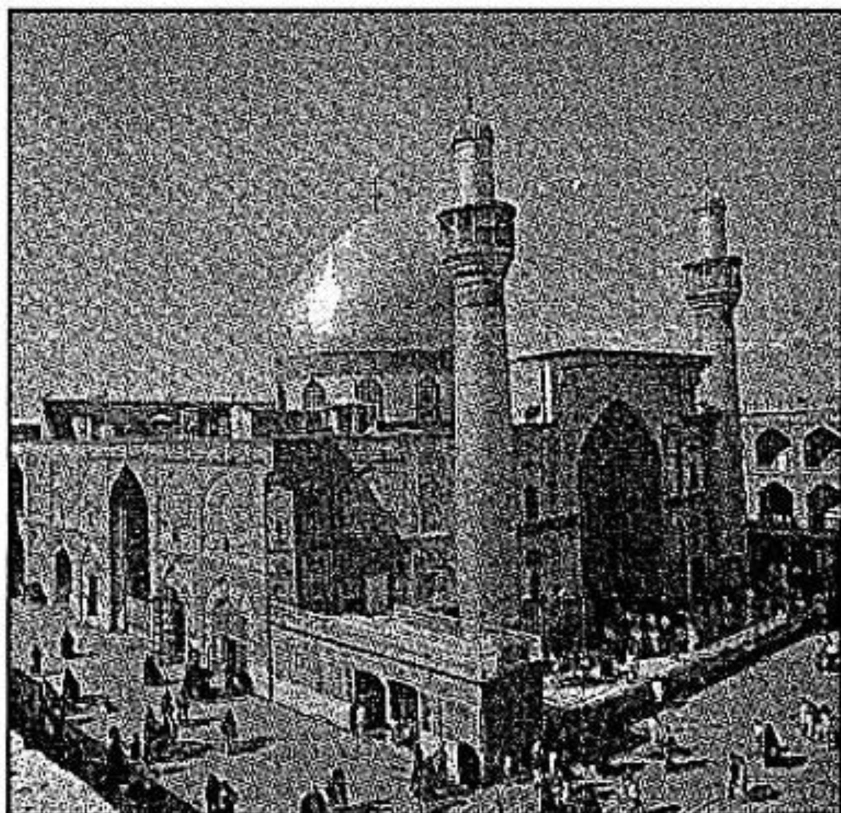
شكل رقم 24



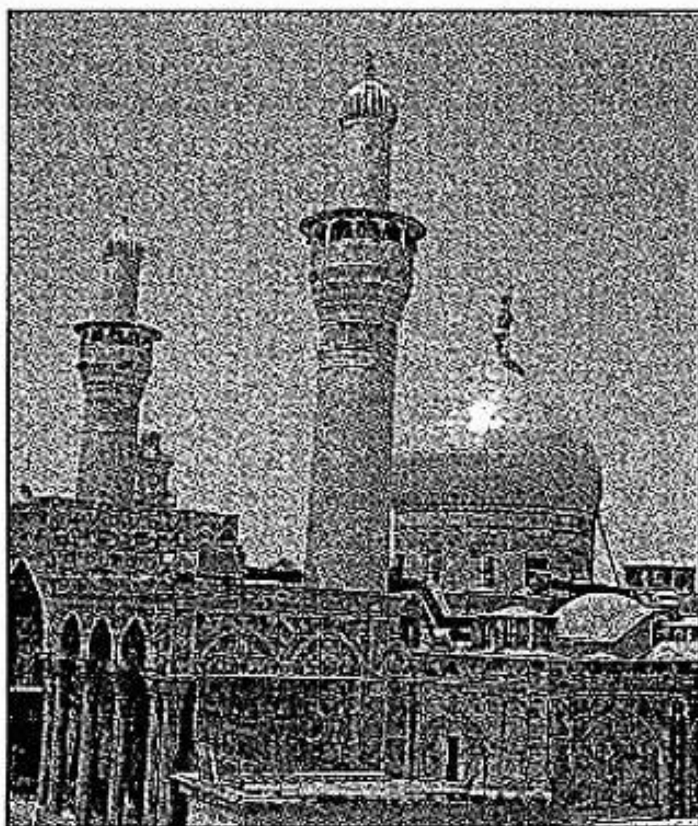
شكل رقم 25
واجهة سقيفة مشهد الإمام الكاظم في بغداد



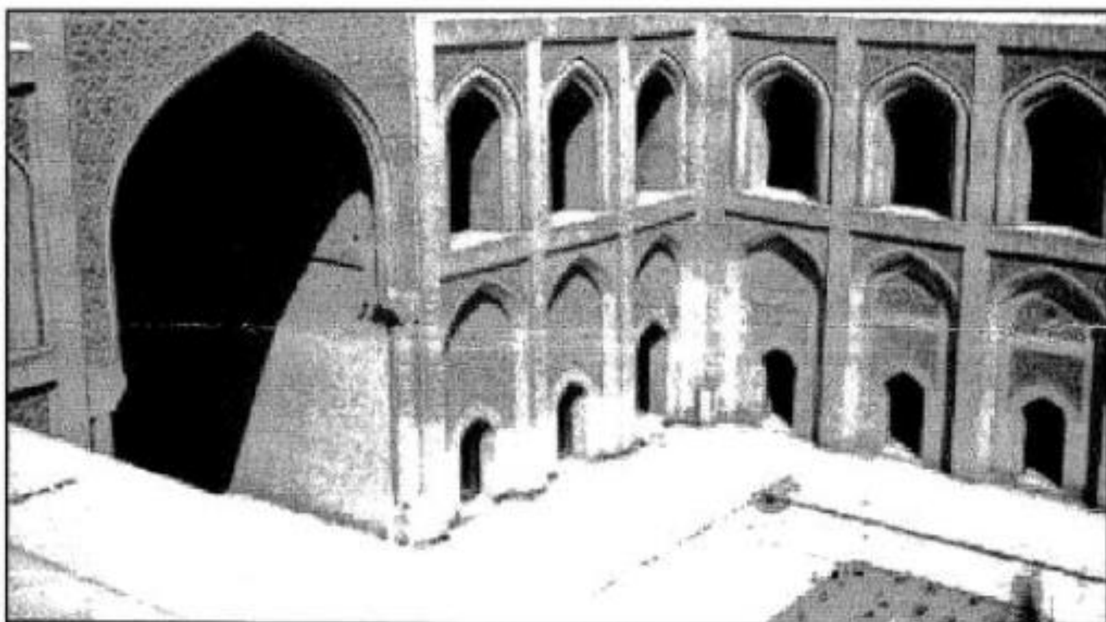
شكل رقم 26
منظر جوي لمرقد الإمام الكاظم - بغداد



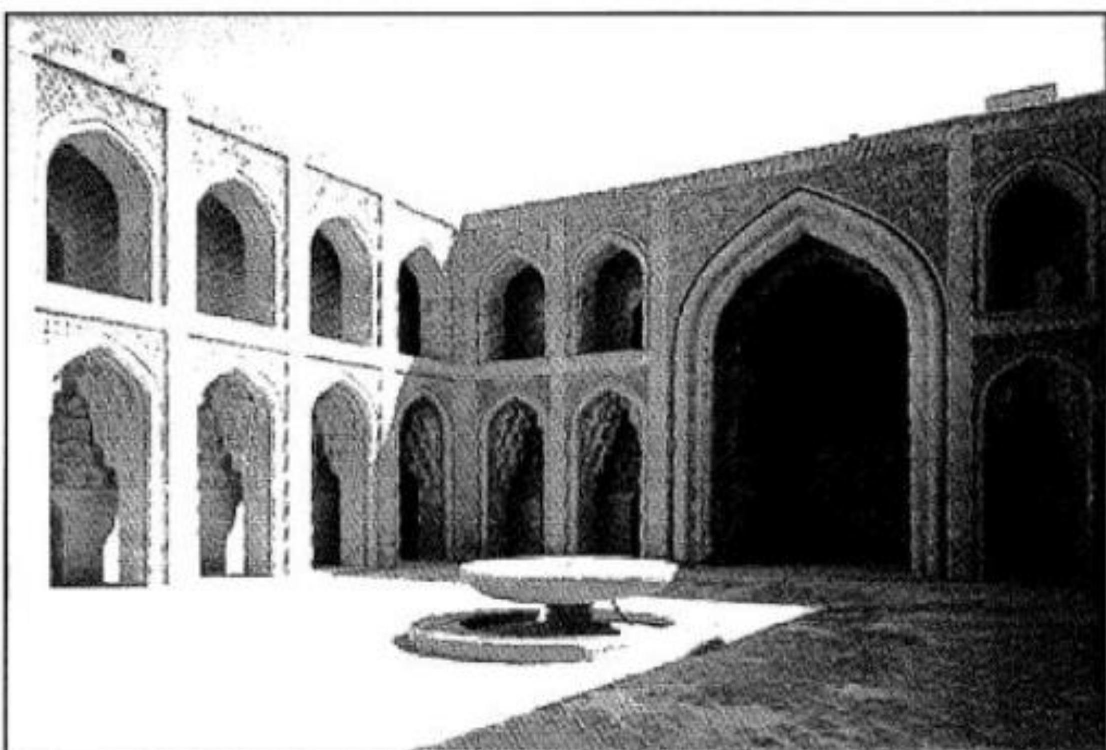
شكل رقم 27
الروضة الحيدرية
في النجف



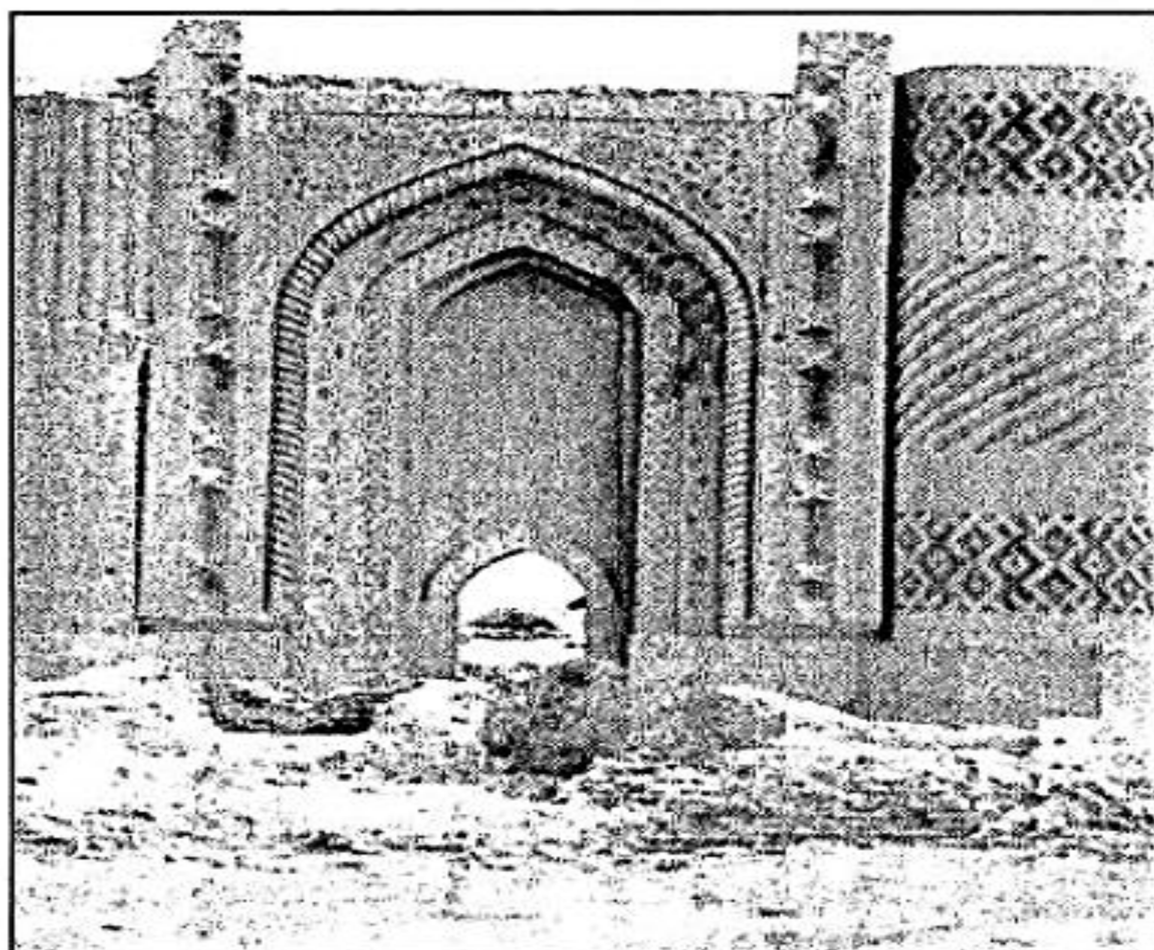
شكل رقم 28
واجهة سقيفة الروضة الحسينية



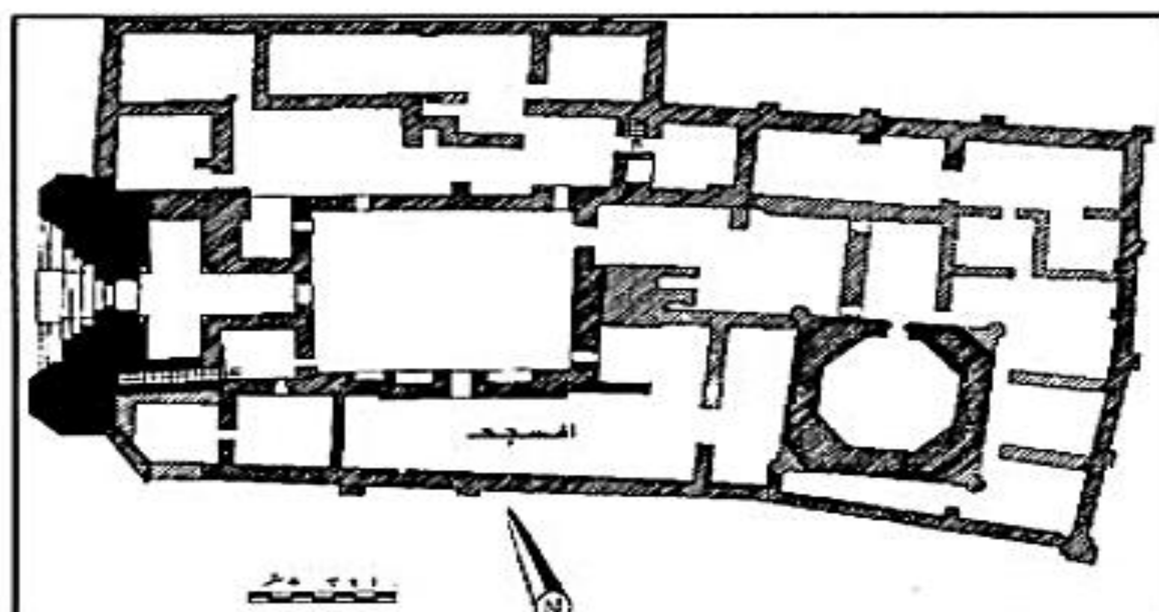
شكل رقم 29
واجهة وإيوان وحجر المدرسة المستنصرية



شكل رقم 30
القصر العباسي - الإيوان والرواق المطل على الصحن

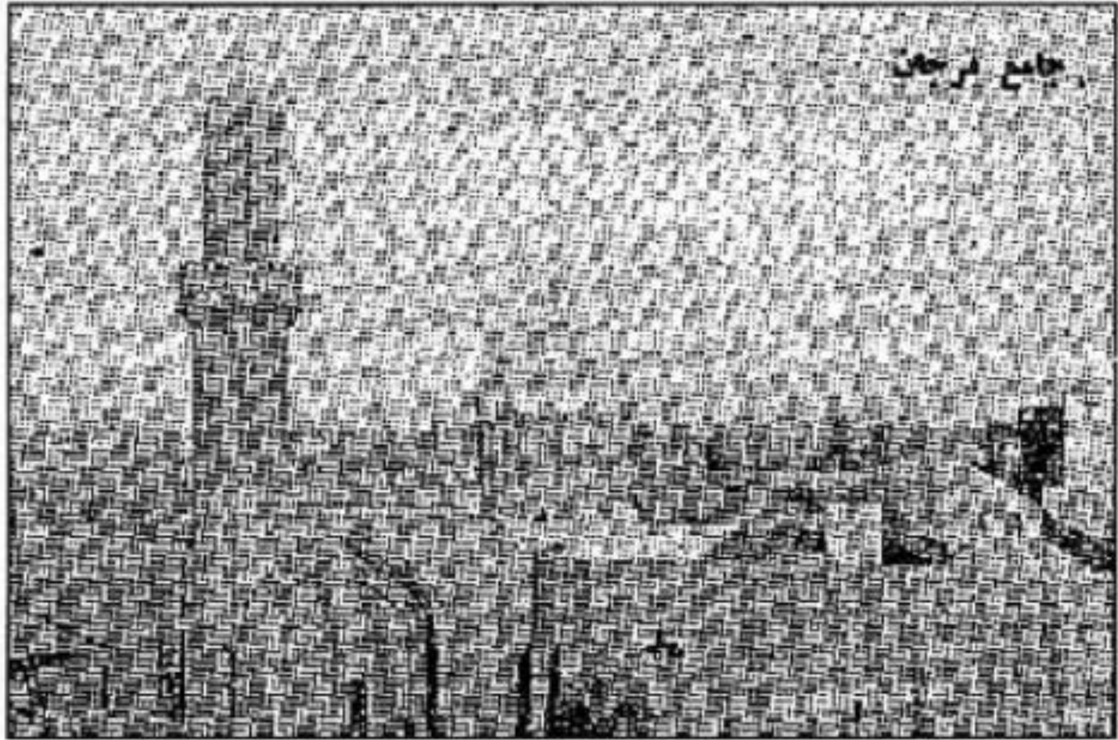


واجهة مدخل المدرسة الشرابية في واسط



مخطط المدرسة الشرابية في واسط

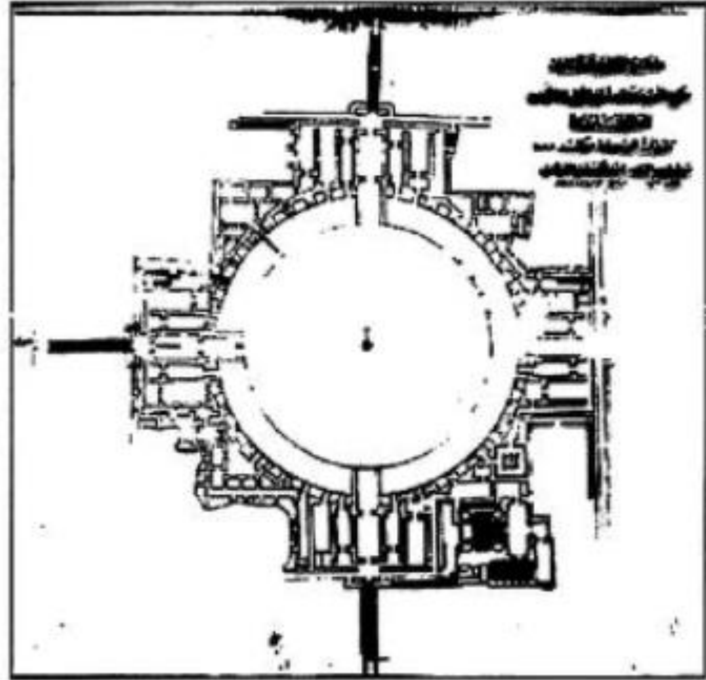
شكل رقم 31



شكل رقم 32

واجهة مدخل المدرسة المرجانية





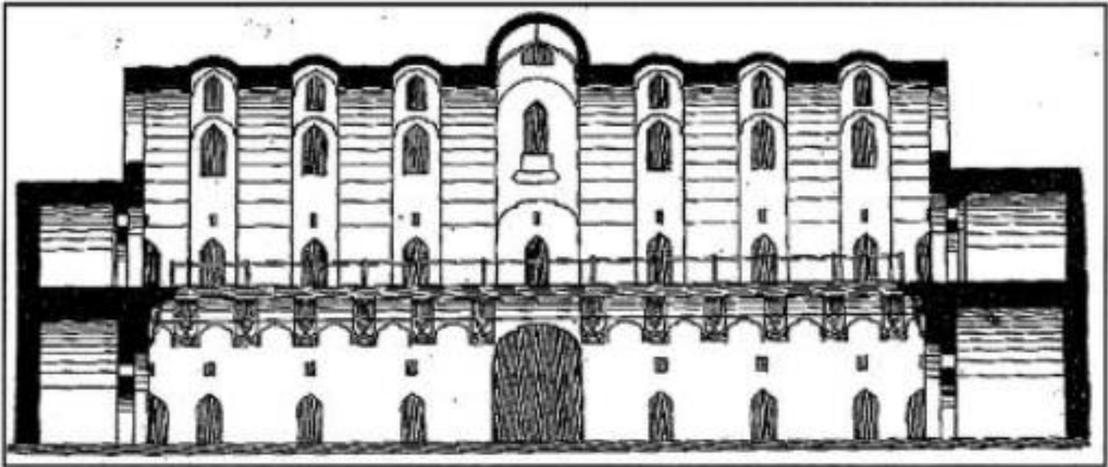
شكل رقم 37
تخطيط أرضي لمبنى البركة
القائم في دار الخلافة



شكل رقم 38
واجهة أواوين الحمام القائم في دار الخلافة المطلة على حوض السباحة (البركة)

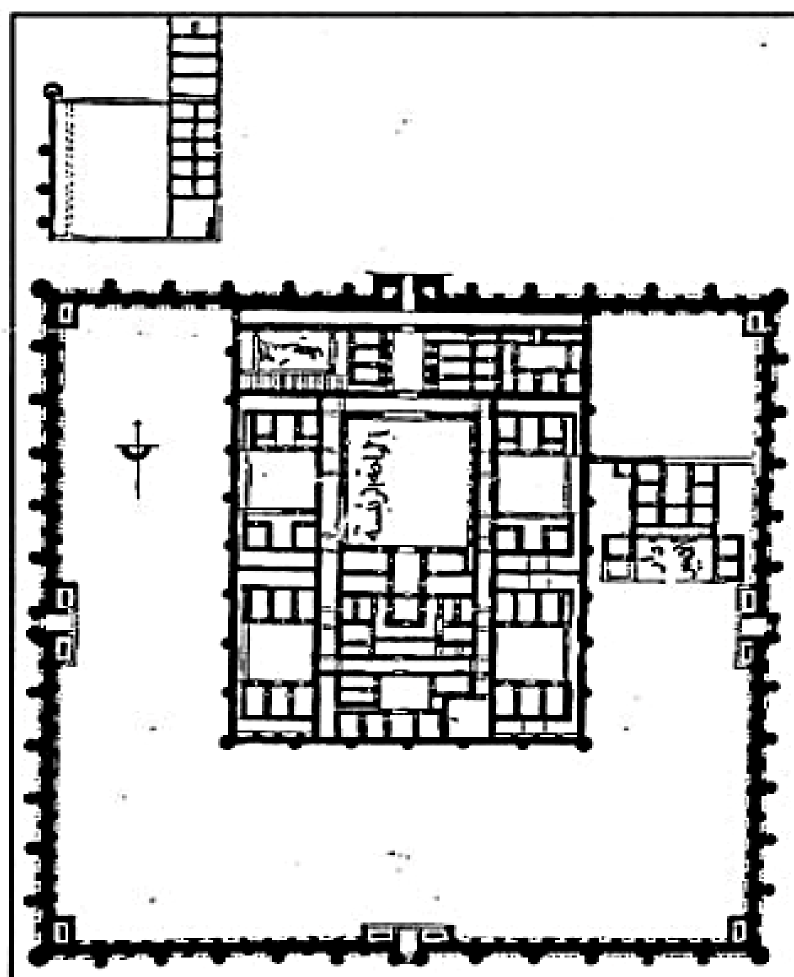


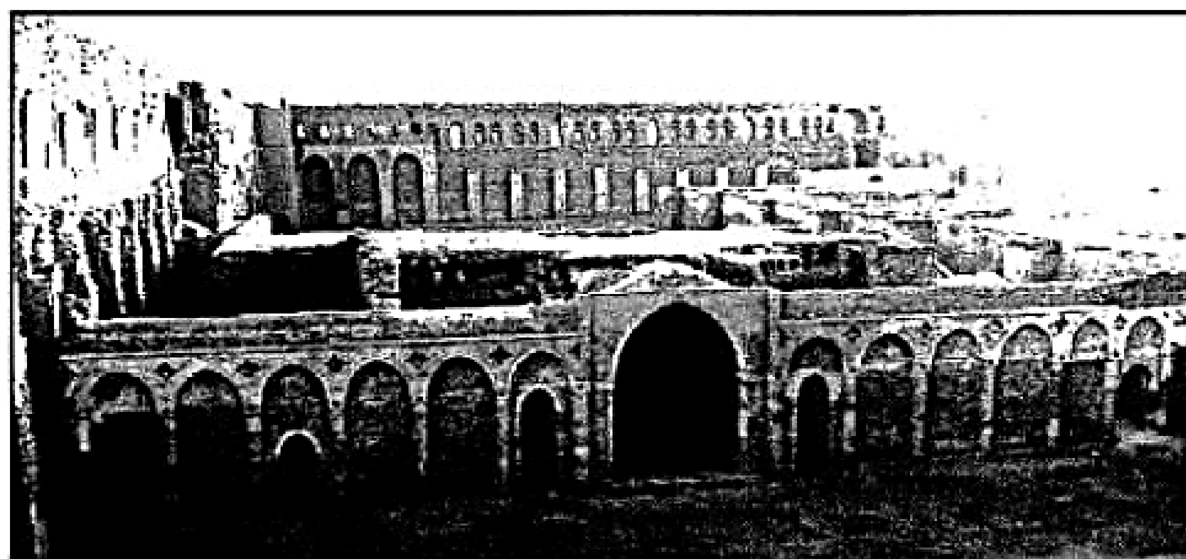
شكل رقم 39
تنقيبات الهيئة العامة للآثار في مدينة حربي الأثرية



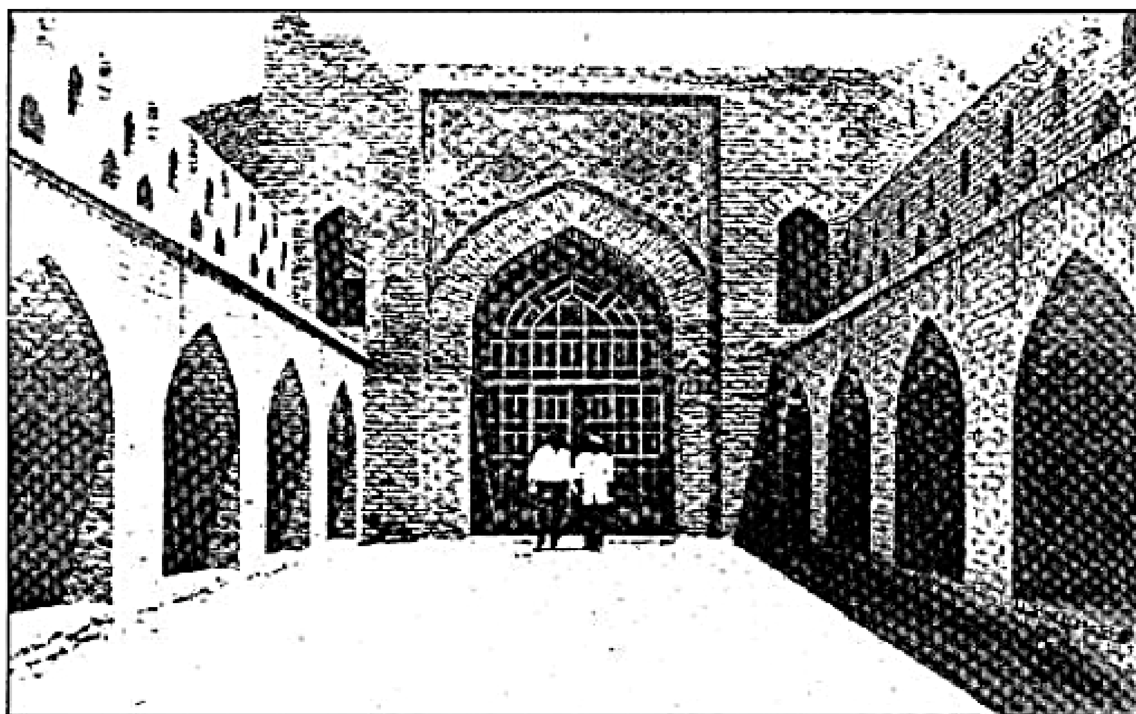
شكل رقم 40
قطاع طولي لمبنى خان مرجان في مدينة بغداد

شكل رقم 41
تخطيط أرضي لحصن الاخيضر

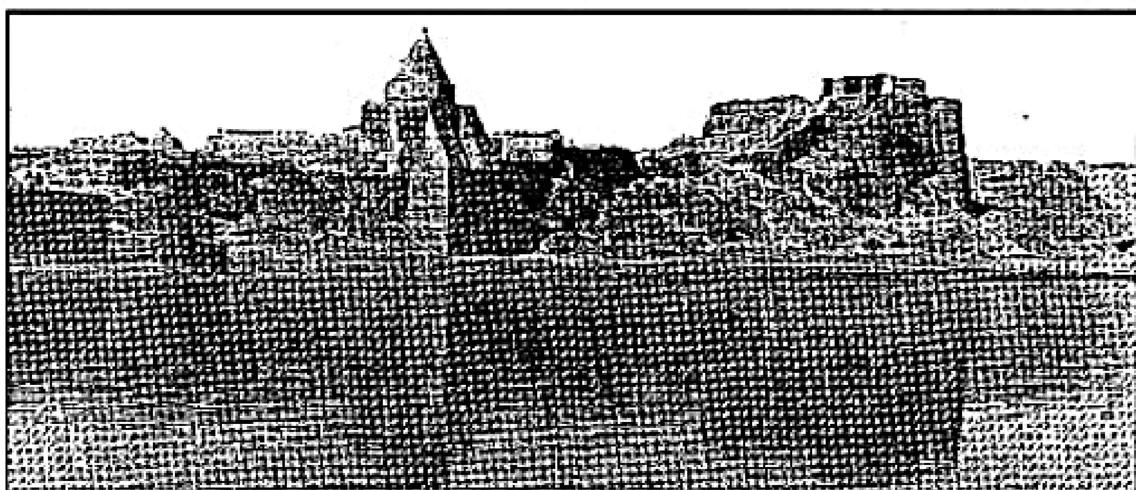




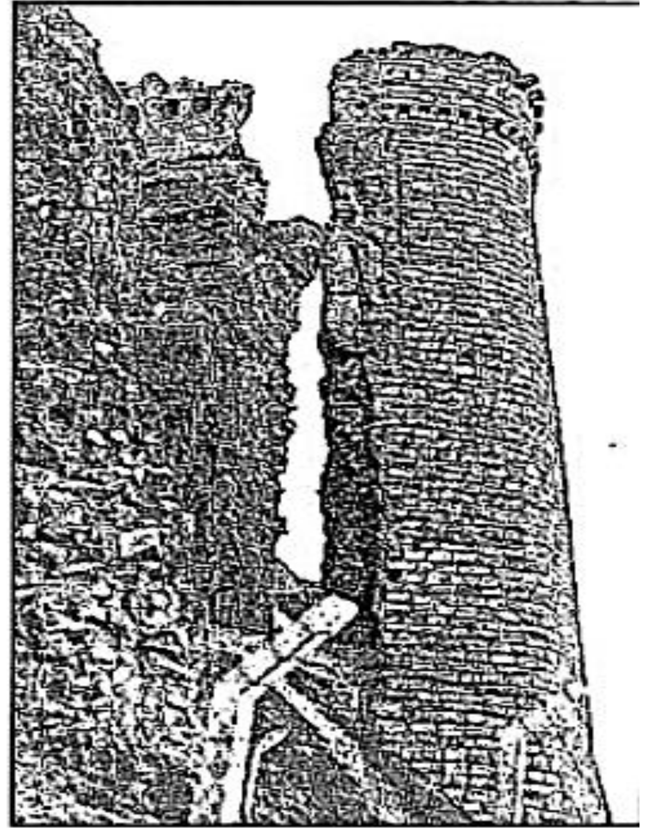
شكل رقم 42
حصن الأخيضر



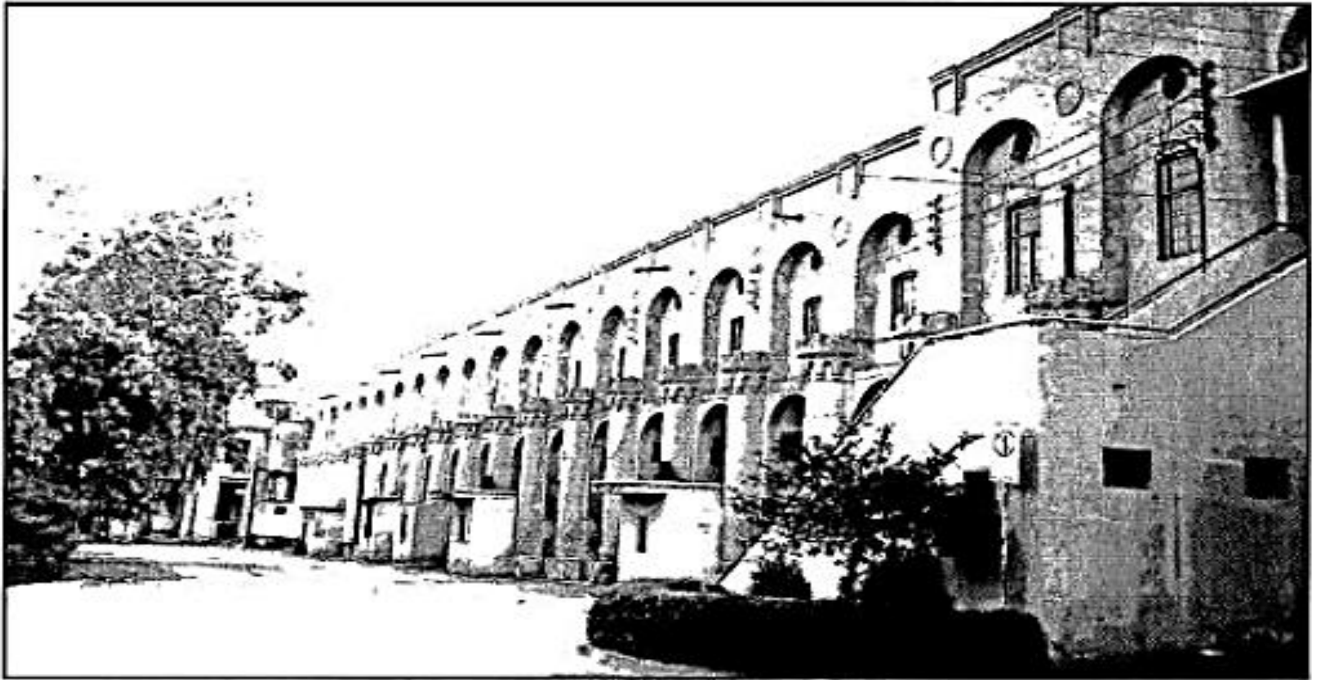
شكل رقم 43
الباب الوسطاني



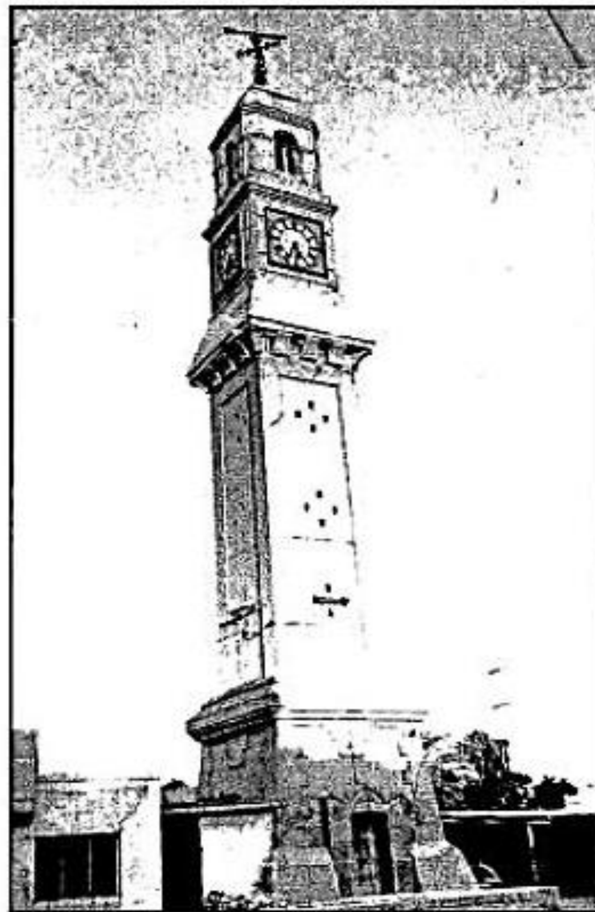
شكل رقم 44
واجهة قلعة باشطابيا المطلة على نهر دجلة



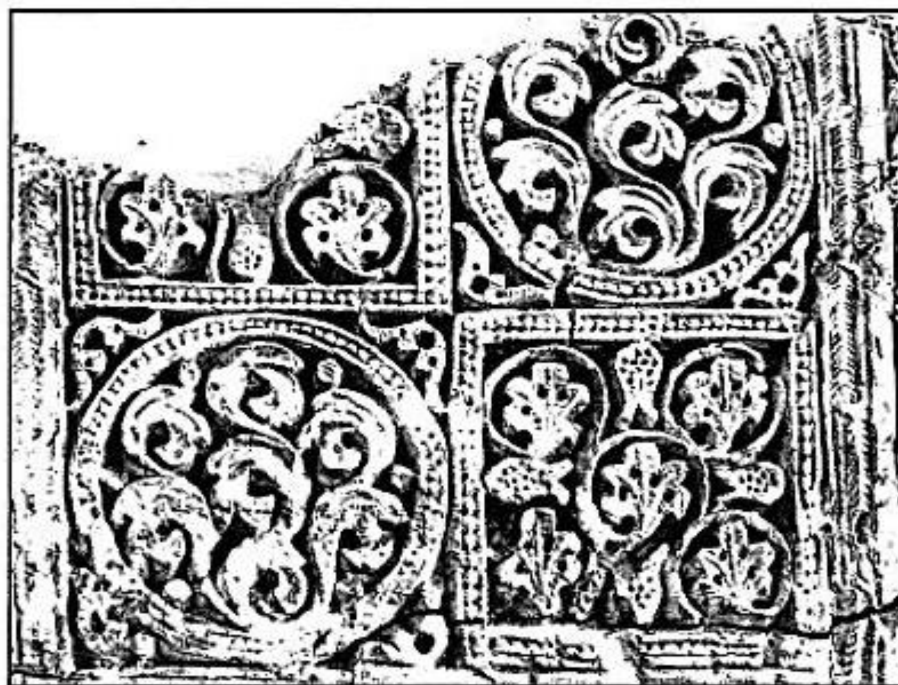
شكل رقم 45
برج قلعة باشطابيا



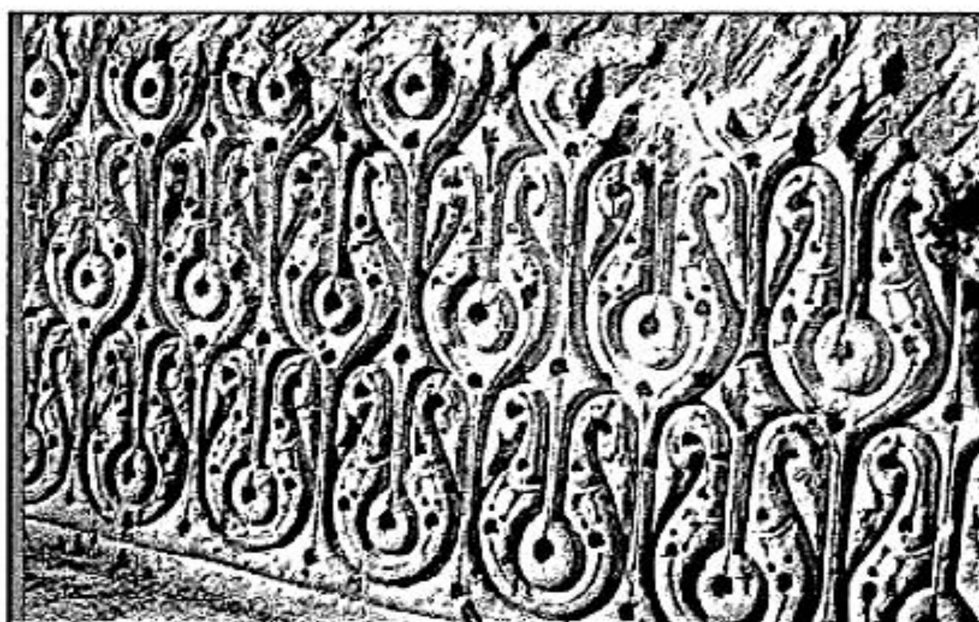
شكل رقم 46
الواجهة الداخلية لمبنى القشلة المطل على الفناء



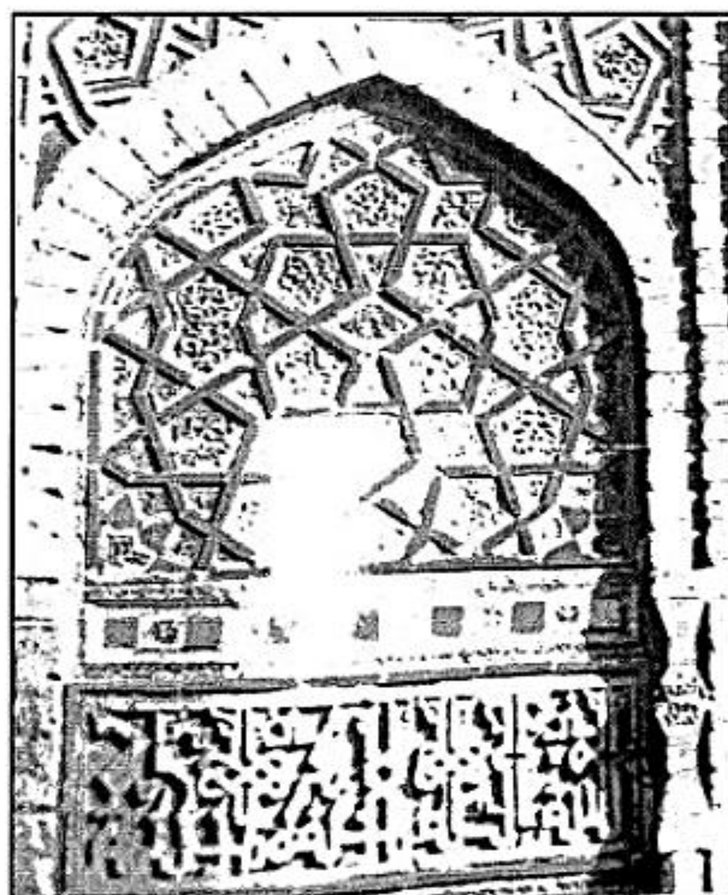
شكل رقم 47
ساعة القشلة
التي تقوم في وسط فناء المبنى



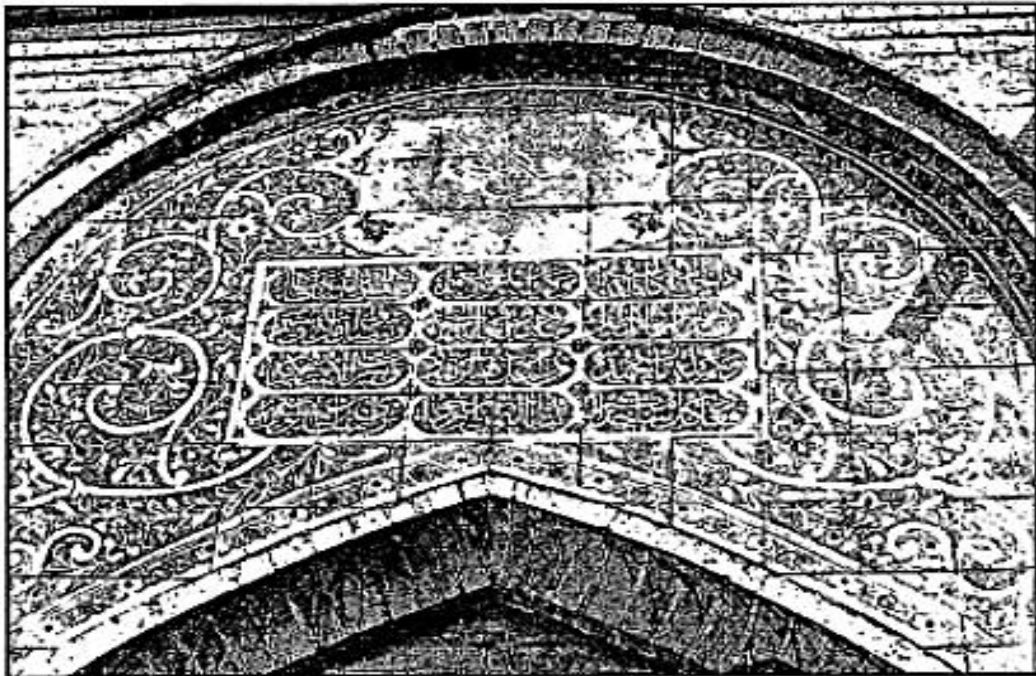
شكل رقم 48
زخارف جصية
تمثل الطراز الأول



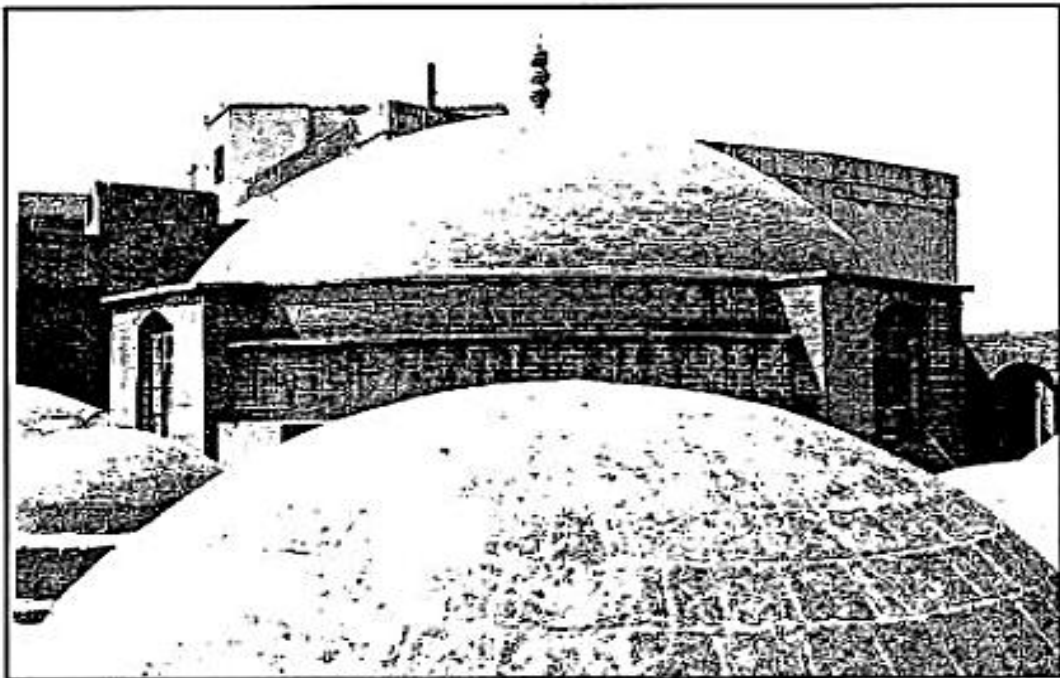
شكل رقم 49
زخارف جصية تمثل الطراز الثالث



شكل رقم 50
القراميد الخزفية والنصوص الخطية القائمة على واجهة مرقد الإمام يحيى بن القاسم



شكل رقم 51
طغراء السلطان عبد الحميد وأبيات من الشعر مدونة بخط الثلث
قائمة على واجهة مدخل جامع المرادية



شكل رقم 52
قباب مصلى جامع المرادية - بغداد